فكر علمي - ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

436
آذار 2023

مقالات

مهدي جابر مهدي
نصرت آدمو واخرون
كاظم المقدادي
فاخر جاسم
علاء حميد إدريس
ثامر الصفار

ملف شهادات

عشرون عاماً على الحرب والاحتلال

نصوص قديمة

الفارو كونيال

نصوص مترجمة

جان - ميشيل لندري

حوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور
الدكتور عامر حسن فياض

أدب وفن

حسب الله يحيي
اقلام عراقية في الخارج(ج ٢)
سهيل الزهاوي
بهاء محمود علوان
يوسف الصائغ
نجم حيدر
منار غالب حسن
نصوص ايزيدية

الثقافة الجديدة

فكر علمي ـ ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

إبراهيم اسماعيل — جواد الزيـــــدي

رضا الظـــــاهر — علي ابراهيـــــم

كاوة محمـــــود — مظهر محمد صالح

هــادي عزيــز علي

العدد 436

آذار 2023

هيئة التحرير

زهير الجزائري

هاشم نعمة

سوران قحطان

محرر (أدب وفن)

حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن اراء أصحابها

السعر داخل العراق : 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق : للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها ، وللمؤسسات (100) دولار ، أو ما يعادلها .
يحول المبلغ نقداً على الحساب الآتي :

بالدينار :
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار - بغداد
رقم الحساب : 11153
سويفت كود : MBIVIQBA

بالدولار :
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment - Baghdad
Account No :30721
SWIFT CODE : MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير : thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير : thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الآتي : hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت : http://althakafaaljadida.net
عنوان المجلة : بغداد - ساحة الاندلس .
والرجاء ارسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان .

رقم الايداع : 781
رقم الاعتماد : 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر :

* أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ان لا يتجاوز حجم المادة عن 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500-3000 كلمة.
* ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
* باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
* وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
* ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
* ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي ترد لها.
* يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
* بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يلي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
* بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).
* بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، (عنوان الدراسة أو المقالة)، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة. (لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور ...).

الاخراج الفني: نقاء حسب الله يحيى

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

العدد 436 آذار 2023

5 كلمة العدد

مقالات

8 - ديناميات الصراع وأزمة بناء الدولة ..... مهدي جابر مهدي
16 - تجارة المياه الافتراضية وتحقيق الأمن الغذائي للعراق ....نصرت آدمو ، نضير الانصاري ، فاروجان سيساكيان
24 - الاعتراف بحق الإنسان بالبيئة الصحية والمستدامة: الضرورة والأهمية..... كاظم المقدادي
33 - الإعلام الغربي والمعايير الأخلاقية: الأزمة الأوكرانية إنموذجا..... فاخر جاسم
44 - العراق: الحرب والمجتمع .....علاء حميد إدريس
46 - كارل ماركس - أبراهام لنكولن(رسالة تُنشر بالعربية لأول مرة)..... ثامر الصفار

ملف شهادات ...عشرون عاما على الحرب والاحتلال

52 - ما بين الاحتلال والتحرير.....جواد وادي
55 - شهادتي عن حرب لم أكن فيها .....زهير الجزائري
59 - الخلاص من الدكتاتور والدخول في نفق الاحتلال... شهادة بعد عاما.....صادق الطائي
62 - ألا فلبنكِ الرخامَ الجميل ..... طالب عبد العزيز
67 - شمس ودخان ... البصرة تخسر حلمها.....علي أبو عراق
71 - الضباع لا تنتظر طويلاً..... قاسم الساعدي

نصوص قديمة

74 - البديل الديمقراطي هو برنامجنا .....الفارو كونيال

نصوص مترجمة

80 - العنف الرمزي عند بيير بورديو...جان - ميشيل لندري..... ترجمة: نجاة تميم

حوارات

86 - (الثقافة الجديدة) تحاورالدكتور عامر حسن فياض..... حاوره: سوران قحطان

أدب وفن

100 - ما كان وما نحن عليه.....حسب الله يحيى

ملف باب أدب وفن : اقلام عراقية في الخارج/ ملف خاص (ج ٢)

101 - الجالية العراقية في السويد وموضوعة الاندما..... محمد الكحط
106 - الوطن وحقيبة السفر.....رحمن خضير عباس
109 - حكاية وطن في وطن اخر!.....فارس حيدر مهدي
111 - حكاية مهاجر..... أروى السامرائي
112 - الغريب ..... جنينة كوركيس
113 - تمثال وحرية..... كولالة نوري
114 - نصان.....عقيل منقوش
115 - قصص قصيرة جداً.....هيثم بهنام بردى
117 - ملحمية برتولت برشت في المسرح.....بهاء محمود علوان
120 - امرأة الليل الأعمى..... يوسف الصائغ
133 قصة قصيرة / افجعتها المصيبة .....سهيل الزهاوي
135 - الشكلانية الروسية .قراءة تحليلية جمالية ..... نجم حيدر
141 - الفانتازيا والاسقاط التاريخي!.....منار غالب حسين

نصوص ايزيدية

143 - ارتاحي كاترين.....حجي خلات المرشاوي
145 - أرشيف..... حسام الشاعر
146 - غريب (قصة) ..... قحطان الداسي
147 - نصيبي من اللغة..... أمير بركات
148 - سئمتُ العيش..... سالار الكوجك
149 - سكنتْ.....سليمان ألعدوي

التصميم والإخراج الفني: نقاء حسب الله يحيى

لوحتا غلافي العدد للفنان كريم سعدون

خمسة شهور على تشكيل حكومة السيد محمد شياع السوداني

حسابات البيدر لا تطابق حسابات الحقل !!

ما أنْ يصدر هذا العدد ليكون بين يدي قرّائه، سيكون قد انقضى ما يقارب خمسة أشهر على نيل حكومة السيد السوداني ثقة مجلس النواب. فانطلاقا من نص الدستور، تشرع الحكومة في تأدية مهامها الرسمية، منذ لحظة تصويت مجلس النواب على وزرائها، وعلى المنهاج الوزاري. وهذه المدة، على الرغم من قصرها النسبي، لكنها برأينا كافية ليشرع المختصون والباحثون والسياسيون في عملية تقويم أولي لأدائها والحكم عليها. بل وحتى تحديد الخطوط العريضة لما سيؤول إليه الوضع لاحقا.

وعلى الرغم من الملاحظات الجدية على عدد غير قليل من الوزراء، فإننا نرى، بغية الابتعاد عن الشخصنة، أن أي حكم وتقويم للحكومة يجب ان ينطلق من المنهاج الحكومي وفاعلية الحكومة في انفاذه. وكذلك من المسؤولية التضامنية التي يتحملها معا رئيس مجلس الوزراء والوزراء في أداء الحكومة لمهامها وايفائها لتعهداتها، وإنْ كان الأول يتحمل المسؤولية الأكبر بحسب بنود الدستور.

المنهاج الحكومي.. رؤية شعبوية

من المفترض ان يكون المنهاج الحكومي المُعبر الأساسي عن شخصية الحكومة. فهو يمثل رؤيتها الاستراتيجية، ومخططا عاما تضع على أساسه الوزارات برامجها وخططها للمرحلة اللاحقة من عمرها، وبالتالي الوثيقة الأرأس في تقويم أداءها. وبالفعل كان منهاج حكومة السيد السوداني انعكاسا حقيقيا لشخصيتها. وهنا يجب أن نعترف أن هناك العديد من المحاور والقضايا المهمة والقطاعات الخدمية الاساسية في حياة المواطنين، اخذت لها موقعا بارزا في المنهاج الوزاري لحكومة السيد السوداني. لكن يبدو ان رؤية الحكومة الجديدة، لإيجاد حلول لهذه القضايا والاشكاليات، او لتطوير القطاعات الخدمية قاصرة ويشوبها خللٌ كبير. فالعموميات ملمح واضح يشوب الكثير من فقرات المنهاج. حيث صيغت الفقرات بإطلاق وعمومية عالية، والخطوات التي "ألزمت" الحكومة نفسها بها لا يمكن إنجازها ضمن سياقات العمل الحالية، خلال مدة السنة. وهي المدة التي من المفترض إجراء انتخابات مبكرة فيها، كما ورد في ورقة المنهاج. فهل سيتمُّ حل مشاكل، مضى على بعضها عقود، والاستجابة لمطالب رفعت منذ سنين، بمجرد جُملٍ عامة دون أي ملموسية، ووعود معتادة ومكررة؟! ام ان علينا انتظار اعلان "البرنامج الحكومي الشامل"، الذي طال انتظاره، لمعرفة التفاصيل؟! هذا البرنامج التفصيلي الذي من المفترض ان تطلقه الحكومة بحسب ما جاء في نهاية مقدمة المنهاج "غير المعنونة"، كي تبدأ في تنفيذ خطتها بحسب الأولوية. وهذه هي خمسة أشهر قد مضت ولم نسمع شيئا عن البرنامج الموعود!

ان أي قراءة سريعة لمنهاج حكومة السيد السوداني ستسبر "اغواره"! بسهولة ويسر، وتكتشف كنهه،

كرؤية شعبوية بامتياز. ويكفينا لفهم سبب ذلك ما أشارت له مقدمة المنهاج صراحة، عندما ذكرت ان إعداده كان على أساس ما تم الاتفاق عليه بين الكتل السياسية بـ (ورقة المنهاج الوزاري)، والتي أدرجت لتكون جزءا لا يتجزأ منه.

حكومة ردود أفعال !

يمكن القول ان السمة الأبرز لحكومة السيد السوداني خلال الأشهر الخمسة المنصرمة، انها حكومة سياسات شعبوية، سياسات قائمة في كثير من الأحيان على ردود الأفعال، حتى حين سعت الى تطبيق فقرات منهاجها. وقد بدا ذلك واضحا منذ ما يمكن تسميته بـ"حملة التطهير" الواسعة على قرارات حكومة تصريف الاعمال السابقة، الاقتصادية والأمنية، وعلى وجه الخصوص التعيينات التي قامت بها الاخيرة. مرورا بالتعامل الغريب وغير المسبوق مع قضايا الفساد والمتهمين بها، سواء بما يسمى "سرقة القرن" ام غيرها من القضايا. وهو تعامل وضع الكثير من الملاحظات والاسئلة حتى على أداء بعض المؤسسات القضائية العراقية. ثم جاءت الإجراءات الارتجالية التي اتبعتها في التعامل مع ازمة أسعار صرف الدولار، وارتفاع مستوى الأسعار، والتي "توجت" بتعديل سعر صرف الدينار، دون أي سعي حقيقي لتجفيف منابع تهريب العملة الأجنبية واغلاق منافذها. يضاف لها الحملات الكبرى للتعيين في مؤسسات الدولة.

ان الحكومة الحالية تسعى بالدرجة الأساس - باتباع مثل هذه السياسات - الى إعادة انتاج القاعدة الاجتماعية التي تهرأت خلال السنين الماضية، سواء لشخوص الحكومة المباشرين أم من يقف وراءها من قيادات وكتل. ومن جهة ثانية، انها تنطلق من الامكانية التي توفرها مثل هذه الإجراءات لشق وحدة الحركة الاحتجاجية.

هشاشة التحالف الذي يقف خلف الحكومة

إنّ الحكومة الحالية، ومنهاجها، ليسا إلا انعكاسا للطبيعة الهشة للتحالف الذي يقف خلفهما، وللكتل السياسية المفككة التي تشكله، ولقواعدها الجماهيرية الهزيلة والزبائنية. كما انه تعبير صادق عن الظروف والملابسات التي تشكلت في ظلها الحكومة، عن طبيعة الصراعات ومستوى تطورها والآليات التي حسمت فيها، بالتراضي او بالإزاحة.

كما ان التحالف الذي أوصل الحكومة الحالية الى سدّة السلطة، هو كسابقاته التي كانت تقام عند اعلان تلك الحكومات، ليس الا تمظهرا سياسيا جديدا للمحاصصة. وبالتالي، فإنه لا يستطيع إخفاء الصراعات المحتدمة بين اطرافه المختلفة، بل وداخل الكتل "المكوناتية" ذاتها. صراع حول مصالح شخصية وفئوية وحزبية ضيّقة، ومن أجل تقاسم الحصص في المناصب والمغانم.

يظهر جليا، من مسارات المرحلة السابقة، قبل وبعد ان تسلمت الحكومة الجديدة مهامَ عملها، ان القوى السياسة المتنفذة ما زالت غير مكترثة بتفاقم الازمات، والاخطار التي تُحيط بالبلاد. وهي عاجزة عن التعلم من دروس السنوات الماضية، خصوصا الغضب الشعبي الذي وصل الى ذروته في انتفاضة تشرين الباسلة واصطفاف المجتمع حولها.

مع الوقت سيزداد الشك في قدرة الحكومة على تنفيذ وعودها، كما سيتجلى عاجلا أم آجلا ضيق افق إجراءاتها وفشل حلولها الترقيعية. وسيفيق كل من اطمأن لوعودها مع ارتفاع الهتاف، وعودة الجماهير الى ساحات الاحتجاج.

وفي المقابل، سيزداد التعويل على قوى التغيير السياسية، وعلى الحركة الاحتجاجية في إحداث التغيير الشامل. وهنا نتوقف فللحديث تتمة.

مقالات

ديناميات الصراع وأزمة بناء الدولة

مهدي جابر مهدي
اكاديمي وباحث عراقي

بعد عقدين من الزمن على التغييرالسياسي(2003- 2023) واسقاط النظام الدكتاتوري، يتميز الوضع في العراق بحالة عدم الاستقرار بفعل تراكم المشكلات والتحديات على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والدوران في دوامة الأزمات المتشابكة، حيث يعيش المواطن تحت وطأة معاناة متواصلة بفعل السياسات الخاطئة التي اعتمدتها النخب الحاكمة منذ 2003. فالنظام السياسي بات عاجزاً عن الاستجابة لمطالب وحاجات المجتمع ويسعى عبر وسائل متعددة، سلمية وعنفية، لاعادة انتاج نفسه وتسويق زعاماته الفاسدة. وبات جلياً ان منظومة الحكم الحالية غير قادرة على توفير حياة كريمة للعراقيين. ان اخفاق النظام السياسي في الاستجابة للتحديات من جهة، وفشل عملية بناء الدولة على اسس سليمة ورصينة من جهة اخرى، شكلت ظواهر تهدد كيان الدولة والمجتمع.

ومن هنا نحاول رصد عدة قضايا تتعلق بهذه الاشكاليات وتحليل ابعادها في (5) محاور:

(1)

اقترن التغيير السياسي في التاسع من ابريل 2003 بالحرب والاحتلال الامريكي وفق قرار مجلس الامن الدولي 1483. وصاغت الولايات المتحدة الامريكية خارطة طريق وآليات عمل عنوانها ديمقراطي، لكن مضمونها وترجمتها اكدت انها على النقيض من ذلك، سواء ما يتعلق بمبادئ ومؤسسات الديمقراطية او شروط ومقومات الانتقال الديمقراطي وتطبيقاته. انتقل العراق من دولة مركزية غير ديمقراطية (ملكية وجمهورية 1921-2003) الى دولة اتحادية نص دستورها (2005) على مبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان. هذا التحول المهم في عملية بناء الدولة شهد تعثراً واضحاً على صعيد التطبيق. وان السير نحو الديمقراطية واجه ولايزال عوائق وصعوبات ادت الى تعثر التحول على صعيد الممارسة وقاد الى نتائج سلبية في مختلف المجالات. ودون شك فقد تحققت خطوات هامة على صعيد بناء المؤسسات وآليات الديمقراطية منها: دستور 2005 والاستفتاء عليه، 6 دورات انتخابية، التعددية السياسية والحزبية، النشاط الواسع لمنظمات المجتمع المدني، الانتعاش الاقتصادي وتحسن مستوى المعيشة، التطور الكمي على صعيد التعليم، علاقات خارجية متوازنة نسبياً.. الخ.

ان طبيعة المجتمع العراقي بتنوع قومياته واديانه وتعدد قواه السياسية المعارضة قبل 2003، وفر فرصة لعقد حوارات ورؤى انطلقت من ضرورة التخلص من الدكتاتورية وارثها عبر توافقات ومساومات سياسية تنطلق من خدمة مصالح المجتمع وتحول دون عودة الدكتاتورية. وضمن هذا السياق اعتمدت التوافقية منهجاً. وكما يقول آرنت ليبهارت في كتابه (الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدد): "السمة الاساسية للديمقراطية التوافقية، هي ان الزعماء السياسيين لكل قطاعات المجتمع التعددي تتعاون في ائتلاف واسع لحكم البلد".

وبعد 2003 اعتمدت التوافقية منهجاً لادارة الدولة والمجتمع، ولكن تم تطبيقها عبر المحاصصة الاثنوطائفية مع اول تشكيل لادارة الدولة - مجلس الحكم مروراً بجميع الحكومات وانتهاءاً بالحكومة الحالية اتي يترأسها محمد السوداني. وتم اعتماد صيغة المكونات (شيعة/سنة/ كورد) وتثبيتها في الدستور وتمت ترجمتها عبر اعراف قوضت التطور الاجتماعي والاستقرار السياسي.

هذه المقدمات قادت الى نتائج او ترجمت في آليات تتنافى مع الديمقراطية:

1- تحول التوافقية الى محاصصة اثنوطائفية سياسية وحزبية وتحولت الدولة الى غنيمة - الدولة الغنائمية - لكل مكون او طرف سياسي يستثمرها من اجل مصالحه الضيقة. وهذا الذي تحقق في جميع الحكومات، بما فيها الاخيرة برئاسة محمد شياع السوداني التي نالت ثقة مجلس النواب في 27 تشرين الاول 2022

2- تحولت المؤسسات الى هياكل غير فاعلة واصبحت تعيق التنمية والاستقرار وتضخمت باعداد هائلة غير منتجة واخفقت في تحقيق ادنى مستويات التنمية وهيمنت الدولة الريعية على جميع الهياكل الاقتصادية.

3- تراجع الهوية الوطنية المشتركة وتصاعد الهويات الفرعية وتنافرها من حيث الانتماء والولاء وتنامي ميول الاحقاد والكراهيات والارتياب من الآخر وتنامي قيم التفاهة والرثاثة والانانية والابتذال.

4- لم تعد الدولة المحتكر الوحيد للعنف، للقوة، للسلاح، حيث تزايدت وتغولت تدريجياً قوى ما دون الدولة (منظمات ارهابية ومليشيات) . وانعكست ظاهرة تعدد مصادر القوة سلباً على هيبة الدولة والاستقرار السياسي والاجتماعي . وتشير بعض التقارير الى وجود (67) فصيل مسلح تنشط في مراكز المدن . هذا عدا سلاح العشائر والمنظمات والجماعات الارهابية ، في حين الاولوية ينبغي ان تُمنح لبناء جيش محترف غير مسيس قبل الشروع في البناء السياسي التوافقيز

5- استشراء الفساد الذي اخترق مؤسسات الدولة

وتحكم في جميع مفاصلها. نكتفي هنا بمقتطف من رسالة استقالة وزير المالية الاسبق علي علاوي المؤرخة في 16 آب 2022: "تعمل شبكات سرية واسعة من كبار المسؤولين ورجال الاعمال والسياسيين وموظفي الدولة الفاسدين في الظل للسيطرة على قطاعات كاملة من الاقتصاد، وتسحب مليارات الدولارات من الخزينة العامة. هذه الشبكات محمية من الاحزاب السياسية الكبرى والحصانة البرلمانية وتسليح القانون وحتى القوى الاجنبية".

6- تزايد انتهاكات حقوق الانسان وتضييق هامش الحريات، خاصة حرية التعبير عن الرأي والاعتقالات التعسفية للصحفيين والكتاب والمثقفين والناشطين المدنيين بما في ذلك في اقليم كوردستان وتعاني الاقليات من الضغوط السياسية والتمييز والملاحقات خاصة المسيحيين والايزيديين والصابئة المندائيين وغيرهم، سواء في مرحلة داعش او ما بعدها وان بدرجة اقل.

7- التباس العلاقة بين القوى الحاكمة في اقليم كوردستان العراق والحكومة الاتحادية والقوى المتنفذة بفعل عملية تخادم متبادلة بين الطرفين واعتماد سياسة الصفقات بديلاً عن فاعلية المؤسسات.

8- الحضور القوي للدين السياسي ورموزه عبر التدخل المباشر وغير المباشر في السياسة واذكاء الطائفية داخل الدولة والمجتمع.

9- تنامي العشائرية وتوسعها كأداة للتنظيم الاجتماعي وادارة وحل النزاعات عبر القوة والتفاوض وفق الاعراف القبلية وعقلية الثأر بعيداً عن مؤسسات الدولة.

10- التدخلات الاقليمية والدولية باشكال مباشرة وغير مباشرة وتحول العراق بسببها الى ساحة لتصفية الحسابات والخلافات وميدان لمصالح الدول المجاورة اقتصادياً وسياسياً .

كل هذه العوامل/النتائج أدت الى اضعاف الدولة العراقية ونظامها السياسي، وحولت مشروع بناء الدولة التحديثية الى دولة التمثيل المكوناتي.

(2)

تتنوع وتتعدد الازمات في العراق وتأخذ مستويات وتجليات عديدة بفعل تشابكاتها وتعقيداتها من جهة، وتوجهات الفاعلين السياسيين وتغير مواقفهم من جهة اخرى. فالطبقة السياسية تعمل بعقلية الغنيمة، اي ان اهتمامها الاول يتركز على حصتها من مغانم السلطة وبذات الوقت تعمل على ابقاء العراق في موقع للدول الخارجية. ولذلك لم تنجح الانتخابات ولا المؤسسات في ترسيخ الديمقراطية بل اختصرت جميعاً في تقاسم السلطة والنفوذ واحلال الصفقات بديلاً عن فاعلية المؤسسات.

فالانتخابات البرلمانية الاخيرة (2021) لم تحقق ما كان يأمله المواطن في الاصلاح الحقيقي ولم تؤد الى معالجة الازمات. وتحولت الانتخابات من آلية لتحقيق الديمقراطية الى وسيلة للانقضاض عليها . وكانت الاغلبية الصامتة والمعارضة التي قاطعت الانتخابات ، والتي تقدر بـ 60 % من الناخبين بمثابة جرس انذار وعقاب للاداء السياسي . ولكن القوى السياسية المتحكمة بالسلطة لم تكترث لهذا التحدي وواصلت تجاهلها للأزمات وقاد ذلك الى اشتداد التناقض بين الدولة واللادولة . فقد فرضت المليشيات سياسة الامر الواقع عبر السلاح و تغولت واصبحت قوة موازية للمؤسسات الرسمية بل وتهددها خدمة لمصالح احزاب سياسية ودول.

وتجلى ذلك بوضوح في ظاهرة نشوء مراكز متعددة من داخل الدولة ومؤسساتها وتعمل ضد الدولة ومقوماتها ، اشبه بدويلات داخل الدولة ، تتمتع بكل ما تقدمه الدولة لها من مزايا وبذات الوقت تعيق عمل مؤسسات الدولة ، وبالتالي تم رهن الدولة للدويلة. وبين الابعاد المحلية والخارجية للأزمة يجد العراقيون انفسهم متروكين بلا خدمات اساسية مثل الكهرباء والماء والصحة والتعليم وبقية الشؤون الحياتية . وبعد مرور عشرين عاماً لم تستطع الحكومات المتعاقبة من توفير مستلزمات الحياة الكريمة في

بلد تزيد وارداته السنوية من النفط ما يفوق المائة مليار دولار سنوياً. هذه القضايا غذت الاحتجاجات الشعبية و ادى الى فقدان الثقة بالسياسة والسياسيين نتيجة المسار الانحداري للاوضاع.

واصبحت مسافة السلطة Power Distance بين الدولة والشعب واسعة واتسعت الهوة بينهما. وحسب التقديرات الرسمية ان عدد العراقيين تحت خط الفقر او قريبين منه يبلغ حوالي خمسة عشر مليوناً (15 مليون). وبيانات وزارة التخطيط تشير الى نسبة 25 بالمئة من السكان. اما البطالة فقد ارتفعت من 13.5 بالمائة من عام 2019 الى 16.5 بالمائة في 2022

ورغم تحذيرات القوى السياسية المدنية والديمقراطية غير الحاكمة ومنظمات المجتمع المدني من تداعيات الاوضاع والدعوات الى المعالجة السلمية للأزمة ورفض اللجوء الى العنف، من خلال خارطة طريق عقلانية للحل، الا ان القوى المتنفذة واصلت سياسة التجاهل والايغال في نهج المحاصصة والفساد.

كما دعت الامم المتحدة الى الحوار الجاد للخروج من الازمة. واشارت ممثلة الامم المتحدة في احاطتها امام مجلس الامن الدولي يوم 17آيار 2022 الى " ان الطبقة السياسية منشغلة بالصراع على السلطة." و اكدت: " ان ثمن الانسداد السياسي باهض جداً واحتمال الانفجار الشعبي وارد ." وفي الاول من ايلول دان مجلس الامن الدولي اعمال العنف التي جرت في 29 و30 آب 2022 ودعا الى ضبط النفس وبدء الحوار بين اطراف النزاع. وفي احاطتها امام مجلس الامن الدولي في 4 تشرين الاول 2022 قالت بلاسخارت : (ان الفساد سمة اساسية للاقتصاد السياسي العراقي وهو متغلغل في الحياة اليومية ويعمل كأداة للخدمات السياسية اكثر من كونه أداة لخدمة الشعب .) واكدت بلاسخارت ذات الموقف في احاطتها الاخيرة في الثاني من شباط/ فبراير 2023 حين اشارت الى ان " الفساد في العراق تحول الى منظومة عاملة لسنوات ." و " ان تحديات العراق لم تظهر بين ليلة وضحاها".

كل هذه الاوضاع ومستجداتها جعلت من العراق ارض رخوة و وفرت الظروف المناسبة الى اتجاه البلد نحو الفوضى وعدم الاستقرار المزمن بعد عجز القوى المتنفذة عن ايجاد لغة مشتركة للخروج من حالة الاستعصاء السياسي.

(3)

اثبتت التجربة العراقية بعد 2003 ان موازين القوى لا تتحدد فقط بنتائج الانتخابات ، ولا بعدد المقاعد البرلمانية ، وانما ايضاً بعوامل ومؤثرات اخرى ، داخلية وخارجية ، منها السلاح والنفوذ الشعبي اضافة الى العامل الخارجي ، وتحديداً الاقليمي. فقد افرزت نتائج الانتخابات البرلمانية التي جرت في العاشر من اكتوبر 2021 عن فوز واضح للتيار الصدري (73)مقعداً. ان شعار (الاغلبية الوطنية، لا شرقية ولا غربية)، الذي رفعه مقتدى الصدر كان المقصود منه ابعاد خصومه، تحديداً، الاطار التنسيقي الموالي لايران. وتم الاعلان عن تشكيل تحالف(انقاذ وطن)الذي يضم نواب التيار وتحالف السيادة و الحزب الديمقراطي الكوردستاني . يقابل ذلك ما يطرحه الاطار التنسيقي الشيعي، من بديل وهو تشكيل حكومة توافق وطني تشارك فيها الاحزاب السياسية وبالتالي اعادة انتاج المحاصصة.

لذلك رد الاطار التنسيقي بتعطيل عمل البرلمان واعاقة انتخاب رئيس الجمهورية وما يتبع ذلك من تسمية الكتلة الاكبر ، وتكليف رئيس الوزراء، وهذا ما سمي بالثلث المعطل، والذي يسميه الاطار التنسيقي بـ الثلث الضامن.

وكرد فعل على هذه الاوضاع ، اعلن التيار الصدري استقالة جميع نوابه من البرلمان في 12 حزيران 2022 واقرت الاستقالة رسمياً في 19من الشهر نفسه .ولجأ بعدها التيار الى الشارع وصولاً الى اقتحام البرلمان والاعتصام امامه تحت شعار محاربة الفساد. في حين توجه اتباع الاطار التنسيقي الى الاعتصام قرب الجسر المعلق تحت شعار الدفاع عن الدولة

ومؤسساتها استثمرت قوى الاطار انسحاب نواب التيار في مليء الفراغ في البرلمان عبر البدلاء في جلسة استثنائية عقدت بتاريخ 23 حزيران . ومع اعلان مجلس النواب رسمياً استبدال النواب المستقيلين من التيار بنواب من كتل اخرى تكون مرحلة جديدة من الصراع السياسي في العراق قد انطلقت.اقترنت الصراعات السياسية بحرب اعلامية شرسة جندت لها كل وسائل الدعاية والتضليل والقذع والتشهير والاتهامات المتبادلة وغذتها الفضائيات و وسائل التواصل الاجتماعي وشارك فيها عدداً كبيراً من " المحللين " السياسيين من الطرفين وعمقت ذلك ،حرب التغريدات بين الاطراف المتصارعة.

اندلع القتال بين الفصائل المسلحة من الطرفين يومي 29 و30 آب 2022 في بغداد (المنطقة الخضراء) وفي البصرة ، اضافة لحرق مقرات بعض احزاب الاطار التنسيقي في بغداد وعدد من المحافظات. وبلغت الضحايا اكثر من 30 قتيلاً ومئات الجرحى.

و بعد بيان المرجع الديني السيد كاظم الحائري في 28 آب 2022 الذي اعلن فيه اعتزاله ودعوته الى انصار التيار الصدري بتقليد السيد خامنيئي في ايران ، اعلن السيد مقتدى الصدر في اليوم التالي 29 آب اعتزاله العمل السياسي .

وفي 30 آب اعتذر للشعب العراقي في مؤتمر صحفي ودعا انصاره الى الانسحاب من ساحات القتال ووقف الاعتصام السلمي...

وهكذا شهد العراق حالة التحول من الاعتصام السلمي الى الصدام المسلح بين القوى المتنفذة على صعيدي السلطة والمجتمع . ان الاحتكام للسلاح مثل تطوراً جديداً وانتقالة نوعية في الساحة السياسية في معركة السلطة . اي ان قوى النفوذ لا تتورع عن استخدام السلاح فيما بينها(داخل التيارات الشيعية) ، مثلما استخدمته قبل ذلك ضد المحتجين في حراك تشرين . كما اثبتت تلك الصراعات من جديد ، ان المصالح الضيقة لتلك القوى تعلو على المصالح الوطنية العليا.

وجدير بالذكر ، انه بعد انسحاب نواب التيار الصدري ، جرت عملية تغير واسعة في الخارطة السياسية عامة ، والتحالفات السياسية خاصة . ولم يعد مجلس النواب يمثل الا اقلية الأقلية.

كل هذه التطورات وتفاعلاتها خلال السنوات 2019 - 2022 ادت الى اشتداد ديناميات الصراع بين القوى المتنفذة واوسع القطاعات المجتمعية من جهة وبين القوى المتنفذة ذاتها من جهة اخرى. والجدير الذكر هنا ، وفي خضم هذه الصراعات ، نلمس ضعف ، ان لم نقل غياب تأثير القوى المدنية والديمقراطية بفعل تشتتها وانقساماتها ، مما افقد قدرتها على توجيه الضغط الشعبي ضد ممارسات القوى المتحكمة بالمشهد السياسي.

(4)

ان رصيد الحراك الشعبي السلمي منذ 2011 ثم حراك تشرين 2019 والمشاركة الشعبية والشبابية والنسائية الواسعة والتضحيات الجسيمة (الآف الشهداء والجرحى) تحت شعار (نريد وطناً) دلت ليس فقط على الرفض الشعبي للسياسات الخاطئة وانما ايضاً قدرات المجتمع في صياغة الحلول السلمية والمناسبة للمعضلات والازمات العميقة التي يمر بها البلاد.

ومن هنا تأتي اهمية اعادة بناء الدولة كمشروع وطني يقود الى الاستقرار والازدهار والتنمية المستدامة .فالتجربة العراقية ومجرياتها خلال العقدين الماضيين اكدت ، ان اعادة بناء الدولة هي عملية معقدة ولا تتحقق بالشعارات ولا بالنصوص الدستورية لوحدها.

فأنتقال العراق من دولة مركزية (1921 - 2003) الى دولة اتحادية (2005) بعد الاستفتاء على الدستور في 15 تشرين الاول / اكتوبر 2005 ، اقترن بمشكلات وتحديات عديدة، ركزت النخب السياسية الحاكمة خلالها على السلطة السياسية وسبل الحفاظ عليها ، وأهملت الدولة ومقوماتها ، مما انعكس سلباً على

هياكلها ومؤسساتها في عدة مستويات منها :
الالزام السياسي الذي يؤسس العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، والتنظيم السياسي الذي يحدد بنية الدولة وكذلك الديناميات المهددة لاستقرار الاوضاع والهادفة الى اعادة النظر في علاقات السلطة وتأثيرها على بناء الدولة.
و أكد فوكوياما في كتابه " بناء الدولة " على ان ضعف مؤسسات الدولة هو المصدر الاول للمشكلات الخارجية والداخلية ، وما يترافق معها من ضعف التنمية والفساد المؤسساتي وانتشار الارهاب.
وهذا التشخيص لمسناه في العراق بعد 2003 ، حيث نجد ان اشكالية بناء الدولة تكمن في ضعف الحكم والادارة والتنظيم وقصور المؤسسات . فبناء الدولة يستلزم بناء المجتمع وسد الهوة بين السلطة والمجتمع عبر التنمية السياسية والبشرية وتقوية المؤسسات القائمة وبناء مؤسسات جديدة فاعلة قادرة على الاستمرارية. فقوة الدولة تقاس بمدى كفاءة وفاعلية مؤسساتها وقدرتها على اداء الوظائف المناطة بها والاهداف التي تسعى لتحقيقها ، حيث ينصب الاهتمام على دور المؤسسات في الدولة واثرها في تشكيل السياسات والتوعية السياسية وفي تحديد الفاعلين السياسيين وخياراتهم.
ويشير والت روستو الى مجموعة مهمة من عناصر الانتقال الديمقراطي ودورها في بناء الدولة وهي:
1- النخب هي مفاتيح عملية الانتقال سواء في الحكم او المعارضة.
2- يُعرف الفاعلون بحسب مواقفهم من النظام السياسي وليس بحسب مصالحهم الاقتصادية او الاجتماعية.
3- سلوك الفاعلين سلوك استراتيجي وتأثر افعالهم بتوقعاتهم.
4- الدمقرطة تكون نتيجة مفاوضات ومساومات. ومن الضروري الاشارة هنا الى ان الانتقال من الحكم السلطوي الى النظام الديمقراطي صوب بناء الدولة ، لا يتم بطريقة واحدة ولا يوجد نموذج جاهز للتطبيق في كل زمان و مكان ، الا ان هناك مجموعة من الشروط التي ينبغي توفرها في الدولة الحديثة وهي موضع اتفاق العلماء والمختصين:
1- دولة تحتكر وسائل العنف الشرعي ، والقدرة على ممارسة الاحتكار.
2- حدود سياسية وجغرافية يُمارس الاحتكار ضمنها.
3- شعب يقطن ضمن هذه الحدود ، وتمثله الدولة رسمياً امام الدول الاخرى (مواطنين).
4- جهاز بيروقراطي متفرغ ومكلف بادارة الشأن العام ويعمل لدى الدولة.
5- سلطة تشريعية تسن القوانين.
و اذا اعتمدنا هذه الشروط كمعايير وطبقناها على الحالة العراقية ، سنجد جوهر الأشكالية التي تشير الى التحدي الرئيسي الماثل امام العراق ، وكذلك السؤال الرئيسي المتعلق براهن ومستقبل هذه الدولة.
ومن الجدير بالذكر ، ان اخفاقات النظام السياسي وعجزه عن تقديم معالجات ملموسة ادى الى تنامي ظاهرة الحنين الى الماضي، عهد الدكتاتورية والدولة " القوية " القمعية الضامنة للسلم الاهلي والحد الادنى من المنافع العمومية، خاصة وان التغيير العنيف اثبت ان البديل عن الانظمة التسلطية ليس بالضرورة الديمقراطيات الحرة المستقرة، وانما في احيان كثيرة ، يؤدي الانتقال من الدولة الوطنية القمعية الى تحكم المجموعات المستبدة التي تلغي كل مكاسب الاندماج الاجتماعي بتفتييت هياكل السلطة المركزية سياسياً وامنياً وادارياً . ويتم استبدال مثلث الادارة المركزية والجيش الوطني والحزب السياسي بالاحزاب المليشياتية المدعومة من الخارج وهي العقبة الكؤود التي تحول دون تحقيق الاستقرار السياسي وتجديد هياكل الدولة.
فالمليشيات الحزبية ليس لديها مشروع وطني ولا تدافع عن بناء سياسي جامع وانما عملت على توظيف السلطة لاعادة تشكيل المجتمع والهوية والفضاء العام بغية ديمومة حكمها

وهيمنتها وتوسيع حملات التضليل الساعية لتوجيه الغضب الشعبي بعيداً عن اسبابه الحقيقية، ومن هنا تكمن خطورة تحكمها في المجتمعات التي تتحلل فيها هياكل الدولة مثلما جرى في التجربة العراقية خلال العقدين المنصرمين.

كما عملت القوى المتنفذة في العراق على تشويه التعددية السياسية والاجتماعية التي هي جوهر الديمقراطية ، و دأبت على تقويض آليات التمثيل والتداول السلمي للسلطة والقضاء عليها عن طريق اجراء عمليات التمثيل والانتخاب التي تتحكم فيها قوى غير مؤمنة بالديمقراطية وآلياتها و وفق قوانين غير عادلة ، حيث يأخذ النظام الانتخابي شكل المحاصصة القبلية او الطائفية او المناطقية. ومن هنا نجد ان المسلك الانتخابي في العراق لم يكن ضمانة كافية لحل الازمات السياسية . كما ان التعددية الحزبية والسياسية القائمة لا تعبر عن طبيعة التنوع المجتمعي.ونتيجة لذلك اصبحت الدولة رهينة الصراع السياسي من اجل التحكم بمنافعها ومواردها بدلاً من تكريس الولاء لها من حيث هي كيان جماعي معبر عن روابط المواطنة المشتركة.

لذلك فالرهان المطروح يتلخص في نزع عسكرة الحياة السياسية الذي هو شرط الاستقرار ودفع الحوار السياسي خارج مظلة الاكراه والعنف بعيداً عن الاحتكار السياسي والاستئثار الفئوي او المذهبي باسم الدين، او باسم مبدأ ما او شعار ما لا يحظى بالاجماع الاجتماعي.هذا هو جوهر أزمة بناء الدولة . ولا سبيل لاعادة بناء الدولة الا على اساس المساواة والتكافؤ بين قوى سياسية وطنية ومجتمعية يجمعها مشروع واحد لبناء دولة ديمقراطية مستقرة.

(5)

ان ما مر ذكره من تشخيص للظواهر والتحديات المتعلقة بالوضع العراقي لا تعني استحالة الحل. ونجد ان بعض القوى، وخاصة الحاكمة تطرح فكرة اجراء اصلاحات فوقية من داخل النظام السياسي عبر حلول جزئية مع تعديلات محدودة ومساومات وسطية تؤمن اولاً مصالح الاطراف المتنفذة المتصارعة بما يعني عملياً ابقاء الوضع كما هو عليه. ان المعالجة الجذرية للاوضاع تبدأ من الاعتراف بالخلل البنيوي في النظام السياسي، فالازمة تتعلق ببنية الدولة ونظامها السياسي واقتصادها الريعي الذي لم يعد قادراً على الاستجابة للتحديات بسبب غياب الرؤية الواضحة وفقدان الارادة السياسية للمعالجة وتشبث القوى المتنفذة بالحكم. من هنا تأتي ضرورة عقد اجتماعي جديد في اطار دولة تعتمد مباديء الديمقراطية والحكم الرشيد والمواطنة المتساوية، يتم فيها تغيير فلسفة الحكم وفق عمل جذري وبطرق سلمية. وحزمة الحلول تكون لمراحل آنية ومتوسطة واخرى بعيدة الاجل. فاصلاح النظام السياسي سيكون المدخل للتغيير المناسب صوب بناء الدولة الوطنية الديمقراطية.

ومن الضروري البدء بمعالجات وخطوات اجرائية تؤسس لمراحل لاحقة من التغيير المدعوم مجتمعياً في المجالات التالية:

اولاً- على الصعيد السياسي والقانوني:

تشكيل حكومة وطنية وفق الاستحقاق الدستوري على اساس الكفاءة والنزاهة.

- التحضير لانتخابات مبكرة خلال فترة لا تزيد عن سنة وحل مجلس النواب بعد تشريع قانون انتخابي عادل ، واعادة تشكيل المفوضية المستقلة العليا للانتخابات وابعادها عن المحاصصة.

- اجراء تعديلات دستورية لمواد محددة ذات طابع اجرائي ، خاصة ما يتعلق بالتوقيتات الدستورية ومعالجة المشاكل الدستورية بما يتعلق بتفسير الكتلة الاكبر ونصاب جلسة انتخاب رئيس الجمهورية . ويتطلب ذلك اعادة تفسير المادة 76 من الدستور والغاء وسائل الالتفاف عليها و تشريع قانون المحكمة الاتحادية العليا حسب المادة 92 من الدستور.

- تنظيم العلاقة بين الحكومة الاتحادية وحكومة اقليم كوردستان وفق الدستور باتفاق معلن للشعب، بما يؤمن الحقوق المشروعة للمواطنين، وتشريع قانون النفط والغاز الاتحادي.
- تطبيق مبدأ عدم الافلات من العقاب ومحاسبة قتلة المتظاهرين السلميين.
- منع مشاركة الاحزاب التي تمتلك مليشيات مسلحة من المشاركة في الانتخابات وفقاً للقانون ، وتطبيق قانون الاحزاب رقم 36 لسنة 2015
- حصر السلاح بيد القوات الرسمية الدستورية ومنع السلاح المنفلت واصدار قانون تجريم حيازة الاحزاب للأسلحة.
- تطبيق مبدأ استقلال القضاء وابعاد القضاء ومؤسساته عن المؤثرات السياسية.
- اعتماد الاشراف الدولي الفاعل على الانتخابات.
- انتهاج علاقات توازن المصالح مع الدول المجاورة وفق مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية.

ثانياً- على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي:
- تنفيذ اجراءات اسعافية تخفف من معاناة الناس على الصعد الاقتصادية والمعيشية والخدمية والصحية.
- وضع برنامج سريع لمعالجة الاختلالات في العملية التربوية وتوفير المدارس والمستلزمات الضرورية.
- فتح ملفات الفساد ومحاسبة الفاسدين واسترجاع الاموال المنهوبة.
- معالجة ازمات الكهرباء والمياه وفق خطط علمية مدروسة تقوم على التخطيط والادارة والتنظيم.
- اعتماد اجراءات لتأمين بيئة آمنة للأستثمار وفق برامج ملموسة وواضحة.
- العمل على نشر ثقافة المواطنة والتآخي والتسامح والتكافل ونبذ الكراهية والاحقاد.
- تشجيع ودعم منظمات المجتمع المدني والأرتقاء بدورها المهم في حياة المجتمع والدولة.ان هذه الحلول والمعالجات لا يمكن ان تجد طريقها للتحقيق بسهولة، خاصة وان النظام السياسي المحاصصاتي يتميز بكونه محمياً بسور محكم ارتباطاً بتخادم قواه وتكاتفها ضد اي تغيير رغم التناقضات الحادة فيما بينها. فخصوم التغيير ليسوا قلة، اذ ان غالبية الطبقة السياسية التي تملك السلطة والثروة والنفوذ وتسيطر على الاعلام وتتحكم بالمراكز الاقتصادية والانتاجية وتمسك بالمناصب الاساسية في الدولة وتتفنن في نهب المال العام وتعمل جاهدة لتكريس النظام الطوائفي المدعوم بتسويات اقليمية ودولية وتتواطأ لمصلحة السلاح غير الشرعي، بصفته صاحب مصلحة في استمراريتها، سوف تستخدم كل طاقاتها من اجل التصدي لدعوات التغيير ومنع تحقيقها.

الا ان كل تلك الاساليب والوسائل والامكانات الضخمة لم تفلح في اخراج النظام السياسي من أزمته العميقة مثلما لم تنجح في تخفيف غضب المجتمع بعد الفضائح التي قام بها رموز الفساد من السلطة واتباعها. كما استنفذت الاحزاب الحاكمة كل وسائل الخداع والتضليل والتجييش الطائفي والتوظيف السياسي للدين التي باتت مكشوفة للمجتمع الذي تفاقمت معاناته الاقتصادية والاجتماعية.

وبات واضحاً ان النظام السياسي بطبيعته وقواه المحركة وعناصره ومؤسساته أصبح منتجاً لعدم الاستقرار ومولداً للازمات ومهدداً للسلم الاهلي. لذلك تتزايد الفرص والظروف المناسبة امام قوى التغيير الديمقراطية والمدنية للعمل الجاد والدؤوب وتفعيل الضغط الشعبي صوب تحقيق الخيار البديل القادر على تحقيق مشروعه التغيير الديمقراطي بطرق سلمية، مستفيدة من اخفاقات وتناقضات القوى الحاكمة من جهة، وعجزها عن ادارة الدولة بطريقة صحيحة وفشلها في تلبية ابسط متطلبات وحاجات المجتمع الاساسية.

هذا هو التحدي المصيري الذي ينبغي التوقف امامه بجرأة وثبات.

تجارة المياه الافتراضية وتحقيق الأمن الغذائي للعراق

نصرت آدمو*
د. نضير الانصاري**
فاروجان سيساكيان***

ندرة المياه والأمن الغذائي وامكانيات تحقيقه

يرتبط الأمن الغذائي للدول بإمكانياتها لتوفير ما يلزم من الغذاء لشعوبها، سواءً عن طريق الزراعة فيها أو للحصول على ما لا يمكن توفيره داخليا عن طريق الاستيراد من الدول الأخرى لذا يشترط في هذه الحالة توفر الموارد المائية والموارد المالية الكافية لتحقيق هذا الهدف. ولهذا السبب تواجه الدول الفقيرة مشاكل كبيرة لتحقيق ذلك لتفادي خطر المجاعة وخاصة في حالة شحة مواردها المائية أو هدر تلك الموارد في حالة عدم استثمارها بالطرق الصحيحة. وهذا يعني اعتماد مثل تلك الدول على المساعدات الخارجية لتأمين قوت شعوبها سواءً من الدول الغنية أو المنظمات الدولية وبالتالي ارتهان قرارها السياسي بما تمليه عليها تلك القوى الخارجية.

ولقد سبق بحث هذا الامر في العديد من المؤتمرات الدولية من أجل المساهمة بوضع حلول مستدامة لهذه المعضلة ، ولعل ما طرحه الباحث البريطاني توني ألن (Toney Allan) الأستاذ في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن في مؤتمر وزارة التنمية فيما وراء البحار البريطانية الذي أقيم في ساوثمبتون في تموز 1992 تحت عنوان أولويات توزيع وإدارة الموارد المائية
"Priorities for Water Resources Allocation and Management"
ما يلقي الضوء على هذا الأمر وخاصة في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي يتخذها الباحث موضوعا للبحث(1). ويمكن أن نذكر في هذا الصدد بعض من الدول في هذه المنطقة الغنية بمواردها المالية لكنها فقيرة بمواردها المائية مثل المملكة العربية السعودية مما يجعلها تنتج الحنطة بتكلفة تفوق أربعة الى ستة اضعاف سعرها في السوق العالمية ولا تشعر بالحرج من ذلك في الوقت الحاضر على الأقل طالما توفر لها فائض من مدخولات النفط والى حين تنضب موارد المياه الجوفية غير المتجددة المستخدمة في هذه الزراعة نتيجة السحب الجائر منها (2). وعلى العكس من ذلك فإن هناك دولا فقيرة بمواردها المالية في ذات الوقت فقيرة بمواردها المائية أيضا مثل الأردن التي تجد نفسها مضطرة لطلب العون من الولايات المتحدة من أجل تعديل ميزان مدفوعاتها (3) (4)، ومن الدول الغنية بمواردها المائية نسبيا مصر التي سوف تكون عاجزة يوما بعد يوم عن ملاقاة تكلفة الغذاء اللازم لشعبها، فلن تستطيع الزراعة مواكبة حاجاتها الغذائية في المستقبل في ظل الزيادة السكانية الهائلة فيها خاصة إذا ما علمنا أن تعداد نفوسها سوف يبلغ 160 مليون نسمة في عام 2050 بعد أن وصل 107 مليون نسمة في نهاية 2022 (5). لذا فإن خير ما يجب على مصر فعله إضافة إلى تقنين مواردها المائية وزيادة الرقعة الزراعية وزراعة المناطق الصحراوية بأن تعمل على تقوية قاعدتها الصناعية وخاصة في قطاع الطاقة النظيفة وإنتاج الهيدروجين الأخضر الذي بدأت بالتوسع به(6) إضافة إلى التركيز على قطاع السياحة والخدمات من أجل تعظيم مواردها المالية وفي نظرة مستقبلية نرى أيضا أن هناك حاجة ماسة لممارستها "تجارة المياه الافتراضية" من أجل التنمية المستدامة فيها. ان هذا يقودنا الى الكلام عن مفهوم "تجارة المياه الافتراضية" قبل ان نحاول ان نتعرف على مدى إمكانية تطبيق هذا المفهوم على حالة مثل حالة العراق الذي سيعاني من شحة مزمنة في موارده المائية وضمورا في مساحاته الزراعية مستقبلا، إضافة الى تخلفه في مضمار الصناعة وزيادة متصاعدة في عدد نفوسه يقابل كل ذلك عدم ضمان حصوله على الموارد المالية الكافية من صادرات نفطه في ظل تقلبات أسعار النفط العالمية والكساد الاقتصادي بسبب الأوبئة مثل ما حصل عند انتشار جائحة كورونا والحروب كما في حرب أوكرانيا والاهم من ذلك تخلي العالم في المستقبل المنظور عن استخدام الوقود الأحفوري لصالح مصادر الطاقة النظيفة كما تمليه سياسات الحكومات الحالية في تقليل الآثار السلبية على تغير المناخ العالمي.

المياه الافتراضية وتجارتها

أن مفهوم الماء الافتراضي (virtual water) هو مفهوم حديث نسبيا، وعلى الرغم من أن الأدبيات الحالية تقدم تعاريف متباينة له إلا أن بأماكننا أن نلخص هذا المفهوم بأنه عبارة عن "الماء الكامن أو المتضمن في السلع الزراعية والصناعية أي أنه الماء الذي يتم استهلاكه في سلسلة العمليات التي تؤدي إلى إنتاج تلك السلع" (7) (8) (9) وبعبارة أخرى هو الماء الذي يتعامل معه الناس يوميا من خلال استهلاكهم مختلف المنتجات والسلع التي يدخل في انتاجها دون أن يفكروا أو يشعروا بوجوده. واستنادا إلى ذلك يمكن لنا أن نعتبر الماء الافتراضي أيضا بأنه الماء (الكامن) في المنتجات والخدمات خاصة بعد أن أصبح استعمال مصطلح "الماء الافتراضي" اليوم دارجا اقترانه مع ما يسمى "تجارة المياه الافتراضية". أما الضد من الماء الافتراضي فهو بالطبع الماء المباشر وهو الماء الذي نراه ونشربه ونشعر به ونعرف ملمسه سواءً كان مصدره نهر أو جدول او من المطر وكذلك الماء الذي يصل منازلنا من خلال أنابيب الإسالة. وبمعنى أخر هو الماء اللازم لإشباع حاجات مباشرة معينة كالشرب أو الاغتسال أو لتنفيذ فعالية مثل توليد الكهرباء أو لسقي الحقول والمزروعات. مما تقدم يمكننا القول بأنه إذا ما قام بلد ما بتصدير سلعة يتطلب إنتاجها مياه غزيرة إلى بلد آخر فإنه في واقع الأمر يُصدّر المياه الى ذلك البلد ولكن بشكل افتراضي، وبهذه الطريقة يتم دعم البلدان الأخرى في احتياجاتها من المياه. ويمكن للبلدان التي تعاني

شحة في المياه أن تكون "تجارة المياه الافتراضية" هذه جاذبة لتحقيق الأمن المائي وبالتالي الأمن الغذائي فيها عن طريق استيرادها منتجات كثيفة الاستخدام للمياه بدلا من إنتاج جميع المنتجات المستهلكة للماء محليا. ويترتب على ذلك بأن يصبح تعبير "المياه الافتراضية" ذو معنى مفيد في "التجارة الافتراضية للمياه" كوسيلة لحل مشكلة ندرة المياه. وفي موضوع تحقيق الأمن الغذائي يكون من المجدي للبلدان التي تعاني من ندرة المياه التركيز على تجارة المياه الافتراضية باستيراد المنتجات الغذائية النباتية والحيوانية الغنية بالمياه الافتراضية من البلدان التي لديها وفرة مائية على أن تسمح مواردها المالية بفعل ذلك .أن تطوير مفهوم المياه الافتراضية وربطه "بتجارة المياه الافتراضية" وخاصة فيما يتعلق بالمنتجات الغذائية لابد أن يثير في ذهن القارئ أمرا مهما للغاية، ألا وهو الكيفية التي يتم بواسطتها احتساب الوفرة بالمياه التي تحققها الدول المستوردة او بمعنى اخر النقصان بالمياه من الدول المصّدرة وذلك من اجل التوصل الى ميزان الفائض والعجز في موارد المياه لهذه الدول. وهو ما يؤهل بعض الدول أن تكون مُصدرة المياه الافتراضية بينما تكون دول أخرى مستوردة نظرا لمحدودية مواردها المائية وتزايد حاجتها للمياه، سواء نتيجة للزيادة السكانية وزيادة استهلاكات الصناعة منها.

فلقد وصل إجمالي تجارة المياه الافتراضية في العالم أرقاما عالية جدا خلال عام 2021 فعلى سبيل المثال هناك دولا تزيد فيها كمية المياه الافتراضية المُصدرة منها بدرجة كبيرة عن ما تستورده من تلك المياه من الدول الأخرى .وتعتبر كل من الولايات المتحدة والصين والهند والبرازيل إضافة إلى الأرجنتين وكندا وأستراليا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واندونيسيا في طليعة الدول التي تحقق فائضا في تجارة المياه الافتراضية على الرغم من أن البعض من هذه الدول مثل الولايات المتحدة واليابان والصين وإيطاليا والمكسيك وإيطاليا وفرنسا والمملكة المتحدة وهولندا هي في ذات الوقت تعمل على استيراد قسم من المياه الافتراضية. وفي حساب ميزان الوفرة والعجز نذكر بأن المكسيك مثلا نجحت في توفير ما يوازي (12 مليار م3 سنويا) من مواردها المائية عن طريق استيراد الذرة بدلا من انتاجها محليا كما ان بعض دول الشرق الأوسط عليها استيراد (85%) من احتياجاتها من المواد الغذائية بسبب ندرة المياه فيها، فنرى أن بعض دول الخليج العربي تستورد كامل احتياجاتها من الرز أي (100%)، ومعظم احتياجها من الحبوب (93 %) واللحوم (62%) والخضراوات (56%) (10).

ولغرض تقييس كميات المياه الداخلة في عملية استيراد او تصدير منتجات غذائية معينة فلابد في هذه الحالة من الرجوع الى المحتوى المائي الداخل أو "الكامن" في كل منتوج من تلك المنتجات، وهو ما يقودنا إلى تعريف مفهوم جديد آخر هو البصمة المائية للمنتجات الغذائية (water footprint) التي تعني بشكل مبسط جدا الكمية الكلية الفعلية من المياه المستهلكة في إنتاج سلعة او محصول على مدى العملية الإنتاجية سواء كان مصدرها الري السطحي أو المياه الجوفية أو مياه أمطار وأحيانا مياه مجاري مدورة وحتى مياه مالحة محلاة أو خليط من هذه المصادر. وهناك اتفاق في أدبيات إدارة الموارد المائية على تسمية مياه الري السطحية والمياه الجوفية (بالمياه الزرقاء) وتسمية مياه الأمطار التي تذهب للإرواء فعلا ولا تشمل مياه السيول (المياه الخضراء)، أما المياه الرمادية فهي المياه التي هناك حاجة لها من أجل خلطها بالمياه العادمة أو المالحة وجعلها تحقق المعيارية اللازمة لنوعية المياه المطلوبة للاستخدامات البيئية (11) (12) (13) المنصوص عليها في مواصفات الايزو ISO (14046) من حيث نوعية تلك المياه وخاصة نسب وانواع الاملاح والملوثات ومدى صلاحيتها للاستعمالات البلدية والزراعية (14).

وبطبيعة الأمر تختلف البصمة المائية من محصول إلى آخر وكذلك بحسب البلد الذي ينتج ويستورد ذلك المحصول ومناخه السائد، فلو أخذنا مثلاً القمح الذي تستهلكه تركيا سنوياً فبحسب حسابات سنة 2020 نجد ان البصمة المائية الكلية لهذا المحصول تساوي 47.9 مليار م3/ السنة: ومن هذه المياه، 38.9 مليار م3/ السنة هي مياه من داخل تركيا، اما الباقي فهي مياه افتراضية مستوردة من الخارج، وعليه تكون نسبة 81% من المياه المستعملة لإنتاج هذا المحصول قد استُهلكت من موارد المياه من داخل تركيا، أما 19% المتبقية والبالغة 9.0 مليار م3/السنة فهي مياه افتراضية مستوردة وفرتها تركيا عن طريق استيراد القمح بنسبة 93% من روسيا وكازاخستان وأوكرانيا والولايات المتحدة وليتوانيا والمكسيك وكندا، مع الملاحظة بأن 98% من هذه المياه المستوردة هي مياه خضراء (أي من

المطر) (15). وعلى هذا الأساس تعتبر تركيا رابحة من وجهة نظر تجارة المياه الافتراضية طالما قد قامت بتوفير جزءً من مياهها الوطنية حيث ان بإمكانها ان تستخدمها لأغراض اخرى.

العراق وتجارة المياه الافتراضية في منظور الأمن الغذائي

لندرس الآن حالة مثل العراق وما يمكن ان يوفره من تجارة المياه الافتراضية، وهل في هذه التجارة حلاً كاملاً لمسألة شحة المياه المتوقعة وبالتالي موضوع الأمن الغذائي فيه مستقبلاً ؟ ام لابد من اعتبار هذا الأمر هو مجرد عنصر واحد فقط من مجموعة عناصر يجب ان تتضمنها خطة شاملة لإدارة الموارد المائية ؟ لقد غدا تطبيق أساليب تجارة المياه الافتراضية ومفهوم البصمة المائية اللازمة لإنتاج بعض المحاصيل الاستراتيجية مثل الحنطة والشعير والذرة من الأمور الملحة للعراق من أجل تأمين الأمن الغذائي للشعب العراقي مستقبلاً. ويعود ذلك الى الازمة المائية التي يشهدها القطر الآن والتي سوف تستفحل في المستقبل والناجمة عن نقص واردات مياه نهري دجلة والفرات بسبب سياسات دول الجوار المتشاطئة معه والمقترنة مع تأثيرات تغير المناخ العالمي التي كانت حصة العراق منها الجفاف المستفحل، يضاف إلى ذلك زيادة عدد النفوس المتوقعة مستقبلا حيث ان عدد النفوس الحالي (2022) البالغ 42,6 مليون نسمة سوف يُصبح 70,94 مليون في عام (2050) ليصل إلى 89,54 مليون نسمة عام (2070) (16)، وبذلك لن تكون كميات المياه المتاحة في المستقبل كافية لإنتاج معظم متطلبات الأمن الغذائي سواء كان ذلك من المنتجات الزراعية والحيوانية. وعلى هذا الأساس يتطلب أن تستند خطط إدارة الموارد المائية المستقبلية في العراق على دراسات علمية بصمة المياه الافتراضية للمحاصيل الغذائية المختلفة من أجل توفير أكبر كمية ممكنة من المياه الافتراضية وتلافي النقص الحاد في مياهه الوطنية من مياه الري السطحية والجوفية (المياه الزرقاء) ومياه الأمطار (المياه الخضراء)، إضافة إلى العمل الجاد لتوفير أكبر كمية ممكنة من المياه المحلاة ومياه المجاري المكررة (المياه الرمادية).

وفي نفس السياق يتطلب من المعنيين بالتخطيط الزراعي استبعاد كافة المحاصيل ذات البصمة المائية العالية من خطط الزراعة في العراق والعمل على استيراد تلك المحاصيل من الدول الغنية بالمياه، وبالتالي توفير كميات كبيرة من المياه الافتراضية ومنع هدر مثل تلك الكميات من الموارد المائية الوطنية التي يمكن ان تُستغل في مجالات أخرى لتأمين الحد الأدنى من الأمن الغذائي المطلوب. ولعل في زراعة الرز في العراق أوضح دليل على ذلك، فقد بينت احدى الدراسات العلمية بأن البصمة المائية لمحصول الأرز في سبع محافظات عراقية عام 2017 بلغت ما مقداره (3072) متر مكعب مياه / طن مقارنة بالمعدل العالمي البالغ (1325) متر مكعب مياه / طن وذلك من أجل إنتاج ما مجموعة (265,852) طن أي ما يساوي 820 مليون متر مكعب من المياه (الزرقاء) بغياب مطلق للمياه (الخضراء) بسبب ان زراعة الرز في العراق هي من الزراعات الصيفية عندما لا يكون هناك سقوط مطري(17). وبحساب بسيط فأن هذا يعني الحاجة الى 1,72 مليار متر مكعب من المياه (الزرقاء) لإنتاج نفس الكمية من هذا المحصول في عام 2070 في ضوء زيادة السكان المتوقعة واستمرار نفس النمط الحالي لاستهلاك الرز من قبل السكان، وهذه الكمية من المياه لن تتوفر قطعا لأنتاج هذا المحصول بالذات في ضوء تضاؤل الموارد المائية للعراق مستقبلاً (18)، خصوصا أن التوقعات الحالية تشير بأن الإجهاد المائي في العراق سوف يزداد من 3.48 نقطة (اجهاد عالي) في سنة القياس (2013) الى 4.66 نقطة (إجهاد مفرط) في عام (2040) (19). لذا يكون من الضروري والمنطقي تقليل او منع زراعة الرز في العراق تماما و استيراده من دول أخرى أو حتى شراء مزارع متخصصة بزراعة الأصناف العراقية في دول أخرى ، وكان للعراق مزارع للرز والشاي في وفيتنام وسريلانكا في أواخر القرن المنصرم (20). ومما يؤيد ضرورة هذا التوجه ما قدمته دراسة ثانية لمعدل البصمة المائية محسوبة للسنوات 2007- 2016 لخمس محاصيل زراعية رئيسية في خمسة عشر محافظة عراقية (21)، حيث يبين الجدول (1) من الدراسة المذكورة بأن معدل البصمة المائية لمحصول الرز بلغ ما مقداره 3694 متر مكعب مياه/ طن ، وهو ما يؤكد ما ذكرناه في أعلاه ، خاصة وأن كافة هذه المياه هي مياه (زرقاء) عدا 10 متر مكعب مياه/ طن منها من مياه الأمطار (خضراء)، وهذا يشكل ضغطا شديدا على مياه الري في فصل الصيف. كما وتوصلت الدراسة إلى نتيجة مماثلة لمحصول

(الجدول 1) معدلات السنوات (2007- 2016) لخمسة محاصيل رئيسية في العراق يبين المساحات المزروعة وكمية الحاصل إضافة الى كميات مياه الري المستخدمة لكل من هذه المحاصيل مع البصمة المائية للإنتاج الكلي السنوي والبصمة المائية لكل محصول. المصدر: عويد سالم وأخرون، "تخمين آثار تجارة محاصيل الحبوب على الامن الغذائي والأراضي في العراق" (باللغة الإنكليزية) (19).

نوع الحاصل	المساحة المزروعة	كمية الحبة المنتجة		استهلاك الحبة من المياه م³/هكتار			بصمة المائية للحبة مليون م³/ سنة			البصمة المائية للحاصل م³/ طن		
	هكتار	طن/ سنة(	طن/ هكتار	خضراء	زرقاء	المجموع	خضراء	زرقاء	المجموع	خضراء	زرقاء	المجموع
الحنطة	1,786,235	3,036,882	1.700	1257	1181	2438	2,707,073,151	2,563,931,419	5,271,004,570	891	844	1736
الشعير	623,666	833,815	1.336	1203	1119	2322	953,170,654	522,128,613	1,475,299,267	1143	626	1769
الرز	68,897	269,970	3.918	717	13.127	13,199	2,692,008	994,531,633	997,223,641	10	3684	3694
الذرة	123,678	366,523	2.963	288	9.096	9384	25,292,837	794,944,139	820,236,976	69	2169	2238
المجموع	2,602,476			3465	97823	27,343	3,688,228,650	4,875,535,804	8,563,764,454			

صيفي اخر وهو محصول الذرة، فقد ظهر أن ما يحتاجه هذا المحصول من مياه الري (الزرقاء) يساوي 2238 متر مكعب مياه /طن ولا يتجاوز استهلاكه من مياه الأمطار (الخضراء) سوى 69 متر مكعب ماء/ طن، وهذا يدفعنا الى معاملة هذا المحصول معاملة الرز و استيراده من دول أخرى يمكن أن تصدره للعراق وبالتالي توفير كمية المياه الافتراضية الخاصة للبلد.

وفي معرض التفاضل بين المحاصيل المختلفة ربما يكون من الأوفق التركيز على محاصيل استراتيجية تحقيق الأمن الغذائي بحده الأدنى لسد جزءً من الاحتياج لها، بحيث تبعد خطر المجاعة في حالات الحروب والاضطرابات السياسية وفي نفس الوقت لا ترهق موارد المياه الوطنية الشحيحة بسبب بصمتها المائية المعتدلة نسبيا لاحظ (الجدول 1) . وعلى هذا الأساس يتطلب تشجيع زراعة الحنطة والشعير على ان يتم ذلك وفقا لتقنيات الري الحديثة ونعني الري التكميلي باستخدام الري بالرش سواءً كان ذلك في المناطق الديمية شمال خط 200 ملم المطري او حتى في مناطق الوسط والجنوب إلى الأسفل من هذا الخط وان يتم استيراد ما يتبقى من هذا الاحتياج من الدول ذات البصمة المائية العالية، مثل كندا والولايات المتحدة وأوكرانيا واعتبار تجارة المياه الافتراضية ركنا أساسيا من سياسات إدارة الموارد المائية والتبادل التجاري لقطر. ومن نفس المنطلق يكون من الأفضل تشجيع زراعة محاصيل صيفية مثل الخضراوات ذات البصمات المائية الواطئة مثل الفاصوليا (543م3 مياه/ طن) والطماطم (171 م3 مياه/ طن) والبطاطا (314م3 مياه/ طن) وكذلك القرنبيط والباذنجان والبصل التي لا تتجاوز بصماتها المائية (100م3 مياه/طن) وتنطبق هذه المبادئ أيضا على المنتجات الغذائية الحيوانية فيلاحظ أن لحوم الماشية ومشتقات الألبان هي ذات بصمات مائية عالية جداً حيث تزيد بمعدل خمسة الى عشرين ضعفا عن البصمة المائية للمحاصيل الزراعية وذلك بسبب أن البصمة المائية للأعلاف مرتفعة نسبيا، فنرى أن البصمة المائية للحم البقر في الغالب تبلغ (13000 م3 مياه / طن) كما أن البصمة المائية للأجبان تساوي (5000 م3 مياه/ طن) (22). وفي الولايات المتحدة الأمريكية نجد ان البصمة المائية للحم البقر هي بحدود (15000 م3 مياه/ طن) ولحم الخنزير (10000م3 مياه/طن أما الدواجن فهي بحدود (4000م 3 مياه/طن) (23). وفي ذات الوقت تعتبر كافة أصناف الأسماك البحرية والنهرية ذات بصمة مائية تساوي صفر لعدم استهلاكها أي كمية من المياه ويستثنى من ذلك اسماك تربية الأحواض بسبب ما تسببه من فواقد مائية عالية جدا عن طريق

التبخر .وعلى هذا الأساس يمكن للعراق التقليل من مشاريع تربية وتسمين العجول وكذلك حصر تربية الأغنام في المناطق الرعوية الطبيعية والاستعاضة عن ذلك باستيراد جزءا كبيرا من احتياجه من اللحوم الحمراء من دول مثل البرازيل والأرجنتين والهند ونيوزيلندا، وفي ذات الوقت التركيز على إنتاج لحوم الدواجن وعلى صناعة صيد الأسماك البحرية والنهرية وإلغاء كافة بحيرات الأسماك العشوائية الحالية ومنع إنشاء أي منها في المستقبل بسبب كونها تستنزف جزءا هائلا من موارد المياه عن طريق التبخر وأن هذه المياه هي غير مخصصة لها أصلا وتتجاوز على الحصص المائية لمشاريع زراعية مهمة. مما تقدم نجد من الضروري التأكيد على أن تجارة المياه الافتراضية لا يمكن أن تكون حلا أساسيا وحيدا لمسألة الأمن الغذائي في العراق. كما يجب التأكيد أيضا على التخطيط السليم في هذه التجارة للموازنة بين ما يستورده العراق وما ينتجه من المواد الغذائية سواءً كانت نباتية أو حيوانية من أجل عدم ارتهان قراره السياسي بجعله معتمدا في غذائه على باقي الدول. وبالنظر لارتباط الأمن الغذائي والأمن المائي يجب أن يتم تبني استراتيجية مائية رشيدة يسيطر فيها العراق على كامل ثروته المائية المتاحة متجاوزا أي تفريط وتبذير إضافة الى تنمية هذه الثروة بزيادة الموارد المائية التقليدية بترشيد الاستهلاك والاستخدام الأمثل لها وكذلك العمل على الحصول على حصة عادلة من مياه نهري دجلة والفرات من جهة وتنمية مصادر المياه غير التقليدية من خلال حصاد مياه الأمطار وتحلية المياه المالحة وتكرير المياه العادمة من الجهة الأخرى.

الخلاصة والاستنتاجات

أولا. أن الأمن الغذائي للعراق مرتبط ارتباطاً مباشراً ووثيقا لا يقبل الانفصام عن أمنه المائي، لهذا يجب أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار في أية استراتيجية للتنمية المستدامة في القطر سواءً كان ذلك في المنظور القريب أو البعيد. ويمكن اعتماد "تجارة المياه الافتراضية" عنصرا مهما في هذه الإستراتيجيات كونها تساهم في تقليص الفارق بين ما هو متاح من الموارد المائية والحاجة الفعلية لإنتاج ما يستهلك من منتجات غذائية، وبالتالي إبعاد شبح المجاعة من جهة والاعتماد على الدول ومنظمات الإغاثة العالمية من الجهة الأخرى.

ويستلزم الأمر بادئ ذي بدء تصنيف المنتجات الغذائية بحسب بصماتها المائية واعتماد المحاصيل والمنتجات ذات البصمات المعتدلة والواطئة واستبعاد تلك ذات البصمات العالية من الخطط الزراعية واستيرادها من الدول الأخرى وبالتالي التخطيط لاستيراد أكبر قدر ممكن من المياه الافتراضية واعتماد هذه السياسة نهجاً ثابتا في هذا السياق.

ثانيا. لا يمكن أبدا اعتبار ما ورد أعلاه أمرا مخففا عن الحاجة الماسة والفعلية لقيام الدولة بكافة أجهزتها ببذل كل ما يتطلبه الموضوع من جهد لصيانة وتنمية الموارد المائية الوطنية ومنع استباحتها من قبل الدول المتشاطئة مع العراق في نهري دجلة والفرات ، أو تبديدها من خلال سياقات إدارة الموارد المائية البالية الحالية سواء بعدم كفاءة نظم الري من جهة أو من خلال لامبالاة المستفيدين منها من فلاحين في هدرها و من مؤسسات الدولة نفسها في تلوث تلك المياه وجعلها غير صالحة للاستعمالات البشرية والزراعية بعدم استخدامها الاستخدام الصحيح. وهنا نود ان نطرح اعتماد دبلوماسية (المياه مقابل الاقتصاد) مع دول الجوار المائي من أجل فرض حصص مائية مناسبة للعراق ، كذلك إعادة النظر في كافة نظم الري الحالية وتحديثها وفقا للمعايير الدولية الحديثة أضافة الى سن القوانين الرادعة وتطبيقها بصرامة على كافة المسيئين في استخدامات المياه. كما يجب اعتبار المياه سلعة اقتصادية تدخل في عمليات الإنتاج باعتبارها مادة أولية لها سعرها المجزي وبالتالي تسعيرها وتقاضي الرسوم التصاعدية عنها وفقا لكمية الاستهلاك حالها حال الطاقة الكهربائية. وفي ذات الوقت تنمية الموارد المتاحة غير التقليدية الى اقصى حد ممكن من خلال تحلية المياه المالحة وتكرير المياه العادمة باستعمال الطاقة الشمسية اضافة إلى التوسع في حصاد مياه الأمطار لتنمية مخزونات المياه الجوفية مع منع الاستخدام الجائر لها.

ثالثا. أن أي خطة استراتيجية للتنمية المستدامة في القطر يجب ان تكون شاملة بحيث لا تكتفي بتحسين الوضع في مجال الامن الغذائي المرتبط بالأمن المائي بل يكون من عناصرها الأخرى التنمية المجتمعية التي تؤثر مباشرة في الأمن الغذائي ومن ذلك وضع السياسات للحد من الاستهلاك من خلال التقليل من الزيادة المضطردة في عدد السكان حيث

بلغ معدل النمو السكاني للعراق 2.97% سنوياً في الفترة 2012- 2021 وهو معدل عالي مقارنة مع دول أخرى مثل الصين (0.49%) والهند (1.09%) اللتين لجأتا إلى فرض سياسات تحديد النسل فيها من أجل منع المجاعات و توفير الغذاء لشعبيهما (24) وهو الإجراء السليم الذي يتطلب أتباعه في العراق، وفي نفس المجال يجب بذل الجهود من أجل تغيير جذري في العادات الغذائية للأفراد والجماعات للحد من الإسراف المفرط الملحوظ في بعض طبقات المجتمع المرفهة مقارنة مع الطبقات الأخرى الأقل حظا. كما يتطلب استعمال منتجات بديلة في الطعام، فعلى سبيل المثال وليس الحصر زيادة استهلاك البطاطا و التقليل من استهلاك الرز في الوجبات الغذائية وبالتالي الاحتفاظ بنفس مستوى السعرات الحرارية المطلوبة.

رابعا. ولعل من أهم ما يمكن ان تعتمده أية تنمية اجتماعية هو التوعية الجماعية والإرشاد في كافة المجالات التي ذكرناها لكي يعلم الجميع بأن مسألة الأمن الغذائي وما يتفرع عنها هي مسألة وجودية تخص بقاء العراق كدولة وشعب وأن هذا الامر هو أيضا مسؤولية في اعناق المسؤولين تجاه الأجيال القادمة.

* مهندس استشاري وخبير بالموارد المائية
** أكاديمي وخبير بالموارد المائية
*** أكاديمي وخبير بالموارد المائية

كانون الثاني 2023

المراجع

(1) Allen T. "Fortunately there are substitutes for water: otherwise, our hydro-political futures would be impossible". Proceedings of the Conference on Priorities for Water Resources Allocation and Management. Southampton July 1992. https://www.ircwash.org/sites/default/files/210-93PR-11967.pdf

(2) USGS. "Earth View- Saudi Wheat Experiment Relied on Fossil Water". December 2016. Accessed on December 28th , 2022. https://www.usgs.gov/news/science-snippet/earthview-saudi-wheat-experiment-relied-fossil-water

(3 (CNN (Arabic). أمريكا تزيد المساعدات الاقتصادية للأردن بنسبة 57% في 2018
5 Dec 2018 https://arabic.cnn.com/business/article/2018/12/05/jordan-usa-economic-economic-development-projects-education-healt-budget-deficit

(4) "المساعدات الامريكية للأردن"، 2 فبراير 2023 جريدة الغد الأردنية:
https://alghad.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AA%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%8A%D8%B1%D9%83%D9%8A%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%A3%D8%B1%D8%AF%D9%86/

(5(The World Count https://www.theworldcounts.com/populations/countries/egypt

(6) "مصر تتصدر العالم في انتاج الهيدروجين الأخضر للحفاظ علة البيئة"، جريدة اليوم السابع المصرية، 1 نوفمبر 2022.
Https://www.youm7.com/story/2022/11/11/%D9%85%D8%B5%D8%B1%D8%AA%D8%AA%D8%B5%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85-%D9%81%D9%89-%D8%A5%D9%86%D8%AA%D8%A7%D8%AC-%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%8A%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%AC%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AE%D8%B6%D8%B1-%D9%84%D9%84%D8%AD%D9%81%D8%A7%D8%B8-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D8%A9/5972688

(7(Frontier economics. "The concept of 'virtual water'- a critical review". https://www.frontier-economics.com.au/documents/2014/06/concept-virtual-water-critical-review.pdf/

(8) Horlemann L, Neubert S. "Virtual Water Trade -A realistic concept for resolving the water crisis?". German Development Institute, December 2008.
https://www.gwp.org/globalassets/global/toolbox/references/virtual-water-trade.-a-realistic-concept-for-resolving-the-water-crisis--neubert--s.-2007.pdf

(9) Yang H, Zehnder A "Virtual water: An unfolding concept in integrated water resources management". WATER RESOURCES RESEARCH, VOL. 43, W12301, doi:

10.1029/2007WR006048, 2007
"https://www.eqb.state.mn.us/sites/default/files/documents/VirtualWater2007WR006048.pdf
(10) Shanker M. "Virtual Water Trade". Maithri Aquatech. Accessed in December 28th2022.
https://www.maithriaqua.com/post/virtual-water-trade
(11) Zhuo L., "Water Footprint". Scholarly Community Encyclopaedia. Accessed on the 28th December2022 https://encyclopedia.pub/item/revision/0ef372829524af16427676a0a0875baa (12) Hoekstra, A.Y.; Mekonnen, M.M.; Chapagain, A.K.; Mathews, R.E. and Richter, B.D. "Global Monthly Water Scarcity: Blue Water Footprints versus Blue Water Availability". Plos One Published: February 29, 2012. Accessed: December 28, 2022.
https://journals.plos.org/plosone/article?id=10.1371/journal.pone.0032688
)13) Hoekstra A Y, Chapagain A K, Aldaya M M, Mekonnen M M. "The Water Footprint Assessment Manual-Setting the Global Standard". P2. Earthscan.2011.
https://waterfootprint.org/media/downloads/TheWaterFootprintAssessmentManual_2.pdf
(14(ISO online browsing platform (IOB)."ISO 14046:2014". Accessed 23 December 2022.
https://www.iso.org/obp/ui/#iso:std:iso:14046:ed-1:v1:en
(15) Muratoglu A. "Assessment of wheat's water footprint and virtual water trade: a case study for Turkey". Ecologic Processes: 9, 13 (2020). Published: 06 March 2020.
https://ecologicalprocesses.springeropen.com/articles/10.1186/s13717-020-0217-1
(16) UN (World Population Prospects 2019). "Population of Iraq".23 August 2021. Accessed 20 December 2022.
https://statisticstimes.com/demographics/country/iraq-population.php
(17) Ewaid S H, Abed S A, Chabuk A, al- Ansari N. "Water Footprint of Rice in Iraq".1st International Virtual Conference of Environmental Science. IOP Conf. Series: Earth and Environmental Science 722 (2021) 012008 IOP Publishing
https://iopscience.iop.org/article/10.1088/1755-1315/722/1/012008/pdf
(18) al- Ansari N. Ali A A, Knutsson S. "Present Conditions and Future Challenges of Water Resources Problems in Iraq". Journal of Water Resource and Protection, 2014, 6, 1066-1098
https://www.diva-portal.org/smash/get/diva2:977582/FULLTEXT01.pdf
[19] Martens M. "Food and Water Security in the Middle East and North Africa". NATO Special Parliamentary Assembly Special Report, table 4, page 7. 8 October 2017.
https://www.nato-pa.int/download-file?filename=/sites/default/files/2017-11/2017%20-%20176%20STC%2017%20E%20bis%20FOOD%20AND%20WATER%20SECURITY%20MENA%20-%20MARTENS%20REPORT.pdf
(20) al- Baynna al- Jadeda. "Ministry of trade reveals the Secretes of its Tea Plantations in Vietnam and its Factories Abroad". (In Arabic), No. 26616 on 25 November 2020, accessed on 20 December 2022 https://albayyna-new.net/content.php?id=26616
(21) Ewaid S H, Abed S A, al- Ansari N. "Assessment of Main Cereal Crop Trade Impacts on Water and Land Security in Iraq". MDPI, Agronomy Journal. 2020. 10(1), 98. Published on 9 January 2020
https://www.mdpi.com/2073-4395/10/1/98
(22) al- Babily D. "Virtual Water between Food Security and World Trade". Agri2Day.com in Arabic. 10 August 2020. Cairo. Accessed on 22 December 2022.
https://www.agri2day.com/2020/08/10/%D8%AF-%D8%B9%D9%84%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%A8%D9%84%D9%8A-%D9%8A%D9%83%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%A7%D9%87%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%81%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%B6%D9%8A%D8%A9/
(23) Smil V. "Water News: Bad, Good and Virtual". American Scientist. September- October 2008. Volume 96. NUMBER 5. PAGE 399
https://www.americanscientist.org/article/water-news-bad-good-and-virtual
(24) World Data.info. "Population development in Iraq since 1960".Accessed: 23 December 2022.
https://www.worlddata.info/asia/iraq/populationgrowth.php

الاعتراف بحق الإنسان بالبيئة الصحية والمستدامة: الضرورة والأهمية

د. كاظم المقدادي*

تمهيد

حقوق الإنسان حقوق متأصلة في جميع البشر. من الحقوق الأساسية: الحياة والصحة والغذاء والمأوى والمستوى المعيشي اللائق والتربية والتعليم والعمل، الخ. وهي حقوق حيوية وهامة ومترابطة عضوياً.

إدراكاً لضرورتها ولأهميتها الحيوية في حياة المجتمع والأسرة والمواطن، أي الدولة برمتها، أولتها الدول المتحضرة، المعتمدة والملتزمة بحقوق الإنسان، وتوليها على الدوام إهتماماً خاصاً ومتواصلا. والمعروف منذ عدة عقود، وعلى نطاق واسع عالمياً، ان حقوق الإنسان الأساسية مُعترف بها دوليا، لكن الإلتزام بها يختلف بين الدول والحكومات. رغم المسيرة الطويلة التي قطعها النضال العالمي من أجل البيئة، والتطورات الكبيرة التي حصلت بشأنها، ووضعت مشكلاتها ضمن أولويات الحكومات، لم يتم الإعتراف بالحق ببيئة امنة ونظيفة وصحية ومستدامة كحق أساسي من حقوق الإنسان، إلا قبل عدة اشهر.

لكن صدى الإعتراف الدولي الجديد كان متميزا، وأعتبرَ إنتصارا مشهودا، لا بل أكبر إنتصار لجهود أنصار البيئة في العالم طيلة نصف قرن، وتحديداً منذ مؤتمر ستوكهولم للبيئة البشرية في عام 1972. فما أهمية هذا الاعتراف؟

تكمن أهمية الإعتراف دولياً بالحق ببيئة امنة صحية ومستدامة، كحق أساسي من حقوق الإنسان، بأنه جاء ليكمل الحقوق الأساسية المعترف بها دولياً: وشكل إقرارا بضرورة هذا الحق وانيته الملحة. وعدا هذا فهو تعزيز لمنظور الترابط العضوي الوثيق لهذه الحقوق، وخاصة بين الحياة والصحة والبيئة. وهو تأكيد اخر لمراعاة حالة البيئة وتأثيرها على حياة وصحة ورفاهية المواطنين إيجاباً أو سلباً.

ورقتنا ستوضح ما ورد من خلال تسليط الضوء على تعريف ومفهوم ودور وتأثير كل عنصر من العناصر ذات العلاقة بالصحة والبيئة.

حق الصحة وحمايتها

أسلفنا بان الحق بالصحة هو من حقوق الإنسان الأساسية. وهو يأتي من حيث الأهمية بعد الحق بالحياة.

وقد حصل خلال العقود الستة المنصرمة تطور كبير على مفهوم الصحة، منطلقاً من ان الصحة هي الحياة، وهي أغلى وأثمن ما يمتلكه الانسان. وقد أثبت الواقع المعاش على مر العصور صحة القول المأثور "العقل السليم في الجسم السليم"، وان الأصحاء وحدهم الذين يتمتعون بحياتهم وينعمون بها أفضل من غيرهم بكثير. ومن هنا، جاء إقرار مفهوم الصحة بوصفه: "حالة من المعافاة الكاملة بدنياً ونفسياً واجتماعياً وروحياً، وليس مجرد الخلو من المرض أو العجز"- كما نص عليه دستور منظمة الصحة العالمية.(WHO)(1)

ويؤكد هذا المفهوم الذي تبنته منظمة الصحة العالمية في عام 1978 في (إعلان ألما آتا لمبادئ الرعاية الصحية الأولية)، على وجود إرتباط وثيق بين الصحة البدنية والعقلية والاجتماعية، وان سلامة الصحة البدنية والعقلية والاجتماعية ضرورة لتنشئة المواطن الصالح القادر على تكوين أسرة صالحة وبناء حياة أفضل. وإذا نقص أحد هذه العناصر ينتج عن هذا عدم تكامل الصحة.

وقد حظي هذا المفهوم بإجماع عالمي، وإقترن باعتماد الرعاية الصحية الأولية منهجاً لتقديم الخدمات الطبية في الوقاية والعلاج. وإستناد الرعاية الصحية على مجموعة من الطرق والتقنيات العملياتية التي يقرّها العلم ويقبلها المجتمع، كمرتكزات. وأن يُتاح للأفراد والأسر الوصول الى الخدمات الطبية بتكلفة ميسّرة. وأصبح حق الإنسان في الصحة مسلما به في العديد من الصكوك الدولية. فالفقرة 1 من المادة 15 من (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)، الصادر في عام 1948، تقر بأن: "لكل شخص الحق في مستوى معيشة يكفي لضمان الصحة له ولأسرته، ويشمل المأكل والملبس والمسكن والرعاية الطبية والخدمات الاجتماعية الضرورية".

ونص (العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) الصادر عام 1966 في المادة 12(1) "تقر الدول الأطراف بحق كل إنسان في التمتع بأعلى مستوى من الصحة الجسمية والعقلية يمكن بلوغه".

وأكد (دستور منظمة الصحة العالمية) أن التمتع بالصحة هو أحد الحقوق الأساسية لكل إنسان. ويشمل الحصول على الرعاية الصحية المقبولة والميسورة التكلفة ذات الجودة المناسبة في التوقيت المناسب.

وعدا معاهدات حقوق الإنسان الدولية والإقليمية، تم التأكيد على الحق بالصحة في الدساتير الوطنية لغالبية الدول. وأقرت بأنه يحق لكل إنسان أن يتمتع بمستوى من الصحة يمكن بلوغه ويفضي إلى العيش برفاهية وكرامة. وفي هذا السياق يعني الحق في الصحة وجوب ان تهيئ الحكومات في بلدانها الظروف التي تؤمن لكل فرد موفور الصحة قدر الإمكان. وتتراوح هذه الظروف بين ضمان توفير الخدمات الصحية وظروف العمل الصحية والمأمونة والإسكان الملائم والأطعمة المغذية. ويمكن السعي إلى إعمال الحق في الصحة عن طريق منهجيات عديدة ومتكاملة مثل وضع سياسات صحية وطنية، أو تنفيذ برامج الصحة التي تضعها منظمة الصحة العالمية، أو اعتماد صكوك قانونية محددة. وعلاوة على ذلك، يشمل الحق في الصحة بعض المكونات التي يمكن تطبيقها قانونياً.

ولا بد من إدراك جيداً ان الحق بالصحة لا غنى عنه من أجل التمتع بحقوق الإنسان الأخرى. فهذا الحق يرتبط وثيق الإرتباط بإعمال الحقوق

الأخرى، ويعتمد على ذلك، مثلما يرد في الشرعة الدولية لحقوق الإنسان، بما فيها الحق في الحياة، والمأكل، والمسكن، والعمل، والتعليم، والمساواة، والكرامة الإنسانية، وعدم التمييز، وحظر التعذيب، والخصوصية، والوصول إلى المعلومات، وحرية تكوين الجمعيات، والتجمع، والتنقل. فهذه الحقوق والحريات وغيرها تتصدى لمكونات لا تتجزأ عن الحق في الصحة. وترافق ذلك مع اعتماد مبادئ أساسية لتوفير الصحة، وإتاحتها للجميع، واعتبارها حقاً أساسياً للبشر.

ومن بين ما تتطلبه الاستجابة لتحديات التنمية في المجال الصحي تقديم خدمات الوقاية، وتحسين صحة الأسرة، ومكافحة الأمراض، مع اعتبار هذه الأمور مُكوّناً رئيساً في رسم السياسة الصحية بطريقة تجعلها منسجمة مع الاستراتيجيات الوطنية في التخفيف من وطأة الفقر.

وتأكد هذا أكثر عِبر التوجّه دولياً لتحقيق أهداف التنمية للألفية الثالثة، التنموية والاجتماعية، التي تبنتها منظمة الأمم المتحدة في إطار إعلان الألفية المنبثق عن القمة التي عقدت في أيلول 2000، والذي تضمن مجموعة من الالتزامات الهادفة إلى القضاء على الفقر، والنهوض بالتنمية، وحماية البيئة.

وأثبتت تجربة الدول المتحضرة ان بلوغ الصحة المطلوبة للمواطنين لا يتم إلا في ظل بيئة امنة وصحية. ولن يتحقق توفير الرعاية الصحية الحديثة المطلوبة، والعيش في بيئة صحية محمية، من دون مراعاة حقوق الأنسان واحترامها حقاً وفعلا، بوصفها حقوقاً أصلية في طبيعتها لا يستطيع البشر ان يعيشوا بدونها، ولن يكون لوجودهم كبشر قيمة ومعنى بدونها، وهي حقوق مستحقة لكل شخص بوصفه إنسانا.

ومع ان الوكالات الدولية المتخصصة التابعة للأمم المتحدة تساعد الدول لبلوغ مجتمعاتها مستوى جيدا من الصحة باعتبارها أحد الحقوق الأساسية لكل إنسان، بيد ان الواقع الراهن في الدول النامية والفقيرة مغاير تماماً، حيث تتحمل الفئات الضعيفة والمهمشة في المجتمع عبئا لا داعي له من المشاكل الصحية. ويعاني كل عام نحو 150 مليون شخص في العالم من كوارث مالية، ويقع 100 مليون شخص في دائرة الفقر بسبب الإنفاق على الرعاية الصحية (2). ويقترن ذلك على نحو صارخ بالواقع البيئي المتردي وتداعياته الخطيرة. ولذا نجد ان القطاعين البيئي والصحي، ومؤسساتهما الحكومية، تعاني في العديد من دول العالم، من التخلف والبؤس، وسوء الإجراءات العلاجية، وإنعدام الإجراءات الوقائية تقريباً، بسبب الفقر، من جهة، وبسبب السياسات الهوجاء والفساد الاداري والمالي وانعدام الضمير والمسؤولية لدى المسؤولين. ولذا نجد في تلك الدول إرتفاع معدلات الاصابات المرضية، والوفيات، خاصة وسط حديثي الولادة والرضع والأطفال دون سن الخامسة، والأمهات الحوامل، ولا رقابة ولا محاسبة للمقصرين. وكل هذا يتطلب المعالجة الجذرية، التي لن تتحقق إلا في ظل نظام مدني ديمقراطي حقيقي، حريص على الشعب والوطن، ويعترف بحقوق الإنسان، ويلتزم بها، وبضمنها إقرار وتنفيذ حق المواطنين بالحياة والصحة والبيئة الصحية والمستدامة.

الحق الجديد: بيئة آمنة وصحية ومستدامة

في مفهومها الواسع، تعتبر البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من هواء وماء وغذاء وغيرها. ويُعرفها علم البيئة بأنها الطبيعة، بما فيها من أحياء وغير أحياء. وهي الوسط الذي يحيى به الإنسان مع غيره من الكائنات الحية، ويحصل منه على مقومات حياته من مأكل وملبس ومسكن، ويمارس فيه مختلف علاقاته مع بني جنسه(3). والبيئة، التي تشمل: الهواء والماء والتربة والمعادن والمناخ والكائنات نفسها، ليست مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته، وإنما تتضمن أيضاً علاقة الإنسان بالإنسان التي تنظمها المؤسسات القانونية والإجتماعية والعادات، والتقاليد والقيم الوطنية.

أسلفنا بان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) نص في مادته الثالثة، على حق الإنسان في الحياة والحرّية وفي الأمان على شخصه. ويقضي هذا الحق بالضرورة - برأي الخبراء- في حصول المواطن على بيئة سليمة تضمن استمرار شروط حياته. بينما يشكل التلوث تهديداً حقيقياً ليس فقط لحياة الفرد وسلامته ونوعية حياته، بل ولوجود

الحياة بالذات ولاستمرارها. وورد ذكر الصحة والبيئة بتفاصيل أوفى في "العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، حيث نصت المادة 12

(1) تقر الدول الأطراف في هذا العهد بحق كل إنسان في التمتع بأعلى مستوى من الصحة الجسمية والعقلية يمكن بلوغه.

(2) تشمل التدابير التي يتعين على الدول الأطراف في هذا العهد اتخاذها لتأمين الممارسة الكاملة لهذا الحق، تلك التدابير اللازمة من أجل:

(أ) العمل على خفض معدل وفيات حديثي الولادة والرضع، وتأمين نمو الطفل نموا صحياً .

(ب) تحسين جميع جوانب الصحة البيئية والصناعية

(ج) الوقاية من الأمراض الوبائية والمتوطنة والمهنية والأمراض الأخرى وعلاجها ومكافحتها.

(د) تهيئة ظروف من شأنها تأمين الخدمات الطبية والعناية الطبية للجميع في حالة المرض.

من هذا المنطلق جرى في اذار 1997 تنبيه "لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان" (أصبحت فيما بعد "مجلس حقوق الإنسان") الى أن العوامل البيئية هي عائق كبير أمام تحقيق حقوق الإنسان، وتهديد رئيس لحق الحياة، إن لم نقل للبقاء على هذا الكوكب، فينبغي مراعاة ذلك(4).

وكان المحامي مروان يوسف صباغ قد طرح قبل ثلاثة عقود وجوب اعتبار الحق في بيئة صحية سليمة ضلعاً من ضلوع حقوق الإنسان، وحاجة من حاجات بقاء البشر، مُدَلِلا بان الحياة تشهد في الواقع يومياً وبإضطراد معالم الإرتباط الوثيق بين حق الإنسان في الحياة وحقه في الحصول على بيئة نظيفة، سليمة، ومتوازنة. وإلا فان حق الإنسان في الحياة لا ينتهك فحسب، بل وتتعرض حياته للخطر(5).

صحة الانسان مرتبطة بصحة النظام البيئي

أكد العلم ان للبيئة تأثيرا كبيرا على صحة المجتمع وجميع أفراده، وذلك لإرتباط المؤشرات الحياتية والصحية في المجتمع وثيق الإرتباط بالوضع البيئي ومشكلاته، وفي مقدمتها التلوث وسوء معالجته(6). ويتمثل هذا الترابط بأنه كلما كانت البيئة التي يعيش فيها البشر، خالية من التلوث ومن بقية العوامل المؤثرة والضارة بصحة الإنسان، ضمن الإصحاح البيئي، كلما كانت صحة المواطنين أفضل، وضمان وقايتها من المخاطر البيئية المباشرة منها، الناجمة عن الملوثات الكيميائية والإشعاعية والبيولوجية، وغير المباشرة، كالسكن والعمل والمواصلات وبقية عوامل التنمية الحضرية، التي تؤثر حالتها على البشر جسدياً ونفسياً واجتماعياً وثقافياً، سلباً وإيجاباً .

واقتراناً بذلك، تُعدُ حماية البيئة من الدعامات الأساسية ضمن ممارسات الصحة العامة بسبب الأثر الكبير للبيئة على الصحة العامة(7).

وفي هذا الشأن فان أي استراتيجيات بيئية لا تأخذ منظور الصحة بعين الاعتبار تعتبر استراتيجيات مبتورة. وهكذا الأمر بالنسبة للاستراتيجيات الصحية التي يجب أن تأخذ المنظور البيئي بعين الاعتبار، وإلا تصبح مبتورة أيضا.

باعتماد هذه الرؤية العلمية الثاقبة حققت الدول المتقدمة في عصرنا الراهن إنجازات باهرة في مجالات الصحة والبيئة والتنمية المستدامة. وفي ضوء نتائجها البينية والصحية المتحققة، طُرحت خلال العقود الثلاثة الأخيرة، خاصة عقب ما سببته الأسلحة التي إستخدمت في الحروب في المنطقة من كوارث صحية وبيئية، دعوة الدول الى ضرورة الإستفادة من خبرة وتجارب الدول المتطورة، وإعتماد التنسيق والعمل المشترك ضمن استراتيجيات وخطط وبرامج مدروسة للمشكلات الصحية والبيئة القائمة، ذات منظور طويل الأمد حول الصحة وتحدياتها المستقبلية، تنفذها وزارات: الصحة والبيئة والعلوم والتكنولوجيا والتعليم العالي والبحث العلمي والتربية والصناعة والزراعة والدفاع والمؤسسات الرسمية المعنية الأخرى ومنظمات المجتمع المدني، الخ.

واستطراداً، شددت الدعوة على وجوب أخذ الاستراتيجيات البيئية منظور الصحة بعين الاعتبار، وأخذ الاستراتيجيات الصحية المنظور البيئي بعين الاعتبار، وإلا فان عدم المراعاة تجعل هذه الستراتيجيات مبتورة.

الى هذا، أكدت دراسات علمية عديدة أجرتها

منظمة الصحة العالمية منذ عدة عقود بان صحة الانسان مرتبطة شديد الإرتباط بصحة النظام البيئي، الذي يلبي الكثير من احتياجات البشر الاساسية. فان زيادة عدد السكان عشوائياً، والتطور الاقتصادي المستنزف للموارد الطبيعية والمصحوب بالتلوث البيئي، الذي أصبح من أكبر المشاكل البيئية التي يواجهها العالم اليوم، تؤدي الى حدوث تغييرات سريعة في النظام البيئي العالمي، ويؤثر هذا على صحة البشر، حيث تتسبب المشكلات البيئية الساخنة، مثلا، بنحو 40% من الامراض والوفيات التي تحدث في عمر مبكر. وكانت دراسة نادرة نشرتها منظمة الصحة العالمية في حزيران/ يونيو 2006 بعنوان "تفادي الامراض من خلال الحرص على بيئة صحية"، نبهت الى انه يمكن سنويا انقاذ حياة 4 ملايين إنسان اذا ما تم تفادي المشكلات الصحية المرتبطة بالمكونات البيئية، كالهواء والماء والتربة والاشعاعات والضجيج والحقول الكهرومغناطيسية والانشاءات والزراعة والسلوكيات الصحية والنظافة. وأوضحت بان عوامل الخطر البيئية تشهد تحولا كبيرا مع التنمية. وحذر تقرير هام للأمم المتحدة حول "حالة البيئة العالمية في السنوات الخمس الأخيرة"، نشر في اذار/مارس 2019 من أن الأضرار التي تلحق بالكوكب بالغة الخطورة وتعرض صحة البشر للخطر بشكل متزايد ما لم يتم اتخاذ إجراء عاجل.

وجاء في التقرير الذي ألفه 250 عالما من أكثر من 70 دولة: "إننا إما أن نزيد من حماية البيئة، أو أن المدن والمناطق في آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا قد تشهد ملايين الوفيات المبكرة بحلول منتصف القرن".

البيئة الصحية

الصحة البيئية (Environmental Health) كما تُعرفُها منظمة الصحة العالمية - هي تلك الأمور الخاصة بصحة الإنسان ومرضه التي تحددها عوامل بيئية. وتشمل الآثار المرضية المباشرة، الناتجة عن المواد الكيمائية والفيزيائية والبيولوجية والإشعاعية، وغيرها، والآثار التي تنتج غالبا بشكل غير مباشر وتؤثر على صحة الإنسان وصحة البيئة، سلباً أو إيجاباً، بدنياً أو نفسياً أو اجتماعياً او ثقافياً.

وتُعرفُ أيضاً بأنها العلم الذي يبحث في البيئة من الناحية الصحية ومدى صلاحيتها لمعيشة البشر والكائنات الحية الأخرى.

ولأهميتها الفائقة، تُعدُ الصحة البيئية احد أهم فروع الصحة العامة المعني بجميع العناصر البيئية، سواء البيئة الطبيعية أو العمرانية، والتي تؤثر على صحة الإنسان وجميع أشكال النُظم الحيوية. والإنسان هو أكثر هذه النظم عرضة للضرر، الى جانب كونه المسبب الرئيس لتدهور أو لازدهار البيئة الصحية، بأفعاله التي يقوم بها، حيث تتأثر البيئة الصحية بشكل عام بسلوكيات الأفراد سلباً أو إيجاباً. وإدراكاً لهذا استُحدِثت تخصصات عديدة تهتم بموضوعاتها، كعلم الأوبئة البيئية، وعلم التعرض للأمراض، وعلم السموم، والهندسة البيئية، والقانون البيئي وغيرها.

وللصحة البيئية خدمات محددة، تُعرفُها منظمة الصحة العالمية بأنها: الخدمات التي تطبق سياسات الصحة البيئية من خلال أنشطة الرصد والمراقبة. كما أنها تنفذ هذا الدور من خلال تعزيز وتحسين المعايير البيئية وتشجيع استخدام تقنيات وسلوكيات صحية وصديقة للبيئة. ولهذه الخدمات دور رائد في تطوير واقتراح مجالات جديدة وهي تعالج كافة العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية خارج جسم الإنسان، بالإضافة الى جميع العوامل التي تؤثر على السلوك والتصرفات، ساعية نحو الوقاية من الأمراض وخلق بيئة داعمة للصحة (8).

واليوم، فان البيئة الصحية تعتبر جزءاً أساسياً وهاماً، إن لم تكن أهم مكونات البرامج الصحية للمجتمع. وفي الواقع يعتبر برنامج صحة البيئة أهم عامل في خفض نسبة إنتشار الأمراض والمشاكل الصحية الأخرى. وتشمل صحة البيئة الموضوعات التالية: الماء ووقايته من التلوث وسبل تنظيفه، الهواء ووقايته من الملوثات، التهوية، التدفئة، الاضاءة، تصريف الفضلات، وسائل التطهير المختلفة، الحشرات والقوارض، المساكن الصحية، الضوضاء، الإشعاعات المؤينة، صحة الأغذية، وحدات الخدمات

الصحية في البيئة (9).

الإستدامة البيئية

وُضعت قضية البيئة في إطار التنمية المستدامة منذ مؤتمر ستوكهولم التاريخي في 1972.وتم تبني مفهوم البيئة المستدامة (Environmental sustainability) وتطور تدريجياً، وأصبح له تعريفات عديدة نتناول ثلاثة منها:

1- الاستدامة هي القدرة على تلبية احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتهم الخاصة. هذا التعريف وضعته "اللجنة العالمية للأمم المتحدة المعنية بالبيئة والتنمية (WCED)وقد تم توسيعه على مر السنين ليشمل احتياجات الانسان ورفاهيته، فإمكانية بقاء الإنسان لعدة أجيال قادمة على هذا الكوكب مرتبطة بمدى حفاظه على الطبيعة وموارده.

2- الاستدامة هي القدرة على تحسين نوعية حياة الإنسان أثناء عيشه ضمن القدرة الاستيعابية للأنظمة البيئية الداعمة للأرض. هذا التعريف تم وضعه من قبل "الاتحاد الدولي لصون الطبيعة (IUCN) وقد جاء بسبب أنماط الإنتاج والاستهلاك العالمية التي تدمّر الطبيعة بمعدلات مستمرة ومرتفعة بشكل خطير؛ فزيادة اعتماد الإنسان على الموارد الطبيعية مع زيادة عدد السكان غيّر التوازن الطبيعي للطبيعة، وأثر سلباً على كل من البشر والأنظمة الحية الأخرى، وسبّب انخفاض الموارد الطبيعية الموجودة فيها.

3- الاستدامة هي الحفاظ على التوازن في علاقة الإنسان بعالم الكائنات الحية على الأرض. وضع هذا التعريف عالم البيئة بول هوكين، الذي بيّن أن الإنسان يستخدم موارد الأرض ويدمّرها بشكل يفوق قدرتها على التجدّد(10).

واختصاراً، هي تفاعل مسؤول مع البيئة لتجنب استنزاف أو تدهور الموارد الطبيعية والسماح بجودة بيئية طويلة الأجل(11).وهي تعني كيفية بقاء الانظمة الحيوية متنوعة ومنتجة مع مرور الوقت. والاستدامة بالنسبة للبشر هي القدرة على حفظ نوعية الحياة التي نعيشها على المدى الطويل وهذا بدوره يعتمد على حفظ العالم الطبيعي والاستخدام المسؤول للموارد الطبيعية (12). وتساعد ممارسة الاستدامة البيئية على ضمان تلبية احتياجات سكان اليوم دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتهم (13).

وإرتباطاً بذلك، تعتبر حماية البيئة هي الدعامة الأساسية للاستدامة وللعديد من الشواغل الرئيسية لمستقبل البشرية. فهي تحدد كيف يجب أن ندرس ونحمي النظم البيئية، ونوعية الهواء، وسلامة واستدامة مواردنا، والتركيز على العناصر التي تضع ضغوطاً على البيئة، كما أنها تتعلق بكيفية توظيف التكنولوجيا الحديثة لخدمة مستقبل أكثر خضرة للجميع.

ولذا، دعت "وكالة حماية البيئة"(EPA) الى إدراك أن تطوير التكنولوجيا والتكنولوجيا الحيوية هو مفتاح الاستدامة البيئية ولحماية بيئة المستقبل من الأضرار المحتملة التي يمكن أن تسببها التطورات التكنولوجية (14).

وليس بعيداً عن ذلك جاء إعلان الإمارات تسمية سنة 2023 "عام الاستدامة"، وإنطلاقه تحت شعار "اليوم للغد" من خلال مبادراته وفعالياته وأنشطته المتنوعة لتسليط الضوء على تراثها الغني في مجال الممارسات المستدامة، ولنشر الوعي حول قضايا الاستدامة البيئية وتشجيع المشاركة المجتمعية في تحقيق استدامة التنمية ودعم الاستراتيجيات الوطنية في هذا المجال نحو بناء مستقبلٍ أكثر رخاءً وازدهاراً .

ويكتسب "عام الاستدامة" أهمية خاصة بإعتباره عام إستضافة الإمارات لأكبر حدث دولي في مجال العمل المناخي والبيئي، مؤتمر "COP 28"في تشرن الثاني 2023 (15).

بيئة صحية ومستدامة.. مجتمع سليم

تؤكد المعطيات العلمية يومياً الصلة الوثيقة بين الصحة العامة والعوامل البيئية. وكشفت الوكالات الدولية المتخصصة مسؤولية العوامل البيئية الضارة عن نحو ربع مجموع الوفيات السنوية في العالم، والتي يمكن تجنبها. وحذرت المديرة التنفيذية لمنظمة الصحة العالمية الدكتورة مارغريت تشان:" إذا لم تتخذ البلدان إجراءات لجعل البيئات صحية، حيث يعيش الناس ويعملون، فإن الملايين سيمرضون ويلقون حتفهم في سن مبكرة للغاية".

الى هذا، أملى تنامي المخاطر البيئية ضرورة

وضع وتنفيذ استراتيجيات تحد من عبء الأمراض ذات العلاقة بالبيئة. فدعت منظمة الصحة العالمية في بيان لها عام 2016 الى إعتماد التدابير ذات المردودية التي يمكن للبلدان اتخاذها لعكس الاتجاه التصاعدي للأمراض وحالات الوفاة المرتبطة بالبيئة. وتشمل هذه التدابير تقليص استخدام الوقود الصلب لأغراض الطهي، وتعزيز إتاحة تكنولوجيات الطاقة منخفضة الكربون.

وإستشهدت منظمة الصحة العالمية باستراتيجيات أثبتت فعاليتها لتحسين البيئة والوقاية من الأمراض. فعلى سبيل المثال، ان استخدام تقنيات أنظف ووقود أنظف للطهي والتدفئة والإضاءة يقلل التهابات الجهاز التنفسي الحادة، والأمراض التنفسية المزمنة، وأمراض القلب والأوعية الدموية، والحروق. كما أن أمراض الإسهال ستقل كثيراً من خلال زيادة فرص الحصول على المياه المأمونة الصالحة للشرب ونظم الصرف الصحي الملائمة وتعزيز غسل اليدين. ومن شأن تحسين وسائط المواصلات الحضرية والتخطيط الحضري وبناء مساكن ملائمة تحقق الكفاءة في استخدام الطاقة، تقليل الأمراض المرتبطة بتلوث الهواء إضافة إلى تعزيز النشاط البدني الصحي.

وفي الدورة الثالثة لـ "جمعية الأمم المتحدة للبيئة"، أعرب وزراء البيئة عن التزامهم بالعمل من أجل كوكب خالٍ من التلوث من أجل صحة ورفاهية شعوبهم وبيئتهم. وكمتابعة لذلك، وضع برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP خطة تنفيذ "نحو كوكب خالٍ من التلوث"، رحبت بها الجمعية في دورتها الرابعة في اذار/ مارس 2019 من خلال القرار 4/21

وفي إطار "مبادرة المدن الصحية"، شجعت منظمة الصحة العالمية الحكومات الوطنية والمحلية على إدماج قضايا الصحة في جميع جوانب السياسة العامة. وأعلنت مديرة إدارة الصحة العمومية والمحددات البيئية والاجتماعية للصحة الدكتورة ماريا نيرا: "هناك حاجة ملحة للاستثمار في استراتيجيات تهدف إلى الحد من المخاطر البيئية في مدننا ومنازلنا وأماكن عملنا. ويمكن لهذه الاستثمارات أن تخفض كثيراً ارتفاع عبء أمراض القلب والأوعية الدموية والأمراض التنفسية والسرطانية على نطاق العالم، وتؤدي إلى تحقيق وفورات فورية في تكاليف الرعاية الصحية".

ثمرة جهود مضنية طويلة ومتواصلة

لم يكن تبلور فكرة الحق في البيئة الصحية والإقرار القانوني لها وليد الصدفة، وإنما ارتبط بمسار شاق، طويل، ومتواصل من النضال الدولي، ومن التحولات والتطورات في موقف المجتمعات الإنسانية، ووعيها بحيوية البعد البيئي ضمن مختلف مناحي الحياة العامة المشتركة فيها.

وكانت بداية المسار الحقيقية هي مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي إنعقد في ستوكهولم عام 1972، وأنهى أعماله بإعلان تاريخي، كان الأول الذي وضع قضايا البيئة على واجهة الإهتمامات الدولية الساخنة، وأسس لبداية حوار بين الدول الصناعية والدول النامية بشأن الترابط بين النمو الاقتصادي ورفاهية الشعوب وبين تلوث الهواء والتربة والماء والمحيطات. وأعلنت الدول الأعضاء في ذلك الحين "ينبغي ان يتمتع الناس بحق أساسي لهم: بيئة ذات جودة تسمح لهم بالتنعم بالحياة بكرامة ورفاهية". ودعت إلى العمل المشترك الملموس بين الدول الأعضاء، مثلما دعت مجلس حقوق الإنسان والجمعية العامة للأمم المتحدة للتحرك في هذا المضمار.

بيد ان هذا الحق الهام لم يتم الاعتراف به دولياً طيلة عقود مضت. لكن حماة البيئة واصلوا مسيرتهم النضالية المثابرة، وأثمرت عن تبني "مجلس حقوق الإنسان" التابع للأمم المتحدة في قراره المرقم 10/19، في 22/3/2012، تعيين خبير مستقل يُعنى بمسألة التزامات حقوق الإنسان المتعلقة بالتمتع ببيئة امنة ونظيفة وصحية ومستدامة، وتكون من ضمن واجباته إجراء دراسة بشأن إلتزامات حقوق الإنسان، بما في ذلك الإلتزامات بعدم التمييز فيما يتعلق بضمان التمتع ببيئة امنة ونظيفة وصحية ومستدامة.

وإستكمالاً لهذه الخطوة، نص قرار المجلس رقم 13/48 في 10/8/ 2021: أن التمتع ببيئة نظيفة وصحية ومستدامة يعتبر حقا من حقوق الإنسان. ودعا دول العالم إلى العمل معا ومع شركاء آخرين لتنفيذ هذا الحق المعترف به حديثا.

وحث الجمعية العامة للأمم المتحدة على تبني الموضوع وإتخاذ قرار مماثل.
من جهته، أوصى "مؤتمر ستوكهولم +50" في حزيران 2022، بأن "تعترف الدول بالحق في بيئة امنة ونظيفة وصحية ومستدامة، وتنفيذ ذلك".
وبفضل الدور المشهود والفعال لعلماء وأكاديميين وباحثين ومسؤولين إداريين ومنظمات مجتمع مدني حريصة، تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 28/7/2022، قرارها التاريخي، الذي إعتبر الوصول إلى بيئة امنة ونظيفة وصحية ومستدامة هو حق عالمي من حقوق الإنسان الأساسية. ودعا القرار، الذي جاء إستجابة لقرار مجلس حقوق الإنسان المذكور، كافة الدول والمؤسسات والمنظمات الدولية والشركات التجارية إلى تكثيف الجهود لضمان بيئة صحية للجميع.
وقد رحب به الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريش، وقال إنه يبرهن على إمكانية أن تتحد الدول الأعضاء في النضال الجماعي ضد أزمة الكوكب الثلاثية المتمثلة في التلوث وتغير المناخ وفقدان التنوع البيولوجي. وإنه سيساعد في الحد من المظالم البيئية، وسد فجوات الحماية لصالح الناس والمعرضين للخطر في الأوضاع الهشة، على وجه الخصوص، بمن فيهم المدافعون عن حقوق الإنسان البيئية، والأطفال، والشباب، والنساء، والشعوب الأصلية. وسيساعد الدول أيضا على تسريع تنفيذ التزاماتها وتعهداتها المتعلقة بالبيئة وحقوق الإنسان.
وحث غوتيريش دول العالم على جعل هذا الحق المعترف به حديثا حقيقة للجميع حيثما وجدوا. من جهتها دعت المفوضة السامية لحقوق الإنسان، ميشيل باشليت الدول الأعضاء إلى اتخاذ إجراءات جريئة "لضمان أن يكون هذا القرار بمثابة نقطة انطلاق للضغط من أجل سياسات اقتصادية واجتماعية وبيئية تحويلية من شأنها حماية الناس والطبيعة". واعتبر مقرر الأمم المتحدة الخاص المعني بحقوق الإنسان والبيئة ديفيد بويد إن هذا القرار سيغير طبيعة القانون الدولي لحقوق الإنسان نفسه. وقال إن الحكومات قطعت وعودا بتنظيف البيئة والتصدي لحالة الطوارئ المناخية لعقود من الزمن، لكن امتلاك الحق في بيئة صحية يغير منظور الناس من "استجداء" الحكومات إلى مطالبتها بالتصرف.
ووفقا لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، فإن الاعتراف بالحق في بيئة صحية ومستدامة على المستوى العالمي سيدعم الجهود المبذولة لمعالجة الأزمات البيئية بطريقة أكثر تنسيقا وفعالية وغير تمييزية، ويساعد في تحقيق أهداف التنمية المستدامة، وتوفير حماية أقوى للحقوق والأشخاص الذين يدافعون عن البيئة، ويساعد في إنشاء عالم يمكن للناس فيه العيش في انسجام مع الطبيعة.

الخلاصة

تناولت ورقتنا الصحة والبيئة وحقوق الإنسان بوصفها إشكاليات هامة وحيوية في حياة الإنسان، مترابطة وثيق الإرتباط. أوضحت حيثياته، ودللت عليه بأمثلة حية قائمة لليوم. وتؤكد الحياة بإضطراد الأرتباط الوثيق بين حق الإنسان في الحياة وحقه في العيش في بيئة نظيفة، سليمة، ومتوازنة. ومثل هذه البيئة هي خير ضمانة لتعزيز صحة الانسان وحمايتها، وهي كفيلة بدرء العوامل البيئية الضارة، كالتلوث البيئي وما يسببه من إنتشار للأمراض القاتلة.. أما العيش في بيئة غير نظيفة، غير سليمة، وغير متوازنة، فيُعدُ إنتهاكا لحق الإنسان في الحياة، ويُعرضها للخطر. لقد قطع البيئيون مسيرة طويلة وشاقة، تكللت بإعتراف صكوك حقوق الإنسان، والصكوك البيئية، بالصلة بين حقوق الإنسان والبيئة. والاعتراف بالأبعاد البيئية التي تنطوي عليها حقوق الإنسان في الحياة والغذاء والصحة والسكن والتملك والحياة الخاصة والحياة الأسرية، في جملة حقوق أخرى. وإعتُبار أي استراتيجيات بيئية لا تأخذ منظور الصحة بعين الاعتبار مبتورة، وكذلك الاستراتيجيات الصحية التي لا تأخذ المنظور البيئي بعين الاعتبار.
بصدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 28/7/2022 بالإعتراف بالحق ببيئة امنة صحية ومستدامة، وهو القرار التأريخي الذي إستكمل حقوق الإنسان الأساسية، تحقق أكبر نصر لحماة البيئة والمدافعين عن حقوق الإنسان في العالم.ما أوردناه، يؤكد ان الحق في البيئة الآمنة والصحية والمستدامة يعد ضرورة، ومكملا لإعمال حقوق الإنسان الأخرى، بما فيها الحق في الحياة

والصحة والغذاء والمأوى والمستوى المعيشي اللائق. ومن هنا، ينبغي أن يتوفر لكل فرد العيش في بيئة تفي بمتطلبات صحته ورفاهيته. ويتعين على الدول اتخاذ كافة التدابير والإجراءات اللازمة لوضع الأطر المناسبة لتوفير كافة المقوّمات الضرورية لبيئة صحية ومستدامة، وكذلك التعاون فيما بينها من أجل معالجة الآثار البيئية العابرة للحدود، مثل تغيرّ المناخ والتلوث بالسموم.

بيد ان ما نشهده اليوم من إنجازات باهرة حققتها الدول المتحضرة في مجالات الصحة والبيئة والتنمية المستدامة، لا نشهده في دول أخرى، حيث ما تزال العديد من الدول النامية والفقيرة يعاني مواطنوها من تهديدات بيئية وصحية خطيرة، يموت من جرائها سنوياً عشرات الآلاف. ومن بين هذه الدول من تحكمها أحزاب فاسدة ومليشيات متسلطة لا تعترف لمواطنيها بحقوق الإنسان الأساسية، بل وبعضها تدوس عليها يومياً .العراق، للأسف، من ضمن هذه الدول، حيث عاثت فيه الطغمة الحاكمة فساداً وخراباً، طيلة عقدين، ونهبت ثرواته، وأفقرت شعبه وأذلته، وسببت انهياراً بيئياً وصحياً فضيعاً، وأوصلته الى أدنى مستوى في الشرق الأوسط. ونتيجة لسوء إدارتها وفشلها وإنعدام المسؤولية والضمير، حل العراق في أسفل قائمة الدول المهتمة بالبيئة والصحة وحقوق الإنسان.

فلا بد للمجتمع الدولي من إيجاد مخرج مقبول دولياً للضغط في مثل هذه الحالات على الأنظمة المتسلطة والمستهترة للانصياع لقرارات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة المتعلقة بالصحة والبيئة وبقية حقوق الإنسان الأساسية.

* أكاديمي وباحث في الصحة والبيئة

ستوكهولم، كانون الثاني 2023

الهوامش

1-World Health Organization ,Constitution of the World Health Organization, Basic Documents, Forty-fifth edition, Supplement, October 2006.
2- Horizon Foundation for Development , 5 Oktober 2022.
3- Environment, From the free encyclopedia
4- رانيا المصري، "الإعتداء على البيئة في العراق"، المستقبل العربي، العدد 259، أيلول 2000
5- مروان يوسف صباغ، البيئة وحقوق الإنسان، كومبيو نشر للدراسات والاعلام والنشر، 1992، ص 23
6- كاظم المقدادي، التلوث البيئي وتداعياته الصحية والإجتماعية في العراق، بحث قُدم في المؤتمر الدولي حول البيئة العراقية، الذي عقد في جامعة لندن في 26 / 11 / 2006
7- محمود مهدي بربوتي، "الصحة البيئية"، مجلة البيئة والحياة، العدد 9، تشرين الأول 2006
8- صحية بيئية، من "وكيبيديا" الموسوعة الحرة.
9- حكمت فريحات وآخرون، مبادئ في الصحة العامة، عمان، دار اليازوري العلمية، 2002، ص 101-102
10-Marni Evans, "What Is Environmental Sustainability ? ",The Balance, 11 Aug 2019 .
11-Stydy.com, Environmental Sustainability: Definition and Application https://study.com/academy/lesson/environmental-sustainability-definition-and-application.html
12- استدامة، من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
13-Study.com, Environmental Sustainability: Definition and Application https://study.com/academy/lesson/environmental-sustainability-definition-and-application.html
14- Michiel J.F. Van Pelt, at al,. Environmental Sustain-ability: Issues of definition and measurement, International Journal of Environment and Pollution, vol. 5, no. 2-3, 4, Aug. 2014.
15- الإمارات تسمّي 2023 "عام الاستدامة"، الشرق الأوسط، 23/1/2023

الإعلام الغربي والمعايير الأخلاقية:
الأزمة الأوكرانية إنموذجاً

د. فاخر جاسم

" إن ثمة طريقا واحدا للإعلام الصحيح وهو الشجاعة وليس الاستمرار في إغراق الناس بوحل الأكاذيب"

الصحفي الأمريكي الشهير "بوب وورد" لتتهم بافشاء أسراء فضيحة ووترغيت

يحتل الإعلام في الظروف الراهنة، أهمية كبيرة، نظرا لدوره في تكوين الرأي العام وتشكيل موقف الفرد من الأحداث السياسية والثقافية والإجتماعية، لذلك نلاحظ صراعاً متعدد الأشكال من قبل قوى الهمينة الدولية، من أجل السيطرة عليه وتوجيهه، بما يخدم مصالحها الخاصة بعيداً عن المعايير الأخلاقية.تهدف هذه الدراسة إلى القاء الضوء على العلاقة بين سيطرة كبار رجال الأعمال على وسائل الإعلام والابتعاد عن المعايير الاخلاقية في العمل الإعلامي من خلال محاور ثلاث، الأول، الإعلام الحر والمعايير الاخلاقية، والثاني، الإعلام الغربي والمعايير الأخلاقية في ظل الليبرالية الجديدة، والثالث، موقف الإعلام الغربي خلال الأزمة الأوكرانية والمعايير الأخلاقية.

المحور الاول:

الإعلام الحر والمعايير الاخلاقية

في البداية أود أن أشير إلى أن مفهوم المعايير الأخلاقية التي ترد في هذه الدراسة، تعني الاعراف والقواعد غير المكتوبة، تنشأ وتتطور مع النشاط الاجتماعي للأفراد، وتحدد معايير السلوك للفرد دون وجود قواعد قانونية تضبط السلوك الإنساني، تقوم على التعاون والمساعدة الاجتماعية والنزاهة والاخلاص بالعمل المهني والشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وهي أشمل من القواعد القانونية التي تنظم سلوك الفرد مع أفراد المجتمع ومؤسساته ويعاقب القانون على عدم الالتزام بها وخرقها لأنها " المعايير الاخلاقية" تشمل واجب الإنسان تجاه غيره ومحيطة الاجتماعي والطبيعي وتوجه نواياه وأهدافه. يمكن تكثيف ما تقدم بان المعايير الاخلاقية هي ما يضبط الضمير الإنساني ذاتياً والذي لا يمكن ضبطه بقانون معين.

وفيما يتعلق المعايير الاخلاقية في العمل الإعلامي فأنها تفترض التركيز على تناول الاخبار والحوادث التي تهتم بحياة الناس وتوفير أفضل الظروف لتطويرها نحو الأفضل؛ وإيلاء الاهتمام بالمسؤولية الاجتماعية؛ وتوفير الظروف المناسبة لحق الأطراف المختلفة للتعبير عن وجهة نظرها بحرية.

ولتحقيق المهام السابقة ينبغي على وسائل الإعلام الإلتزام بمجموعة من القواعد:

1- التناول الحريص لمصادر المعلومات

2- حماية الشرف والكرامة وعدم انتهاك الحياة الشخصية.

3- عدم تلفيق المعلومات،

4- المسؤولية الاجتماعية.

وقد حدد الباحث البريطاني (ماكويل) المعايير الأساسية لوسائل الإعلام التي ينبغي أن تلتزم بها في أثناء نقلها لقضايا المجتمع وهذه المعايير:

1- الالتزام بالمعايير المهنية في حال تغطيتها للأحداث، والتحقق من المعلومات مثل (الدقة، الحقيقة، الموضوعية والتوازن).

2- تجنب ما يمكن أن يؤدي إلى الجريمة والعنف والفوضى الاجتماعية.

3- الالتزام بتعدد المصادر وتنوع الآراء والالتزام بحق الرد والتنوع في المضمون بما يتيح فرصة الاختيار، وتجعل الفرد قادرا على تكوين آرائه واتخاذ قراراته بناء على معلومات كافية ووجهات نظر متنوعة.

4- اهتمام الوسيلة بالعمل على منع التشويه والتحريف وزيادة الالتزام بالموضوعية والعدالة في تغطية النزاعات العرقية (1).

بناء على ما تقدم، أشير إلى أن المعايير الأخلاقية، بشكل عام، يجري عليها تطور لتكون أكثر وضوحاً سواء من حيث قيمها الإنسانية أو من حيث الالتزام بها من قبل الأفراد لدى قيامهم بالأنشطة المختلفة. وفيما ما يخص العمل الإعلامي، يشكل الالتزام بالمعايير الأخلاقية، أحد أهم متطلبات الاعلام الحر في الظروف المعاصرة لدوره الرئيس في تشكيل الرأي العام في المجتمع، بكون وسائل الاتصال المختلفة أصبحت، عادة حياتية وجزءا هاما من علاقة الإنسان اليومية بالعالم المحيط به. اضافة لذلك سهولة تفاعل الناس مع المعلومات التي تنقلها، بدون التفحص والتدقيق والنقد، فيصبح من السهولة تضليل المواطنين واتخاذ مواقف تجاه الأحداث بناء على معلومات مفبركة لا تستند على وقائع حقيقية.

وفيما يخص علاقة الإعلام بالمعايير الإخلاقية، أشير إلى أن الإعلام الحر الذي يعتبر أحد اهم انجازات الليبرالية خلال فترة صعودها التقدمي، تطور نتيجة التزامه بالمعايير الإخلاقية، بحيث أصبح وسيلة رئيسية بيد الشعوب لفضح الممارسات الاستبدادية التي تمارسها الأنظمة الدكتاتورية، وكسب تعاطف الرأي العام وتحريك نشاطه للضغط على الحكومات لتلبية حقوق المواطنين. كما ان الاعلام الحر لعب دورا بالغ الأهمية للضغط على الحكومات الغربية التي مارست العدوان العسكري والإرهاب المتعدد الأشكال ضد البلدان التي تحاول أن تنتهج سياسة وطنية مستقلة تخدم شعوبها وتكافح الهيمنة الغربية على ثرواتها وقرارها السياسي المستقل، وقد تجسد ذلك على سبيل المثال، بالضغط على الولايات المتحدة، لايقاف حربها ضد الشعب الفيتنامي وشعوب الهند الصينية في سبعينيات القرن الماضي، اضافة إلى انهاء بقايا السياسة

الاستعمارية للدول الاوربية في أفريقيا، وكذلك انهاء سياسة التمييز العنصري في زيمبـاوي "روديسيا الجنوبية" وجنوب أفريقيا ومناصرة قضية الشعب الفلسطيني في نضاله لنيل حقوقه المشروعة وكذلك الوقوف مع الشعب الكوبي ضد الحصار والعقوبات الأمريكية التي فرضت عليه بعد انتصار الثورة الكوبية 1961. كما لعب الإعلام الحر دوراً مؤثراً في اسناد كفاح حركات التحرر الوطني في كافة بقاع العالم.

لقد أفرز تطور الإعلام الحر جملة من المعايير الاخلاقية الرئيسية التي تلتزم بها وسائل في تغطيتها للاحداث منها: أولا، الحقيقة والحيادية في عرض الأحداث، والثانية، الموضوعية في التحليل، والثالثة، نقل وجهات النظر المتعددة للمتلقي. إن الالتزام بهذه المعايير جعل وسائل الاعلام تبتعد عن التضليل والدقة في نشر المعلومات التي يحصل عليها الصحفي دون تزييف واحترام حقوق الإنسان والدفاع عنها ضد الانتهاكات التي تتعرض لها. وقد جرى تثبيت هذه المبادئ المهنية في الأنظمة التي تحكم عمل منظمات الإعلاميين في مختلف دول العالم، بحيث أصبح عدم الالتزام بالمعايير الاخلاقية في العمل الإعلامي يؤدي إلى المساءلة القانونية سواء للصحفي او للمؤسسة الإعلامية. لقد أدى هذا التطور في وظيفة وسائل الإعلام في نشر المعلومات الصحيحة عن الأحداث، إلى أن تثبت كثرة من الدول المتطورة في دساتيرها حرية الإعلام في الحصول على المعلومات، بعد تعاظم أهمية وسائل الإعلام في التأثير على حركة المجتمع بما تملكه من تأثير ثقافي وسياسي واقتصادي، وبهذا أصبح يطلق على وسائل الإعلام "سلطة رابعة" بعد ان أصحبت وسائل الإعلام تعتمد في عملها على تقديم المعلومات الصحيحة والحقائق كما هي، وعرض الأخبار الصادقة بأمانة وموضوعية، والأفكار المتعددة والحوار الحر المفتوح، والالتزام بتقديم المصادر التي تستند عليها، وترك الحرية للمتلقي بالإقناع وتكوين الرأي واتخاذ المواقف من الاحداث والأفكار المعروضة.

لقد اكتسب الإعلام الحر هذه المكانة بين السلطات نتيجة القيام بمهامه في مراقبة عمل السلطات وكيفية ممارستها لوظائفها وكشف الأخطاء والسلبيات وتقديم الحلول لمعالجة السلبيات، اضافة لنقد الظواهر الاجتماعية السلبية والدفاع عن حقوق المواطنين، الامر الذي جعل من الإعلام الحر قادرا على تكوين رأي عام ضاغط على السلطات الحاكمة لتعديل سلوكها والقيام بالوظائف الموكلة لها في تحقيق مصالح المواطنين. بمعنى إن المعايير الأخلاقية التي اكتسبتها وسائل الإعلام الليبرالية، اعتمدت على مصداقيتها في نقل الأحداث وصدقية المصادر، بحيث أصبحت وسائل الأعلام مصادر أولية للمعلومات ذات قدر كبير من المصداقية.

ورغم تلك النجاحات، إلا انه عادة ما يجري خرقها أو الالتفاف عليها، بعد ان أصبحت وسائل الإعلام أداة في الصراع الإيديولوجي والسياسي بين القوى المتنفذة في الساحة الدولية للتعبير عن مصالحها الخاصة. ومما يسهل عملية الالتفاف على المعايير الاخلاقية للإعلام الحر، احتكارها من قبل قلة من كبار الرأسماليين، وتدخل المالكين في إدارتها وتوجيهها، خاصة تلك التي تمتلك تأثيراً كبيراً، كوسائل الاتصال الاجتماعي (2).

إن سهولة الوصول إلى وسائل التواصل الإعلامي الذي ينتج عنه تدفق هائل من المعلومات والاخبار التي يصعب التدقيق من مصداقيتها، وهيمنة الاحتكارات الإعلامية على شركات صناعة الأخبار ووسائل البث الفضائي خلقت واقعاً جديداً، أدى إلى محاصرة الإعلام الحر وصعوبة تدفق المعلومات التي ينشرها إلى المواطنين. إن هذا الواقع يؤكد ضرورة الالتزام بالمعايير الأخلاقية في النشاط الإعلامي الحر.

المحور الثاني:

الإعلام الغربي والمعايير الأخلاقية في ظل الليبرالية الجديدة

أدى الكساد الكبير خلال 1928 - 1929 إلى نشوء أزمة اقتصادية واجتماعية نتج عنها زيادة مستوى الفقر والحرمان لفئات كبيرة من السكان نتيجة الركود الاقتصادي والتضخم وارتفاع تكاليف المعيشة والبطالة الواسعة، الأمر الذي دعا النخب الثقافية والفكرية والسياسية للتفكير بمعالجة نتائج الأزمة الاقتصادية والدعوة لتدخل الدولة

لاعادة التوازن في مستوى الدخل والتخفيف من آثار الأزمة على العمال والكادحين والفئات الوسطى، فجرى تبني النظرية الاقتصادية الكينزية التي تدعو إلى ضرورة تدخل الدولة لضبط حركة السوق ومراقبة عمل الشركات والحد من سياستها الخاطئة التي قد تسبب ضررا للاقتصاد والمجتمع. إضافة إلى إدارة الدولة المباشرة للخدمات الاجتماعية الرئيسية في قطاعات الصحة والاتصالات والمواصلات والتعليم. جرى التخلي عن المعايير الاقتصادية والاجتماعية التي تميزت فيها الليبرالية الكلاسيكية وتطبيق أفكار النظرية الاقتصادية الكينزية في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الدول الرأسمالية الأوربية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام 1945 حتى أواسط السبعينيات من القرن الماضي. ونتج عن ذلك، في المجال الاجتماعي، ظهور دولة الرفاه الاجتماعي في العديد من الدول الرأسمالية الغربية، وإزدهرت بشكل خاص في دول شمال أوربا، تحت تأثير قوة المنظمات العمالية والحركات الاجتماعية والسياسية المطالبة بالعدالة والمساواة والمنافسة مع المعسكر الاشتراكي. لقد عارض التيار الليبرالي المحافظ تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي وقدم مفكروه العديد من الذرائع، جوهرها يقوم على ذريعة أن تدخل الدولة يؤدي إلى الحد من حرية نشاط المستثمرين، واستطاع هذا التيار من التأثير على النخب الحاكمة في الولايات المتحدة وبريطانيا، التي قامت بتطبيق الأفكار التي طرحها أبرز منظريه، البروفيسور فريدريك فون هايك وتلميذه ميلتون فريدمان من جامعة شيكاغو (3) ، اللذان طالبا بالعودة إلى الرأسمالية الكلاسيكية والتخلي عن الكينزية، بنقل مسؤولية تنظيم الاقتصاد من الدولة إلى الشركات الكبرى وخصخصة القطاعات الحيوية التي تملكها وتديرها الدولة ونقل ملكيتها إلى القطاع الخاص وتخلي الدولة عن سياسة الرفاه الاجتماعي وتقليل الإنفاق الحكومي لتعزيز دور القطاع الخاص (4).

لجأت الليبرالية الجديدة ونخبها الحاكمة إلى الإعلام ليقوم بمهمة التضليل على نهجها الساعي للتخلي عن سياسة الرفاه الاجتماعي ودور الدولة في تحقيقه والترويج لسياستها الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الخالية من المعايير الاخلاقية، التي تقوم على حرية الأسواق وحرية انتقال البضائع والخادمات ورأسمال، على الصعيدين الوطني والدولي، بدون رقابة من المجتمع، اضافة إلى استخدام القوة لفرض سياستها في العالم. لقد جوبه النهج السابق بمعارضة واسعة من قبل منظمات المجتمع المدني ونقابات العمال والاحزاب الإشتراكية والديمقراطية، لذلك ازدادت حاجة النخب الحاكمة إلى وسائل الإعلام لتقوم بمهمة إدارة الرأي العام لتحقيق هدفين، الأول، اضعاف قوى المعارضة لنهج الليبرالية الجديدة، والثاني، رضوخ الرأي العام لسياسة السلطات الحاكمة، على الرغم من عدم قناعته، من خلال خلق مخاوف وهمية، التهديد الشيوعي، الخطر الإسلامي، الإرهاب الخارجي، التحدي الصيني، التهديد الروسي بعد شن الحرب ضد أوكرانيا (5). وهذه الأهداف لا تتحقق بدون السيطرة المباشرة على وسائل الإعلام عن طريق توسيع الاستثمارات المالية، فقام رجال الأعمال المرتبطين بالنخب الليبرالية الحاكمة بشراء عدد من وسائل الإعلام الكبري في عدد من البلدان الرأسمالية، فأصبح الإعلام المعولم يمثل قوة اقتصادية كبيرة حيث "بلغت استثمارات صناعة المعلومات تريليوني دولار عام 1995، وفي نهاية القرن (عام 2000) بلغت 3 تريليونات دولار، (المبلغ يخص تراكم مجموع قيمة الاستثمارات خلال الفترة التي سبقت هذا العام) بعد أن كانت هذه الاستثمارات لا تتجاوز 350 مليار دولار عام 1980" (6). وخلال الفترة اللاحقة شهدت الاستثمارات قفزة كبيرة، فقد زادت استثمارات الإعلام والإعلان على مستوى العالم بنسبة 5.6 بالمئة في 2020، مقارنة بالعام السابق، حيث وصلت الاستثمارات إلى 605 مليار دولار (7). لقد ضمنت هذه الاستثمارات سيطرة الطغم المالية المباشرة على وسائل الإعلام، الصحف الكبرى واهم الشبكات الإعلامية ووكالات الأنباء، وتوجيهها لخدمة مصالحها (8). كذلك تمت السيطرة غير المباشرة، على وسائل الإعلام، من خلال تحكم الشركات الكبرى بمصادر التمويل الذي يأتي من الاعلانات التي من المستحيل أن

تستطيع وسائل الإعلام الاستمرار بالعمل بدونها، وهذا يعني أنه من غير الممكن أن تسمح الشركات الكبرى بنشر توجهات تخالف مصالحها، وبالتالي ازدهار وسائل الإعلام الصفراء التي تعتمد على الإعلان كمصدر اقتصادي رئيسي (9). ولم تسلم الصحف المستقلة من الاحتواء من قبل الشركات الإعلامية الكبرى ورجال الأعمال؛ فصحيفة Liberation الفرنسية ذات الاتجاه اليساري تخضع حاليا لمجموعة روتشيلد المصرفية وصحيفة Le Figaro الفرنسية اليومية أصبحت مملوكة لمجموعة داسو الصناعية (10). وكذلك صحيفة الاندبندنت اشتراها الملياردير الروسي ألكسندر ليبيديف (11). طبعا، سيطرة كبار الرأسماليين على وسائل الإعلام لم تقتصر على الدول الغربية؛ بل شمل الدول الرأسمالية في أسيا، على سبيل المثال، استحواذ مجموعة "أداني غروب" على شبكة "نيودلهي تليفيجن" الإعلامية البارزة التي يمتلكها الملياردير غواتام أداني، الذي يعد ثالث أغنى شخص في العالم (12).

تكثيفاً، أصبحت صناعة الرأي العام من المهام الرئيسية لوسائل الإعلام في عصر العولمة "بمعنى جعل الرأي العام يوافق على أمور لا يرغبها بالأساس عن طريق استخدام وسائل دعائية" (13)، إن هذا التوجه من وسائل الإعلام يتعارض مع أهم المبادئ الاخلاقية التي يستند عليها الإعلام الحر، في عرض المعطيات للرأي العام عن الأحداث وتترك له حرية تكوين الموقف.

بعض مظاهر تخلي الإعلام الغربي عن المعايير الأخلاقية

- انساق الإعلام الغربي، في ظل نظام القطبية الواحدة، وراء النظريات والأفكار المتعصبة لمفكري الليبرالية الجديدة، حول آفاق التطور العالمي، من خلال التناغم "أي الإعلام الغربي" مع نظرية نهاية التاريخ، التي أعلنت انتصار الحضارة الغربية ونموذجها السياسي الذي يجب أن يسود في كل مكان، سواء بالفكر والسياسة أم بالقوة اذا تطلب الامر وبالتالي اعطاء لكل ما غربي صبغة عالمية. والترويج لنظرية " الفوضى الخلاقة" كطريق لتحقيق الديمقراطية من خلال تفكيك الدول الوطنية واعادة بنائها بشكل يخدم الهيمنة الغربية. وفيما يخص تنوع الثقافات لدى الشعوب، ساهم الإعلام المعولم في نشر مفاهيم الكراهية والحقد، بدل المحبة والتسامح والسلام وتعميم المعرفة والمعايير الاجتماعية والثقافية الإيجابية والتعريف بثقافة الشعوب والتعاون المشترك القائم على التنوع والاعتماد المتبادل لخير البشرية، مستلهما أفكاره من نظرية صراع الحضارات العنصرية، لصومائيل هنتنغتون، التي قسمت العالم إلى ثقافات متصارعة غير قابلة للتعايش المشترك، تتصارع في ما بينها من أجل التفوق، مؤكداً الغلبة في هذا الصراع لصالح الثقافة الغربية.

- لقد أدت سيطرة كبار رجال الأعمال المرتبطين بعلاقات وثيقة بالنخب السياسية الحاكمة في الدول الرأسمالية على وسائل الإعلام، إلى ظهور نوع جديد من وسائل الإعلام الجماهيري، الإعلام التجاري السياسي، الذي يقدم الترفيه المجاني الشيق الممول من كبار رجال الأعمال وبنفس الوقت تسويق سياسة الليبرالية الجديدة من خلال تبني التفسيرات التي تقدمها السلطات الحاكمة حول قضية معينة، خاصة بعد نشوء الإعلام الفضائي، حيث أصبحت الفضائيات أداة للتنشئة السياسية تهدف إلى تخطيط السلوك السياسي والمواقف الاجتماعية والثقافية وبالتالي أصبحت أداة "مثالية في صناعة الثقافة القمعية التي تضمن سيطرة القيم الاجتماعية والاستهلاكية الرأسمالية" (14). إن هذا التحول شكل نهاية الإعلام المستقل، وبالتالي ابتعاده التدريجي عن المعايير الأخلاقية الذي تعمق في ظل نظام القطبية الواحدة.

- تسويق النموذج الأمريكي للديمقراطية، باعتباره المثال الذي ينبغي الاقتداء به من المجتمعات التي تتخلص من السلطات الاستبدادية والتغاضي عن الكوارث التي نتجت عن فرض تطبيقها في بلدان تختلف فيها البيئة الثقافية والاجتماعية كالعراق، على سبيل المثال، الذي جرى فيه تسويق مفهوم ديمقراطية المكونات، الطائفية القومية. كما روجت وسائل الإعلام المعولم لمفهوم مزيف عن الديمقراطية يقوم على اختزالها بجانبها السياسي، واهمال جانبها الاجتماعي الذي يعرقل غيابه قدرة الفئات الاجتماعية الكادحة والفقيرة على التمتع الفعلي

بالديمقراطية، وبالتالي السماح لقلة من المجتمع متمثلة بالأغنياء بإدارة العملية الديمقراطية بما يوفر استمرار سيطرة هذه الفئة على السلطة عبر الشرعية الإنتخابية. هذا جانب ومن جانب آخر نلاحظ ترويج وسائل الإعلام المعولم لدول معينة، باعتبارها نموذجا للديمقراطية، كدولة إسرائيل، على سبيل المثال، بهدف التغطية على إرهاب الدولة الذي تمارسه ضد الشعب الفلسطيني وجيرانها من الدول العربية، بينما يجري تشويه تجارب ديمقراطية لا تطبق النموذج الغربي، كتجربة الصين الشعبية وكوبا وفنزويلا، على سبيل المثال، التي نجحت، رغم بعض النواقص في الجوانب السياسية، في توفير قدر معقول من العدالة الاجتماعية في مجتمعاتها من خلال اعطاء الديمقراطية بعدها الاجتماعي.

- الترويج للأكاذيب التي تطلقها السلطات الرسمية في الدول الرأسمالية، بخصوص الكوارث البيئية والأزمات التي تواجه البشرية. وهنا نذكر مثالا لهذه الأكاذيب عن جائحة كورونا، حيث تم الترويج لأكاذيب الرئيس الأمريكي السابق، دونالد ترمب، حول الجائحة التي بلغت (400) كذبة حسب جريدة الغارديان البريطانية (15). كما تمثل الموقف اللااخلاقي للإعلام الرأسمالي بعدم تسليط الأضواء على كيفية تعامل الدول الرأسمالية اللا إنساني مع الجائحة، الذي اتسم بنظرة وطنية ضيقة بدلاً من التعاون الدولي، إضافة إلى الأنانية بغياب العدالة في توزيع اللقاحات واللوازم الطبية، التي حصلت الدول الغنية على الحصة الأساسية منها، في حين تركت الدول الفقيرة تواجه الجائحة بامكاناتها المحدودة، وحرمان ملايين الناس من تلقي اللقاح. عموما روجت كثرة من وسائل الإعلام المعولم للموقف الإيديولوجي للنخب الحاكمة في الدول الغربية الكبرى من الجائحة، وقد عبر عن ذلك، أنتوني فاوتشي، مدير المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية الأميركي بقوله: تأثرت القرارات المتعلقة بتدابير الصحة العامة مثل ارتداء الأقنعة والتطعيم بلقاحات فعالة وآمنة للغاية، بمعلومات مضللة والآيديولوجيات السياسية (16).

- إخفاء الحقائق عن موقف الرأي العام من قضايا معينة، وبهذا الصدد يشير الفيلسوف الأمريكي نعوم تشومسكي، إلى ان الإعلام الأمريكي لم يشر إلى نتائج الاستفتاءات التي قامت بها مراكز الأبحاث عن أكثر الدول تهديدا للسلام العالمي والتي أظهرت بأن الخطر الأكبر يأتي من الولايات المتحدة (17). كما يجري التعتيم على المعاناة الهائلة للناس في مناطق الصراع كما في فلسطين وسوريا واليمن وشرق افريقيا وغيرها من الدول التي تعرضت لكوارث طبيعية، مقابل ذلك تجري تغطية واسعة للمعاناة الأوكرانية، وقد انتقدت ازدواجية المعايير في الإعلام الغربي، "آمي فيشر، من (منظمة العفو الدولية) بالقول: بأنه من الواضح أنه لا توجد طريقة للاهتمام بهؤلاء اللاجئين الذين "يغلب عليهم السواد"، بخلاف الأوكرانيين الذين يتصدرون عناوين الصحف الرئيسية لمجرد وجوههم البيضاء" (18).

-يركز الإعلام الغربي على النتائج وليس على الأسباب، على سبيل المثال عندما يتطرق إلى الزيادة الهائلة في اعداد اللاجئين والمشردين والنازحين في العالم، لا يتناول الأسباب التي أدت إلى هذه الزيادة، الناتجة عن عدم التكافؤ في العلاقات الاقتصادية بين الدول الغنية والفقيرة، والعقوبات الاقتصادية والغزو الغربي لبعض البلدان، والتدخل الغربي، في الشؤون الداخلية للدول الوطنية، اضافة إلى الاستبداد السياسي. وكذلك في ما يخص تناول ظاهرة الإرهاب، حيث نلاحظ تغطية واسعة للأعمال الارهابية التي تقوم بها المنظمات المتطرفة، في حين يجري التعتيم على الأسباب الموضوعية لنشوء هذه الظاهرة، التي تشترك في كثير منها، مع أسباب زيادة اعداد اللاجئين والمشردين، اضافة إلى أسباب أخرى تتمثل، بنمو اليمين المتطرف في البلدان الغربية، وتوفر بيئة آمنة للعناصر الإرهابية في الدول الغربية، والمساهمة المباشرة في تأسيس المنظمات الإرهابية وتقديم مختلف أشكال الدعم لها (19).

كما ينساق الإعلام الى ادعاءات الموقف العنصري لليمين المتطرف من قضية اللاجئين وتحميلهم مسؤولية البطالة وانتشار الجريمة والعنف في المجتمعات الغربية، في حين يختلف الموقف من اللاجئين الأوكرانيين؛ حيث لاحظنا

نظرة تتسم بالعنصرية، إذ تردد وسائل الإعلام الغربية: "عبارة كيف يحدث ذلك لمواطنين أوروبيين بيض البشرة ويمتلكون سيارات، وليسوا من مواطني الشرق الأوسط أو أصحاب البشرة السمراء؟" (20).

ـ الموقف اللا اخلاقي من المخاطر التي تهدد البشرية نتيجة التغير المناخي كتلوث البيئة ومشاكل التصحر والجفاف والكوارث الطبيعية، والتي أصبحت احد أهم اهتمامات الرأي العام العالمي بفضل تسليط وسائل الإعلام الحر عليها، حيث نلاحظ، في الآونة الأخيرة، ليس تراجع اهتمام الإعلام الغربي بمخاطرها فقط؛ بل عدم انتقاد موقف الدول الغربية ومساعيها لتخريب التعاون العلمي الدولي، حيث تم قطع التعاون العلمي بين الدول الغربية وروسيا، بعد الغزو الروسي لأوكرانيا، والذي لا يمكن الاستغناء عنه، حسب رأي العلماء الغربيين (21).

ـ الموقف من قضية السلام والحرب وسباق التسلح

لقد خاضت البشرية صراعات وحروبا أدت إلى خسائر بشرية ومادية هائلة، إلى أن تمكنت قوى السلام ومن ضمنها الإعلام الحر من التوصل إلى مبدأ التعايش السلمي بين المعسكرين المتصارعين، الإشتراكي والرأسمالي في سبعينيات القرن الماضي، ولكن بعد انهيار المعسكر الإشتراكي أصبح الموقف من قضايا السلام والحرب وسباق التسلح، يحتل أهمية ثانوية من اهتمامات الإعلام المعولم، على الرغم من المخاطر الكبيرة التي تهدد السلام العالمي في ظل نظام القطبية الواحدة. وهذا ما تدلل عليه العديد من المعطيات، منها:

* تراجع دور القطبية الواحدة في حل الأزمات والمخاطر التي تهدد السلام العالمي، نتيجة انتشار الحروب الأهلية في معظم القارات والتي تبلغ (54) نزاعا مستمرة لحد الآن (22).

* زيادة سباق التسلح على المستوى العالمي حوالي 100% خلال العشرين سنة الأخيرة، حيث ارتفع الإنفاق على التسلح من (1.1) ترليون دولار عام 2000 إلى (2.113) ترليون دولار عام 2022، منها 800 مليار إنفاق الولايات المتحدة (23).

* تراجع دور الرأي العام المعارض للحرب واستخدام القوة في العلاقات الدولية

إن سبب ذلك يعود إلى الدور الذي لعبه الإعلام المعولم من خلال الترويج للفكرة التي تزعم بأن الحروب التي تشنها الولايات المتحدة والدول الغربية المتحالفة معها، هدفها درء المخاطر الخارجية والدفاع عن المصالح الوطنية والقيم الغربية، لذلك لم تلاحظ معارضة فعالة من قبل الرأي العام للغزو والتدخل العسكري في عدد من البلدان، من قبل التحالف الغربي، بالمقارنة مع الحرب الفيتنامية على سبيل المثال.

المحور الثالث:

موقف الإعلام الغربي خلال الأزمة الأوكرانية والمعايير الأخلاقية

في البداية أشير إلى أنه ليس هناك مبررات أخلاقية إلى لجوء روسيا إلى الحرب كوسيلة لحل المشاكل بينها وبين أوكرانيا والدول الغربية، باعتبارها حربا بين الدول الرأسمالية من اجل المصالح الخاصة واعادة توزيع مناطق النفوذ بالقوة بين روسيا والدول الغربية.

بعد إندلاع الحرب الروسية الأوكرانية بقليل، ظهر اتجاهان لإنهاء الحرب، الاول، الضغط من أجل إيقاف الحرب عن طريق المفاوضات. والاتجاه الثاني، مواصلة القتال حتى سقوط " آخر أوكراني" وتوقع المواجهة النووية حسب تصريح تشارلز فريمان، السفير الأمريكي السابق في السعودية (24). وكان يبدو ان الاحتمال الأول، قابل للتحقيق، عندما توصل الطرفان الروسي والأوكراني إلى وثيقة قدمها الوفد الأوكراني، في اجتماع وزيري الخارجية الروسي والأوكراني في اسطنبول، بعد أقل من شهر على بداية الحرب، تنص إلى حيادية أوكرانيا مع ضمانات دولية وحل قضية الدونباس من خلال المفاوضات وتأجيل النظر بقضية شبه جزيرة القرم لفترة طويلة وانسحاب القوات الروسية. وقد تخلى الجانب الأوكراني عن مسودة الاتفاق ورفض مواصلة المفاوضات، بطلب من الولايات المتحدة وبريطانيا، مقابل تقديم الدعم العسكري والمالي لأوكرانيا لمواصلة القتال وهزيمة روسيا، وبالتالي السير بالاتجاه الثاني، الذي أدى إلى نتائج كارثية على الوضع الدولي. إن دعم الاحتمال الثاني لتطور الحرب الروسية الأوكرانية من قبل

الولايات المتحدة وأغلب التحالف الأطلسي، يرجع إلى طبيعة النخب الحاكمة التي تسعى لخدمة كبار رجال الأعمال التي تزيد ثرواتهم عبر زيادة الانفاق العسكري ولا يتم تحقيق ذلك إلا عبر تشجيع الحروب، بما يخلق حالة من التوتر على الصعيد الدولي وبالتالي نشوء بيئة تزداد فيها الحاجة إلى المعدات العسكرية، وهذا ما نلاحظه، بشكل خاص، في ظروف الحرب الروسية الأوكرانية حيث بلغت المساعدات المدنية والعسكرية من دول حلف الأطلسي 120 مليار دولار في عام 2022 وتعهدات أولية بقيمة 57.6 مليار دولار لعام 2023 (25) اضافة إلى زيادة كبيرة في الإنفاق العسكري للدول الرئيسية في التحالف الغربي "الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا" (26). من بديهيات المعايير الأخلاقية ان تقوم وسائل الإعلام بتسليط الضوء على أهمية الحل السلمي والأسباب التي تعرقل المفاوضات، وتخلي أوكرانيا عن وثيقة الحل السلمي التي قدمتها؛ وبدلا من هذا التوجه الأخلاقي وقت الأزمات التي تهدد السلم العالمي، تماهى الإعلام المعولم مع الخطاب الرسمي للحكومات الغربية واصبح مروجاً لخطاب الحرب الذي يقوم على تقديم المزيد من الأسلحة من أجل استمرار الحرب، والمساهمة بتدجين المواطنين في الدول غربية، لقبول ما لا يرغبون فيه، من خلال التهويل من الخطر الروسي، بتغطية إعلامية ضخمة لا نجد فيها عبارة واحدة تدعو لتحقيق السلام عبر المفاوضات؛ بل يجري الترويج لفكرة أن استمرار الحرب يؤدي إلى تحقيق النصر على روسيا، متغاضيا عن أن هزيمة دولة نووية بالحرب التقليدية، يزيد من مخاطر احتمالات مواجهة نووية. سنلقي الأضواء على ابتعاد الإعلام المعولم عن المعايير الاخلاقية من خلال المعطيات الآتية:

- تسويق الحرب الروسية الأوكرانية، بأنها حرب ضد الديمقراطية، وليس محاولة إعادة تقسيم النفوذ بالقوة، الذي كان قائماً على التراضي بين روسيا والدول الرأسمالية الغربية. وبهذا الموقف تماهى الإعلام الغربي مع موقف الدول الغربية الذي يعتبر الحرب الروسية في أوكرانيا نزاعاً وجودياً بين الديمقراطية والاستبداد، وتقسيم دول العالم إلى دول استبدادية أو ديمقراطية بناء على موقفها من الحرب، فالدول التي لا ينسجم موقفها مع الموقف الغربي من الحرب وأسبابها، جرى وصفها بالاستبدادية، على الرغم من أن هذه الدول، لم يجر أي تغيير على طبيعة نظامها السياسي وأسلوب ممارسة النخب الحاكمة للسلطة، وكانت توصف من قبل بأنها دول ديمقراطية.

- أهملت وسائل الإعلام الغربية، مناقشة الأسباب الموضوعية للأزمة الأوكرانية، التي تتعلق بعدم مصداقية الغرب بايفاء تعهداته بعدم توسع حلف الاطلسي شرقاً باتجاه الحدود الروسية، حسب اتفاقية بودابست 1996، وتنفيذ اتفاقية مينسك لحل قضية إقليم الدونباس (27). إن معرفة هذه الحقائق تساعد على خلق رأي عام متوازن رافضا للحرب وبنفس الوقت يضغط على السلطات الحاكمة لايقافها عبر المفاوضات للتوصل إلى تسوية سليمة دائمة تاخذ بنظر الإعتبار الأسباب التي أدت إلى نشوبها، وليس هزيمة روسيا وهو الشعار الذي أصبح "النغمة اليومية" للنخب الحاكمة في البلدان الغربية وإعلامها.

- غابت عن الإعلام المعولم الدعوة للسلام وايقاف الحرب وتشجيع المفاوضات، وسادت بدلا من ذلك سياسة الترويج لفكرة أن هزيمة روسيا في الحرب ستؤدي إلى إبعاد الخطر الروسي عن الدول الغربية، وهذا يتطلب تقديم المزيد من الدعم العسكري والمالي لأوكرانيا، متناسياً "أي الإعلام" إن هذا النهج يؤدي إلى استمرار الحرب لفترة طويلة وتزايد احتمالات تطورها إلى حرب عالمية.

- الإهمال المتعمد للنتائج الكارثية التي سببتها الأزمة الأوكرانية، للفئات الفقيرة والكادحة في الدول الغربية، المتمثلة بغلاء متطلبات المعيشة لأغلبية المواطنين، بسبب زيادة اسعار المواد الغذائية والخدمات وارتفاع نسب التضخم وانهيار القدرة الشرائية للفئات الأقل ثراء. وللحد من تذمر المواطنين، تردد وسائل الإعلام أطروحة النخب الحاكمة التي تزعم: إن للحرية ثمنا (28).

- كما كشفت الحرب الروسية الأوكرانية، المعايير المزدوجة التي يتناول فيها الإعلام الغربي قضية مكافحة الجوع في كثرة من الدول، حيث يشهد

العالم انعدام الأمن الغذائي الحاد حيث ارتفع عدد السكان الذين يعانون من الجوع في العالم من 135 مليوناً عام 2019، إلى 345 مليوناً عام 2022 (29). ففي الوقت الذي أوقفت فيه المنظمات الإنسانية أعمالها في تقديم الأغذية إلى ملايين الجوعى في الدول الأفريقية والآسيوية، بسبب عدم توفر الأموال اللازمة لشراء الأغذية، تقدم الدول الغربية عشرات المليارات من الدولارات إلى أوكرانيا لتمويل الحرب، في حين لم تقدم مساعدة للدول الفقيرة التي عانت أكثر من غيرها من نتائج الأزمة الأوكرانية، بسبب زيارة أسعار الطاقة والمواد الغذائية، على الرغم من تحذيرات منظمة الأغذية والزراعة الدولية من زيادة المجاعة على مستوى العالم بعد الأزمة وبدلا من تسليط الأضواء على حقيقة موقف الدول الغربية من قضية المجاعة، روجت وسائل الإعلام المعولم إلى أن الأزمة الأوكرانية هي سبب المجاعة (30). وقد علق على هذا الموقف رئيس المكسيك، أندريس مانويل لوبيز أوبرادور، بالقول: إن الولايات المتحدة لم تستطع توفير حوالي 4 مليارات دولار لتنمية دول أمريكا الوسطى، لكنها وفرت 65 مليار دولار، (في وقت التصريح)، منها 17 مليار معدات عسكرية، لمساعدة أوكرانيا (31).

لقد وقف الإعلام المعولم موقفاً لا اخلاقيا من الانتهاك الفاضح لكل القيم والمعايير الليبرالية عن حرية الرأي والتبادل الحر للأفكار بين الشعوب، وحماية الاستثمارات الأجنبية وحرية تنقل الأفراد والبضائع وحرية الأسواق والتجارة الحرة، وهي الأسس الرئيسية للعولمة الرأسمالية التي جرى تثبيتها باتفاقية دولية "الجات" التي تعتبر القاعدة القانونية التي تنظم مبدأ حرية التجارة العالمية، حيث لاحظنا تجاهل الإعلام الغربي للعقوبات غير المسبوقة على روسيا، وحجز أموالها في الدول الرأسمالية والتي تقدر بأكثر من 300 مليار دولار، إضافة إلى عشرات المليارات لمواطنين روس، وكلها إجراءات تتعارض مع مبادئ العولمة.

- تماهى كثير من الإعلاميين والصحف الليبرالية الكبرى مع مضامين الإعلام المعولم، الذي اتسم بوحدانية الرأي في تناول أسباب ومجريات الحرب الروسية الأوكرانية، نتيجة حرمان المتلقي من الوصول للرأي والرأي الآخر، الذي يعني حرمان الجمهور من حرية الاختيار بين الآراء المختلفة، الامر الذي يعني تجاوزا للمعايير الأخلاقية التي ميزت مسيرة الإعلام الليبرالي الحر، بحيث أصبحت حرية التعبير سلعة تخضع للعرض والطلب كما يقول أيلون ماسك بعد شرائه شبكة تويتر (32).

أخيراً، أفرزت تغطية الإعلام الغربي للحرب الروسية الأوكرانية كثيرا من الظواهر التي لا تنسجم مع المعايير الأخلاقية للعمل الإعلامي ومنها:

انتشار ظاهرة "الفوبيا" من الروس، بحيث أصبحت الأصوات العنصرية، تلقى التشجيع وليس الشجب، مثلما جرى التعامل مع تصريح توماس فريدمان، الذي طالما تغنّى بحرية الرأي ومفاهيم الليبرالية، أن يطالب بطرد الأطفال الروس من مدارسهم في سويسرا وغيرها، بحجة الضغط على حكومة بلادهم (33). وهذا الموقف هو تكرار للموقف من الإسلام بعد 11 سبتمبر حين تم الترويج للفوبيا من الاسلام من خلال الخلط المتعمد بين حقيقة مبادئ الدين الإسلامي والتفسير المتطرف للجماعات الجهادية لتبرير نهجها وأعمالها المتطرفة.

- الفبركة والتزييف لحوادث مروعة ارتكبها الجيش الروسي لكسب الرأي العام لقبول العقوبات الاقتصادية ضد روسيا والنتائج السلبية التي تنتج عنها، وبنفس الوقت تأييد تقديم المساعدات الضخمة إلى أوكرانيا بدلا من تقديم المساعدة للمواطنين لتخفيف آثار العقوبات على تدني مستوى المعيشة الناتجة عن التضخم وارتفاع الأسعار (34).

- روج الإعلام الغربي إلى معاداة روسيا في الفضاء العام من خلال التحريض ضد كل ما هو روسي كاللغة والثقافة الروسية وحتى الرياضة التي تعتبر بعيدة عن السياسة، باعتبارها وسيلة تعارف ومحبة بين الشعوب، اضافة إلى التحريض لاستخدام العنف ضد الروس، عسكريين ومدنيين، وكل ما يمت بصلة للشعب الروسي، بشكل لم يسبق له مثيل في حالة الازمات والصراعات العسكرية بين الدول التي حدثت

سابقاً.
- الانحياز الواضح لسياسة السلطات الأوكرانية، سواء في ما يتعلق بتغطية مجريات الحرب، حيث تجري التغطية الواسعة لمواقف وسياسة الحكومة الأكرانية، في حين يجري التعتيم على الموقف الروسي، كما يتم التغاضي عن استهدافها للمدنيين مقابل تضخيم السلوك الروسي من هذه القضية، أو فيما يتعلق بالتغطية على فساد الحكومة الأوكرانية التي قال عنها بيل غيتس انها "واحدة من أسوأ الحكومات في العالم. إنها فاسدة ويسيطر عليها عدد قليل من الأثرياء. وهذا أمر محزن للغاية بالنسبة للشعب هناك" (35).

خلاصات

1- إن الحديث عن المعايير الأخلاقية يحتل ضرورة قصوى، نظراً إلى الانفلات الكبير للذاتية المفرطة التي تعتبر تحقيق المصلحة الخاصة المعيار الوحيد في الحياة، وتدعو إلى التخلي عن أية معايير إنسانية تقوم على العدالة واحترام حق الإنسان في حياة حرة كريمة. وبخصوص التزام وسائل الإعلام بالمعايير الأخلاقية، فإنه يحتل أهمية في الظروف الراهنة، نظراً لتسارع التطور التكنولوجي الذي يسمح بسهولة تغيير وتزييف الوقائع والأحداث واختلاق بدائل لها تتناسب مع المصالح الخاصة لفئات معينة، إضافة إلى تسارع وقع الحياة اليومية، والإرهاق الذي يصيب الفرد بسبب صعوبات الحياة الناتجة عن الجهود التي يبذلها لتدبير وسائل العيش اليومية. إن كل ذلك يترافق مع تراجع الوعي وشيوع ثقافة الإنترنت الذي يشمل فئات واسعة من المواطنين، بمن فيهم المثقفون، الامر الذي يؤدي إلى سرعة التصديق بالمعلومات التي تبثها وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

2- إن لجوء الليبرالية الجديدة ومفكريها للكذب والتضليل يشير إلى أن سير التطور العالمي خلال نظام القطبية الواحدة، أكد عدم مصداقية اطروحتها حول نهاية التاريخ وانتصار أيديولوجيتها على المستوى العالمي.

3- تغيرت مهمة وسائل الإعلام في ظل نظام القطبية الواحدة، فبدلاً من عرض الأحداث وتحليلها بهدف تمكين الجمهور من الاطلاع على التطورات والمستجدات، إلى مهمة التواصل الذي يهدف فيه الإعلام إلى التفاعل مع الحدث من خلال التقنيات التي تضاف إلى شكل الحدث بعد التلاعب بمحتواه، بحيث أصبح الترويج للأخبار الزائفة المدعومة من الجيوش "الالكترونية" حالة شائعة في أغلب وسائل الإعلام، الامر الذي ادى لتراجع ثقافة التحقق من الأخبار المتداولة قبل التصديق بها والتفاعل معها.

4- إن تخلي وسائل الإعلام الغربية عن رسالتها الإنسانية والمعايير الإخلاقية للإعلام الحر، أصبح واضحاً، بإنحيازها خلال الأزمة بين أوكرانيا وروسيا، وأدى ذلك إلى اضعاف مستلزمات التوصل إلى حلول وسط لحل الصراع الروسي الاوكراني عن طريق المفاوضات، بحيث نجد من الصعوبة التفريق بين الإعلام الحربي والإعلام الحر الذي غالباً ما يروج إلى التوصل للحلول السلمية لانهاء الأزمات والنزاعات العسكرية بين الدول.

5- يظهر ابتعاد الإعلام الغربي عن الاستقلالية، خلال الأزمات التي تهدد مصالح النخب الرأسمالية الحاكمة أو الصراعات التي تنشب بين المراكز الرأسمالية الدولية، من خلال فرض الرأي الواحد والحوار المغلق، وهذا ما لاحظناه خلال الحرب الروسية الأوكرانية حيث اشتركت وسائل الإعلام في الهوس الإيديولوجي للنخب الحاكمة حول الحرب وأسبابها وكيفية انهائها، والإنخراط بالترويج لسلوك الدول الغربية ضد الشعب الروسي والدول التي تحاول أن تقف على الحياد من صراع الإحتكارات الرأسمالية في الأزمة الأوكرانية.

6- لقد أكدت الحرب الروسية الأوكرانية، ابتعاد وسائل الإعلام المعولم عن بديهيات المعايير الأخلاقية، في تغطيتها لأسباب الحرب ومجرياتها ومخاطر استمرارها على السلام والتعايش السلمي بين الشعوب، عندما أصبحت وسائل الإعلام في خدمة وجهة النظر الغربية من الحرب فأصبح الإعلام صورة مطابقة للعمليات النفسية الدعائية، وبما ينسجم مع المزاعم والدعاية السياسية للحرب، وبما يشبه الموقف من الإرهاب عقب تفجيرات الحادي عشر من أيلول 2001.

الهوامش:

1- نقلا عن عرفات مفتاح معيوف "معايير التغطية الإخبارية في القنوات التلفزيونية"، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، المجلد 17، العدد 1، 2014 ، ص182 - 183 https://digitalcommons.aaru.edu.jo/albalqa/vol17/iss1/1/

2- تدخل المليادير أيلون ماسك، في إدارة وسياسة تويتر، بعد شرائها بمبلغ 44 مليار دولار . توجد الآن ست منصات لوسائل التواصل الاجتماعي هي:

- فيس بوك Facebook
- ماسنجر Messenger
- واتس أب WhatsApp
- تويتر Twitter
- انستجرام Instagram
- تيك توك Tik Tok

3- كان ميلتون فريدمان مستشارا للرئيسة الوزراء البريطانية مارغيت تاتشر، ثم مستشارا للرئيس رونالد ريغان طيلة فترة رئاسة 1980-1988

4- رنا فوروهار، ما بعد الليبرالية الجديدة، موقع اندبندنت عربية independentarabia.com

5- للمزيد عن إدارة الرأي العام بالدول الرأسمالية الغربية، يراجع، نعوم شومسكي، السيطرة على الرأي العام، ترجمة أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية ط1، القاهرة، 2003، ص 17-20

6 - أدهم عدنان طبيل، الإعلام الحديث في ظل العولمة، دنيا الرأي (alwatanvoice.com) تاريخ النشر: 2007-5-25

7- ترك برس www.turkpress.co/node/80460

8- لقد نقد هذه الظاهرة، أنير فوك بقوله: إن هناك قلقا متزايدا بشأن عدم قيام وسائل الإعلام التجارية بوظيفتها الإعلامية بشكل صحيح بسبب تملكها من قلة من كبار الشركات المتعددة الجنسية وأصبحت نتيجة لذلك قوة ضد الديمقراطية، تدافع عن الوضع القائم". نقلا عن سويم العزي، نظرة ثانية بخصوص الفضائيات وشبكات التواصل الاجتماعية الغربية والحراك السياسي العربي، دار الحكمة، القاهرة، 2013، ص .

9- نصر الدين لعياضي، إشكاليات الإعلام في عصر العولمة communication.ahladalil.com/t1092-topic

بدأت سيطرة كبار الرأسماليين على وسائل، من خلال رجل الاعمال الاسترالي، كيث روبرت مردوخ، الذي استحوذ في الخمسينات والستينات من القرن الماضي على العديد من الصحف المتنوعة وبحلول عام 2000، أصبحت شركة مردوخ "نيوز كوربوريشن" تمتلك أكثر من 800 شركة في أكثر من 50 بلدا في العالم بصافي أصول يصل لأكثر من 5 مليارات دولار . روبرت مردوخ - ويكيبيديا(wikipedia.org)

10 - نفيسة صلاح الدين، مقالة منشورة على موقع الهيئة العامة للاستعلامات، بتاريخ 11/03/2016 على الرابط التالي www.sis.gov.eg

11- ذي إندبندنت - ويكيبيديا(wikipedia.org)

12- براكريتي غوبتا، "تسارع وتيرة هيمنة أثرياء الهند على قطاع الإعلام"، جريدة الشرق الأوسط، 02 يناير 2023

13- نعوم شومسكي، السيطرة على وسائل الإعلام، مصدر سابق، ص9

14- العزي، ص4

15- بدأت الغارديان تقريرها بالإشارة إلى زيادة أهمية وظيفة تدقيق الحقائق في ظل رئاسة ترامب "الذي أطلق، وفق أحد التقديرات، أكثر من 16 ألف ادعاء ينطوي على تضليل أو كذب خلال السنوات الثلاث الأولى من وجوده في البيت الأبيض- www.bbc.com/arabic/inthepress

16- أنتوني فاوتشي، "رسالة إلى الأجيال المقبلة من العلماء"، جريدة الشرق الأوسط، 12 ديسمبر 2022

17- مقابلة مع نعوم شومسكي أجريت عام 2015 مع صحيفة فرنسية4 https://www.youtube.com/watch?v=Hz2F314oOZ4

18- ازدواجية المعايير في تناول الإعلام الغربي للقضيتين الأوكرانية والفلسطينية، مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية

22نيسان http://www.akhbar-alkhaleej.com/news/article/1293080 |2022

19 - ذكر الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، في مقابلة مع BBC في 11 آب 2016، بان الرئيس الأمريكي باراك أوباما ، هو الذي أسس تنظيم داعش الإرهابي.

20 - ياسر عبد العزيز ، "وقفة مع الإعلام الغربي"، صحيفة الشرق الأوسط، 21 مارس 2022.

21- كيف أثرت حرب أوكرانيا على المجال العلمي والتكنولوجي؟" جريدة الشرق الأوسط، الاثنين 02 يناير 2023

22- المعطيات من اعداد الكاتب، بالاعتماد على تقارير معهد السلام العالمي في إستكهولم لسنوات متعددة وموقع ويكيبيديا

23- https://www.sipri.org/media/press-release/2022/world-military-expenditure-passes-2-trillion-first-tim

24- نقل هذا التصريح، نعوم شومسكي، في مقابلة صحفية مع قناة سكاي نيوز عربية أجريت في 19 نيسان 2022. Https://www.youtube.com/watchv=VNWV5Y7DYSA

25- المساعدات الغربية لأوكرانيا خلال عام 2022 تجاوزت 120 مليار دولار | الميادين(almayadeen.net)

26- تبلغ ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية لعام 2023 أكثر من 858 مليار دولار، بزيادة قياسية عن عام 2022 التي بلغت 715 في حين كانت بحدود 400 مليار عام 2003

https://www.skynewsarabia.com/world/1579158-2023-

27- كشفت المستشارة الألمانية السابقة، إنكيلا ميركل، في مقابلة مع صحيفة "دي تسايت" في 10/12/2022 أن الدول الغربية الموقعة على الاتفاقية، فرنسا وألمانيا، لم يكن هدفها حل قضية الدونباس سلميا بل "منح كييف الوقت لتعزيز قدراتها العسكرية" لمواجهة روسيا.

28- تظهر الأرقام التالية مدى تأثر نسبة كبيرة من المواطنين الامريكيين من التضخم الذي نتج عن الحرب الأوكرانية: 55% من الأمركيين توقفوا عن الأكل في المطاعم، 39 % قللوا التنقل بالسيارة، 32% أوقفوا الاشتراكات الشهرية، (الاشتراك في المجلات والجرائد ونوادي الرياضة وغيرها) 29% الغوا خطط السفر بالصيف. حسب استفتاء لشبكة CNBC وجامعة جون هوبكونز .

29- Www.facebook.com/1420638235/posts/10229455789685413/?sfnsn

تقرير برنامج الغذاء العالمي لعام 2022 انعدام الأمن الغذائي بالعالم في أسوأ مستوياته(annabaa.org)

30- تقرير عالمي: انعدام الأمن الغذائي الحاد في ارتفاع - والنزاعات من الأسباب الرئيسية لذلك أخبار الأمم المتحدة(un.org)

31- تاس 8/6 / (32) arabic.rv.com.world 2022جيمي ساسكيند، الحكومات من تحتاج إلى حماية حرية التعبير وليس إيلون ماسك، صحيفة الفايننشال تايمز 28/4/ 61253290-https://www.bbc.com/arabic/inthepress 2022

33- سليمان الدوسري، "أزمة أوكرانيا: المكارثية الجديدة في إرهاب الخصوم"، جريدة الشرق الأوسط، 14 مارس 2022

34- تلفيق الحوادث لم يكن جديدا، فقد استخدم خلال الحرب الأهلية في سوريا، عندما قامت منظمة الخوذ البيضاء بتلفيق أفلام عن استخدام السلاح الكيماوي، ولصق التهمة بالقوات النظامية السورية.

35- https://aawsat.com/home/article/4121451/%D8%A8

العراق: الحرب والمجتمع

علاء حميد إدريس

ظلت الحرب موضوعا حاضر في حياة العراقيين فهي رافقت تاريخهم منذ تشكيل الدولة الوطنية ولغاية اليوم. إذ لم تغب عنهم طويلا وتحولت بمرور الوقت لشبه ثابت يغير مصيرهم ويحيله الى مسار مختلف. ولهذا كانت الحرب الأخيرة 2003 التي قامت بها الولايات المتحدة الاميركية أدت الى تغير النظام السياسي. وهنا ثمة مفارقة تكمن في نظرة العراقيين لهذه الحرب، ولو عاد بهم الزمن قبل 2003 هل سيرضون بها بعدما مروا بكل هذه الازمات والمشاكل. يضعنا هذا التساؤل أمام خيار " فاوست " الذي باع نفسه للقدر من أجل خلاصه. حينما نراجع أثر الحرب في تاريخ العراق السياسي. نجد أننا بحاجة الى فحص معنى الحرب في السياسة والتاريخ والعلوم الاجتماعية. إذ انصب اهتمام العلوم الاجتماعية على ظاهرة الحرب بعد الحرب العالمية الاولى 1914-1918، إذ كانت هذه العلوم مهتمة بدراسة المجتمع والجماعات والافراد، لكن تكرار الحروب والصراعات العسكرية في مختلفة مناطق العالم صار دافعا لكي تهتم أكثر العلوم الاجتماعية بهذه الظاهرة. فالحرب ظاهرة يؤثر قيامها على مجمل حياة المجتمعات والدول. محليا حضرت الحرب في التاريخ العراقي الحديث بشكل شبه دائم وأصبحت مجالا حيويا يوقف ويعيد ترتيب نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية على أسس غير مستقرة. هذا التلازم بين الحرب والتاريخ العراقي الحديث يصعب فهمه دون مراجعة العلاقة بين المجتمع والدولة، فالاضطراب الحاصل بين الطرفين تحولت الحرب فيه الى أفق كاشف عن معالم هذا الاضطراب. وعلى الرغم من تباين الآراء بين بعض الباحثين في مجالات العلوم الاجتماعية حول وجود أو عدم وجود مجتمع عراقي، فحين نبحث عن مفهوم للمجتمع نجد أن الاستمرارية "تراكم وتكوين النمط الثابت" والتغير "بسبب السلطة والثقافة وتحولات السكان"، هما من يحددان هذا المفهوم فالمجتمع العراقي يحمل سمتي الاستمرارية والتغير. أن سبب عدم تبلور مفهوم المجتمع في العراق راجع الى غلبة التغير على حساب الاستمرارية، ولذلك الحاضر في العراق جماعات أجتماعية تحمل كل منها خصوصيات أجتماعية وتاريخية وثقافية تتمايز بها عن بعضها البعض، وعندما نتساءل لماذا تغلب التغير على حساب الاستمرارية؟ نكتشف الجواب حينما نسير مع محطات التاريخ الاجتماعي والسياسي العراقي، لكي نلمس أن الحرب هي الاثبات المتحقق على ترجيح كفة التغير على الاستمرارية. وأما الدولة فهي تقف على مرتكزين هما الشرعية وأحتكار العنف، في النموذج العراقي نلاحظ أن الشرعية محصلة وليست متأتية من أجماع أجتماعي بسياقه الطبيعي، وأما أحتكار العنف نجد ان هناك تزاحم بين الدولة وقوى المجتمع على امتلاكه؛ ولهذا لم تتحول الدولة الى كيان مجمع عليه من قبل المجتمع، المفارقة ان الدولة في مسألة أحتكار العنف تحولت الى طرف في الصراع على شرعية حيازة العنف. ولذلك أتسع معنى الحرب في السياق العراقي وتعدد فهو لم يبقى على جانبه العسكري القتالي والذي يشترط وجود طرفين متقاتلين من خلال جيوش. لقد تخطى العراق هذا النموذج وأصبحت الحرب أطارا للحياة اليومية وذاكرة لا تغيب عن مرجعيات العمل والممارسة في السياسة والمجتمع .إذ ظلت الحرب مسارا كامن في الحياة اليومية العراقية، لأنه يحيط بكل شيء ويترقبه المجتمع لانه صار جزءا حيويا من تاريخه السياسي، فمنذ قيام الحرب العالمية الاولى بين بريطانيا والدولة العثمانية ودخول قواتها البصرة العام 1914 كان العراقيون مشاركين في هذه الحرب، ثم بعد ذلك دخل المجتمع منذ العام 1920، ولغاية اليوم في صراعات تأخذ معنى الحرب، يعرف كارل فون كلاوزفيتز 1780- 1831 الحرب بأنها "عمل عنيف يقصد منه إكراه الخصم على الخضوع لإرادتنا" وبذلك تصبح الحرب وسيلة من وسائل السياسة الهدف منها حماية مصالح الجهة المحاربة أو توسيع نفوذها. وهذا الوسيلة - الحرب - في النموذج العراقي هي بيد من؟ الدولة أو المجتمع؟ في صراعات تأخذ معنى الحرب، يعرف كارل فون كلاوزفيتز 1780- 1831 الحرب

بـــأنها "عمل عنيف يقـــصد منه إكراه الخصم على الخضوع لإرادتنا" وبذلك تصبح الحرب وسيلة من وســائل السياســة الهدف منها حـــماية مصالح الجهة المحاربة أو توسيع نفوذها. وهذا الوسيلة - الحرب - في النموذج العراقي هي بيد من؟ الدولة أو المجتمع؟

أن التداخل بين الحـرب والصراع جعل معناه يقـع في أكثر من دلالة ولا يتشـكل ويثبـت عند دلالة محـددة، فالصراع في العراق لم تحـــدد معانيه، هل هو صراع سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي فضلا عن ذلك طائفي وقـومي، كل هذه المعاني ينال الصراع منها معنى ثم لا يلبث ليأخذ غيرها، ربـما من عدم وضوح معنى وشكل الصراع نستطيع فهم ظاهرة العنف التي تلازم كل تغير حـصل في العراق بـدءا من انقـلاب 1936 والذي تحولت الدولة فيه الى طرفا في الصراع وباتت مؤسسة الجيش تحتكر جزءا واسعا من مساحة العنف والقدرة على تغير الحكم. ان الصراع في السياق العراقـي هو بين من يملك القوة والذين لا يملكونها، وبـالتالي أمست القـــــوة وامتلاكها هي من تكوّن مضمون الصراع، وحـينما نفحـص تاريخ الدولة في العراق نلاحـظ انها منفصلة عن الســـــياق الاجتماعي العام ؛ لأن فعل تأسيسها كان من قوة خارجية لا تنتمي للمجتمع، حـتى مع تغير 1958 والذي قـام بـــه الجيش وليس قـــوى المجتمع، إذ أن الجيش مؤسســة منفصلة عن المجتمع، وعندها سياقـاتها التي تحكمها والتي لا تشبـه السياقات الاجتماعية التي تسير علاقات المجتمع، ولهذا امست الحـرب نهاية تصل إليها السـلطة حـين تسـعى لتأكيد حكمها وسيطرتها على المجتمع. فالحرب بـاتت الإطار الذي يشـكل ملامح النظام والسـلطة. ولهذا نسـتطيع الربط بين تعثر ثبات النظام الذي تنتجه الدولة وظاهرة الحـرب في العراق، فحـينما تضطرب وتختل شـرعية النظام تصبـح الحـرب وسـيلة لمعالجة هذا الاختلال، والحـرب ضمن النموذج العراقـي تأخذ مسـتويين خارجي وداخلي، في المســـــتوى الخارجي كانت الحرب بالنسبة للنظام السياسي منذ 1936 هروبـا الى الامام لتخلص من التحـديات الداخلية "علاقـة النظام بالمجتمع، متطلبات اجتماعية واقـتصادية، استحقاقات سياسية"، كرسـت الحـرب الخارجية أسلوب أشـغال المجتمع وافقـاده قـدرة الاهتمام بقـضاياه الاجتماعية والاقتصادية، واما في المستوى الداخلي أمست الحرب نتيجة ومعالجة يصل اليها النظام حـــــين يعجز عن استعياب الاختلاف والتنوع في المجتمع العراقـي، وما جرى في كردستان العراق من احتراب 1961-1970 بين الحكومة العراقية والقوى الكردية،

يمثل تأكيد على ان النظام بـــات طرفا مباشـــر وغير مباشـــر في الصراع الذي أخذ شـــكلا من أشـــكال الحـــرب، حـــين نعود الى تعريف كلاوزفيتز والذي يؤشـر أن غاية الحـــرب تقـــوم على اخضاع الخصم "المجتمع" من قبل النظام وقد يحـصل العكس. لذلك تظهر حالة الصراع في العراق والازمات التي تنتجها بـأن هناك تداخل بـين المستوى الخارجي والمستوى الداخلي. لقد ولدّ هذا التداخل حـالا للسـلطة تكون فيه أمام خيارين الاول الجنوح نحو المركزية الشديدة التي تندفع بـاتجاه الاستبداد، والثاني تشـظي السلطة بـين قـوى اجتماعية وسياسـية متعددة. وعلى ضوء هذين الخيارين تتشـكل السـلطة ضمن ثنائية " السياســي / الاجتماعي " في السياسي تقوم السلطة بـإنتاج شبكة العلاقـــات الاجتماعية وتعمل على تحـــديد قـــيمها ومعاييرها، ولكن في الاجتماعي تتجه القـــــــوى الاجتماعية نحـو صياغة السلطة على أسـاس شـكلها الاجتماعي التي نشـــأت عليه تلك القـــوى "حزبـــي، عشائري، طائفي، مناطقي، قومي". قارب الفيلسـوف الفرنسـي ميشـيل فوكو العلاقـة بـين الدولة والحـرب "1926-1984" من خلال رصد علاقات القـوة التي تكوّن السلطة وخطابـها. حـينما نبحـث المسـار الذي تتشـكل فيه السـلطة في التاريخ السياســي العراقـي الحـديث، نجد ان السـلطة غير متشـكلة الا من خلال التحكم والاستبداد أو عن طريق امتلاكها من قبل قوى اجتماعية مختلفة "الملك والضباط الشـريفيين، الجيش والحـزب، الحـزب والعشـيرة، الجماعة والطائفة"، ولهذا لم تصل السـلطة في العراق الى مرحـلة الثبـات والاكتمال؛ لأنها واقـعة في مأزق البقـاء في مرحـلة القوة الطبيعية " force " التي يتنازع على امتلاكها كل من لديه القدرة والامكانية على امتلاكها، أو القـوة " power" التي في طريقـها تسـعى لكي تتحـول الى المأسسة. أن الصراع على نقـل القـوة من مسـتواها الطبـيعي الى المؤسسـي، يكشـف عن اختلال وعدم تكافؤ في علاقات القوة في النموذج العراقـي ووقـوعه في حالة شبه الحرب أو حرب داخلية دائمة (Semi-war or Home War) بين النظام والمجتمع والتي أفقـدت الوضع العراقـي عاملي الاستقـرار والتراكم. لقـد غيبـت الحـرب معنى ومفهوم السـلام وجعلته غائبـا عن القـاموس العراقـي في التفكير والتعامل، وكأنه حـالة من الاسـتثناء التي تحـتاج الى تميز العدو من الصديق.

ولكن ما جرى منذ 2003 عدم القـــدرة على التميز بينهما. فالعدو يتحـول الى صديق في مرحـلة والعكس صحـيح. لذلك ينزع النظام الى الحـرب لكي يتحقـق ماديا من هو العدو ومن هو الصديق.

كارل ماركس - أبراهام لنكولن
رسالة تُنشر بالعربية لأول مرة

ثامر الصفار

في كانون الأول (ديسمبر) 1861، أرسل الرئيس أبراهام لنكولن خطابه السنوي الأول - الذي أصبح يُعرف في ما بعد بخطاب حالة الاتحاد - إلى مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

في اليوم التالي، تم نشر جميع الكلمات البالغ عددها 7000 كلمة في الصحف في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك الجنوب الكونفدرالي المتمرد. وكانت هذه فرصة لنكولن الأولى للتحدث إلى الأمة منذ خطاب تنصيبه. في هذا الخطاب دان لنكولن "المواطنين غير الموالين" المتمردين على الاتحاد، وتحدث عن قوة الجيش والبحرية، وأطلع الكونغرس على الميزانية.

صحيفة شيكاغو تريبيون ركزت على جزء من الخطاب ونشرته تحت عنوان "رأس المال مقابل العمل":

" وقال الرئيس السادس عشر للبلاد "العمل قبل رأس المال ومستقل عنه". "رأس المال هو ثمرة العمل فقط، ولا يمكن أن يوجد لولا وجود العمل أولا. العمل هو أعلى من رأس المال، ويستحق الكثير من الإهتمام".

تبدو هذه الفقرات، المأخوذة من الخطاب، وكأن كاتبها هو كارل ماركس، ومرد هذا التشابه الى حقيقة أن لنكولن كان يقرأ كارل ماركس بانتظام. وكذلك لانه كان محاطا بعدد من الشخصيات "الاشتراكية" من الذين يعتمد عليهم في المشورة.

لم يكن أبراهام لنكولن اشتراكيا أو شيوعيا بطبيعة الحال، لكنه كان من مجايلي ماركس، فالفارق بينهما من حيث العمر هو تسع سنوات فقط لصالح لنكولن. وكان لهما أصدقاء مشتركون وبدأت اولى مراسلاتهما عام 1865 .لنعد بالتاريخ قليلا الى اربعينيات القرن التاسع عشر، حيث كان لنكولن محاميا شابا ونائبا في مجلس النواب عن ولاية إليانوس، وكان اقرب صديق له هو هوريس جريلي مؤسس صحيفة نيويورك تريبيون التي كانت صاحبة الفضل في نشر المثل والأفكار التي تشكل على اساسها الحزب الجمهوري عام 1854 الذي اختار اللون الاحمر رمزا له. ومن بين هذه الافكار يمكننا ذكر مناهضة العبودية، والوقوف الى جانب العمال، واحيانا القليل من الافكار الاشتراكية.

يذكر الباحث جون نيكولاس في كتابه "تاريخ مختصر لكلمة الاشتراكية في أميركا" ان صحيفة نيويورك تريبيون رحبت كثيرا بعملية توزيع الأراضي الغربية على الفقراء وتحرير العبيد من عبوديتهم. وذكر ايضا ان جريلي كان رافضا لمن يفضل مصالح السوق على مصالح العمال الذين يتشكلون حسب رأيه من العبيد المقهورين في الجنوب وعمال الصناعة المستنزفين في الشمال.

على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي كان هناك كارل ماركس الذي ربط بين مصير العمال ومصير العبيد. ففي اعقاب فشل الثورة في أوربا انتقل ماركس الى لندن، وكان يفكر بالانتقال الى الغرب الاميركي، وتحديدا الى تكساس، حسب ما يذكره المؤرخ روبن بلاكبيرن في كتابه "ثورة لم تتم: كارل ماركس وابراهام لنكولن". (منشور بالعربية بترجمة عزة خليل).

كان ماركس مهتما بشدة بمحنة العبيد الأمريكيين. في يناير 1860، أخبر إنجلز أن أكبر شيئين يحدثان في العالم هما "من ناحية، بدء حركة العبيد في أمريكا بموت جون براون، ومن ناحية أخرى حركة الأقنان في روسيا".

كتب بلاكبيرن ايضا أن ماركس ساوى بين مالكي العبيد الجنوبيين والأرستقراطيين الأوروبيين، واعتقد أن إنهاء العبودية "لن يدمر الرأسمالية، لكنه سيخلق ظروفا أكثر ملاءمة لتنظيم العمل ورفع مستواه، سواء أكان أبيض أم أسود".

في تلك السنوات كان ماركس صديقا لجارلس دانا الاشتراكي الاميركي والضليع في اللغة الالمانية ورئيس تحرير صحيفة نيويورك تريبيون. وفي عام 1852 بدأ ماركس عمله في الصحيفة باعتباره مراسلا اوروبيا. واستمر في الكتابة على مدى عقد من الزمان، وكانت الصحيفة تنشر احيانا مقالات ماركس (دون ان تحمل توقيعه) في الصفحة الاولى باعتبارها افتتاحية العدد. وإذا عرفنا ان لنكولن كان قارئا نهما لصحيفة نيويورك تريبيون يمكننا القول بكل ثقة انه كان متابعا لما يكتبه ماركسز

في عام 1860 نجح لنكولن في الفوز بمنصب الرئاسة الأميركية وكان ذلك بفضل عاملين أساسيين. الاول هو وقوفه الى جانب الثوار الالمان السابقين الذي هاجروا الى أميركا بعد فشل الثورة في اوربا واصبحوا، فيما بعد، شخصيات مؤثرة داخل الحزب الجمهوري، والثاني دعم صحيفة نيويورك تريبيون لحملته.

ظل لنكولن ملتزما بتحالفه مع الاشتراكيين فعين جارلس دانا ممثلا له في وزارة الحرب حيث كان يتابع حركة القوات العسكرية وينقلها مع رأيه بالجنرالات الى الرئيس. وظل جريلي يحث لنكولن على اتخاذ موقف أشد صرامة ضد العبودية حتى لا تتحول الحرب الاهلية الى مجرد الدفاع عن وحدة البلاد، بل من اجل الغاء العبودية أيضا. وكان ماركس يساهم في هذا المسعى من خلال مقالاته في الصحيفة. في عام 1863 تحقق لهم ما أرادوه حيث اعلن الرئيس ابراهام لنكولن وثيقة الغاء العبودية في أميركا.

بعد فوز إبراهام لنكولن بفترة رئاسية ثانية في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1864، كان المجلس

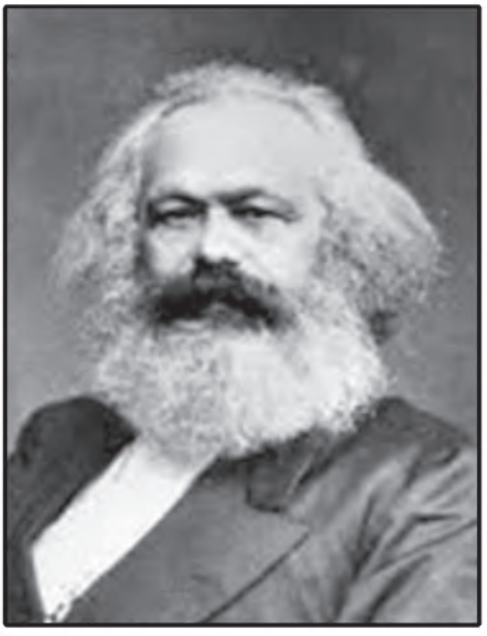

المركزي لرابطة العمال الدولية يعقد اجتماعا له بتاريخ 19 تشرين الثاني (نوفمبر) من نفس العام، وكان احد قراراته إرسال رسالة تهنئة الى الرئيس الاميركي بمناسبة إعادة انتخابه، وتم تكليف كارل ماركس بكتابة مسودة الرسالة التي تم اقرارها بتاريخ 29 تشرين الثاني (نوفمبر). وجرى الاتفاق ايضا ان يسلمها كارل ماركس الى السفير الأميركي في بريطانيا، تشارلز فرانسيس آدمز.

تم نشر الرسالة لأول مرة في العدد 169 من صحيفة بي - هايف بتاريخ 7 كانون الثاني (يناير) 1865، أما الترجمة الألمانية لها فقد تم نشرها قبل ذلك في صحيفة الإشتراكي الديمقراطي الألمانية بتاريخ 30 كانون الأول (ديسمبر) 1864

يتضح من الرسالة ان ماركس كاتب الرسالة، ومن ورائه المجلس المركزي لرابطة العمال الدولية، أراد التركيز على أربع نقاط أساسية:

أولا: تذكير الرئيس الاميركي بأهمية الثبات في موقفه تجاه العبودية، حيث كان فوزه الأول بفضل شعار حملته "الكفاح ضد العبودية" وكان فوزه الثاني بفضل شعار حملته "الموت للعبودية".

ثانيا: التأكيد على ان الطبقة العاملة الأوروبية مهتمة جدا بالصراع الأمريكي المهول خصوصا وان أحد اسباب اندلاع الحرب الأهلية كان توزيع الأراضي الغربية على الفقراء من المهاجرين والعبيد الذين جرى عتقهم.

ثالثا: التأكيد على كون الصراع صراعًا عالميًا بين رأس المال والعمل. من ناحية، يمثل تمرد ملاك العبيد "حملة صليبية مقدسة للملكية ضد العمل"، وفي مواجهتهم كان "العمال" مع آمالهم وتطلعاتهم المستقبلية. وقد تم التعبير عن معارضة الطبقة العاملة الأوروبية، بحزم، في تحمل المصاعب والجوع خلال أزمة القطن حيث توقفت المصانع عن العمل وتضور العمال جوعا بسبب عدم توفر محصول القطن الأساسي لعملهم الآتي من الجنوب الأميركي. كما عارض هؤلاء العمال تدخل بعض الحكومات الأوروبية لدعم مصالح ملاك العبيد. أما في أميركا فقد كان المهاجرون ينضمون إلى جيوش الاتحاد ويساهمون بـ "حصتهم من الدم" في سبيل القضية السامية.

رابعا: أن الحرب الأهلية كانت تقدمية من الناحية التاريخية. فقبلها، لم يكن العمال الشماليون قادرين على تحقيق "الحرية الحقيقية" لأن العبودية "تدنس جمهوريتهم"، وكانوا مجبرين على بيع عملهم لمن يدفع أعلى سعر. علاوة على ذلك، لم يكن العمال الأمريكيون قادرين على دعم إخوانهم الأوروبيين بينما كانوا خاضعين لرأس المال. وقد انتهى هذا

كادر تحرير صحيفة نيويورك تريبيون ويظهر هوريس جريلي الثاني من اليمين من الجالسين، وجارلس دانا الواقف في الوسط.

الآن. ربما كانت السمة الأكثر لفتًا للانتباه في هذه المراسلات هي تركيزها على الأشكال المختلفة للتقدم. فقد رأى الرئيس لنكولن في موت العبودية بداية لفصل جديد في تاريخ الولايات المتحدة. وكانت هذه، حسب رؤيته، عدالة متساوية وحقيقية "لجميع الرجال العاملين". بدلاً من ذلك، اعتقدت رابطة العمال الدولية أن الحرب الأمريكية على العبودية ستؤدي إلى ظهور حكم الطبقة العاملة على مستوى العالم لكن التاريخ أظهر خلاف ذلك.

ثمة سبب آخر لا بد من التنويه اليه لكي يقوم الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الامريكية بالرد على رسالة رابطة العمال الدولية، إضافة طبعا لما ذكرناه سابقا حول متابعة لنكولن لما يكتبه ماركس خصوصا في صحيفة نيويورك تريبيون. السبب هو وجود ما يقارب 200 الف متطوع أميركي من المهاجرين الالمان في جيش الاتحاد، وكان معظمهم من المؤيدين للحزب الجمهوري، بل ان البعض منهم ارتقى في السلم العسكري ليصل الى رتبة جنرال ومنهم على سبيل المثال يوسف فيديماير و أوغست فيليش وكلاهما عضوان سابقان في عصبة الشيوعيين ومن المقربين لماركس.

رسالة المجلس المركزي لرابطة العمال الدولية إلى أبراهام لنكولن، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مقدمة إلى السفير الأمريكي تشارلز فرانسيس آدامز

كارل ماركس (28 كانون الثاني "يناير" 1865)

سيدي:

نهنئ الشعب الأمريكي على إعادة انتخابكم بأغلبية كبيرة. إذا كان الكفاح ضد العبودية هو شعاركم لانتخابكم الأول، فإن صرخة الإنتصار لإعادة انتخابكم هي الموت للعبودية.

منذ بداية الصراع الأمريكي المهول، شعر عمال أوروبا، غريزيا، أن الراية المتلألئة بالنجوم تحمل مصير طبقتهم. ألم تكن المنافسة على الأراضي، التي فتحت الباب لهذه الحرب، من أجل تقرير ما إذا كان ينبغي ربط التربة البكر للمساحات الشاسعة بعمل المهاجر أو بالعبيد المشردين؟

عندما تجرأت الأوليغارشية المكونة من 300 ألف من مالكي العبيد على أن تكتب، لأول مرة في سجلات العالم، كلمة "العبودية" على راية الثورة المسلحة، وعندما ظهرت لأول مرة في نفس الأماكن التي ظهرت فيها فكرة جمهورية ديمقراطية عظيمة واحدة قبل قرن من الزمان، حيث صدر أول إعلان لحقوق الإنسان، الذي كان الدافع الأول للثورة الأوروبية في القرن الثامن عشر؛ عندما تمجد الثورة المضادة في تلك المواقع بالذات، بدقة منهجية، موضوعة إلغاء "الأفكار التي تم الاستمتاع بها في وقت تشكيل الدستور القديم"، وحافظت على العبودية لتكون "مؤسسة رسمية"، وهو ما يمثل في الواقع، حلا قديما للقضية الكبرى المتمثلة في "علاقة رأس المال بالعمل"، وأعلنت بسخرية ان امتلاك الإنسان هو "حجر الزاوية في الصرح الجديد" - عندها فهمت الطبقات العاملة في أوروبا على الفور، حتى قبل أن يُحذّر التحزب المتعصب للطبقات العليا طبقة النبلاء الكونفدرالية، من أن تمرد مالكي العبيد سيكون بمثابة ناقوس الخطر لحملة صليبية مقدسة عامة للملكية ضد العمل، وأنه بالنسبة للعمال، فإن كل تاريخهم وآمالهم المستقبلية كانت على المحك في ذلك الصراع الهائل على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. وتحملوا بصبر، في كل مكان، المصاعب التي فرضتها عليهم أزمة القطن، وعارضوا بحماس تدخل الحكومات الموالية لمصالح مُلاك العبيد - وساهموا، من معظم أنحاء أوروبا، بحصتهم من الدم من أجل القضية السامية.

وإذا كان العمال، القوى السياسية الحقيقية في الشمال، قد سمحوا للعبودية بتدنيس جمهوريتهم، وإذا كانوا قد قبلوا أن يُستعبد الزنجي ويُباع دون موافقته، وإذا كانوا يتفاخرون بميزة العامل ذي البشرة البيضاء لبيع نفسه واختيار سيده، فإنهم لم يتمكنوا من الحصول على حرية العمل الحقيقية، أو دعم إخوانهم الأوروبيين في نضالهم من أجل التحرر؛ لكن هذا الحاجز أمام التقدم قد جرفه البحر الأحمر من الحرب الأهلية.

أن عمال أوروبا على يقين من أنه كما كانت حرب الاستقلال الأمريكية بداية لحقبة جديدة من صعود الطبقة الوسطى، فإن الحرب الأمريكية ضد العبودية ستفعل ذلك للطبقات العاملة. وهم ينظرون بجدية الى حجم الأعباء التي تقع على كاهل أبراهام لنكولن، الابن البار للطبقة العاملة، خلال الحقبة القادمة في قيادة بلاده في النضال الذي لا مثيل له من أجل إنقاذ عرق مُقيد وإعادة بناء المجتمع العالمي.

جواب السفير الأميركي لندن سيدي:

لقد تم توجيهي لإبلاغك بأن رسالة المجلس المركزي لرابطتكم، التي تم إرسالها حسب الأصول من خلال هذه المفوضية إلى رئيس [الولايات] المتحدة، قد تم استلامها من قبله.

وبقدر ما عبّرت الرسالة عن مشاعر ودية لشخصه، فإنه يقبلها برغبة صادقة، وقلقة، في أن يتمكن من إثبات جدارته بهذه الثقة التي منحها اياه مؤخرا مواطنوه والعديد من أصدقاء الإنسانية والتقدم في جميع أنحاء العالم.

ان حكومة الولايات المتحدة تعي بوضوح تام بأن سياستها لم تكن ولن تكون سياسة رجعية، ولكنها في الوقت نفسه تلتزم بالمسار الذي اعتمدته في البداية، وهو الامتناع عن الدعاية المضادة والتدخل غير القانوني في أي مكان في العالم. وهي تسعى جاهدة لتحقيق العدالة المتساوية والحقيقية لجميع الولايات ولجميع البشر، معتمدة على الدعم في الداخل، والاحترام وحسن النية في جميع أنحاء العالم.

لا توجد الأمم لنفسها وحدها، بل لتعزيز رفاهية وسعادة البشرية من خلال العلاقات الخيرة وتقديم القدوة. وفي سياق هذه العلاقات، تعتبر الولايات المتحدة قضيتها في الصراع الحالي مع العبودية، والحفاظ على جذوة الرفض لكل ما يخالف الطبيعة البشرية، قضية جوهرية، وهي تستمد قوتها من خلال الدعم المثابر وشهادة العمال في أوروبا بأن الموقف الوطني يحظى بموافقتهم وتعاطفهم الجاد.

يشرفني أن أكون، سيدي، خادمك المطيع.

تشارلز فرانسيس آدامز

سؤال للتأمل: ماذا كان سيحصل لو نفذ ماركس فكرته بالانتقال الى ولاية تكساس الاميركية؟

ملف شهادات

ما بين الاحتلال والتحرير

جواد وادي

رغم مرور ما يقرب من العقدين من السنين، ما زال العراقيون منقسمين بين من يعتبر ما حدث في العراق في التاسع من نيسان 2003، احتلالا ومن يعتبره تحريرا، غير آبهين بخطورة مفردة الاحتلال لما يترتب عليها من وضع البلاد على العديد من الاحتمالات السيئة التي يقينا ستضعف قدرة العراقيين على إدارة وطنهم بعد انهيار النظام الفاشي، لأن الاحتلال يعني وضع العراق تحت الوصاية الدولية ووضع العراقيل التي يرتئيها المحتل لخروج البلاد من الفوضى التي خلّفها النظام البعثي المقبور. وكلنا يعلم ما حصل من حراك عدواني غير مبرر وهياج شعبي غير منظم اتجاه مؤسسات الدولة وحالات النهب والتخريب التي شملت كافة مؤسسات النظام المنهار ما زال العراقيون يعانون من تبعاته حتى اليوم.

كان موقف الحزب الشيوعي العراقي معارضة الحرب وعدم التلويح بها أو اعتبارها المخرج الوحيد لوجود البديل للنظام البعثي، سيما أن من كان يؤيد الاحتلال ويلوح بالحرب كانوا يرتبطون بأجندات غير معلنة ولكن المواقف اتضحت لاحقا وتبينت النوايا التي كانت تتبناها فصائل المعارضة للنظام الفاشي، سيما الإسلامية منها، فكانوا مستبشرين بفكرة الاحتلال ليتسنى لهم الهيمنة على مقدرات البلاد بالاتفاق مع المحتل، وهذا ما حدث فعلا بفرض سيطرتهم وسن قوانين تبيح لتلك الفصائل من الاستحواذ على فرض نظام جديد يخدم مصالحهم بتكريس حالة من الفوضى بحصولهم على الامتيازات في ظل غياب سن القوانين الجديدة التي تخرج البلاد من نظام شمولي الى آخر يكون منفتحا على كل المكونات العراقية واعتماد نظام ديمقراطي حقيقي يعتبر متنفسا حقيقيا للعراقيين الذين عانوا ما عانوه تحت وصاية الحكم الصدامي الشمولي المجرم. لكن البوصلة انحرفت عن مسارها فيما بعد وتحولت البلاد الى شيع وأحزاب بغياب أي تنسيق لقيادة الوضع الجديد من قبل أطراف كانوا بالأمس معارضين للوضع القائم حتى سعى كل طرف لخلق آليات لكسب المغانم لصالحه وإدارة الظهر للفصائل الأخرى وبمباركة المحتل، حتى أوجدوا نظاما طائفيا مقيتا حول البلاد الى حالة من التشتت والعزلة وفرض أحقاد وتصفية حسابات بين اطراف كانوا يسمون بالمعارضة، فغرقت البلاد في فوضى استمرت كل هذه السنين التي أعقبت التغيير وحصل ما حصل، حتى أن العراقيين باتوا لا يميزون من هو الوطني دون غيره، علما أن الإسلام السياسي لا يعترف بوجود كيان جغرافي أسمه وطن، وها هي النتائج الكارثية التي سببها الاحتلال ومن يدافع عنه.

تمر الذكرى العشرون، والأوضاع في العراق تنتقل من سيئ الى أسوأ، تحت نظام محاصصة

مقيت، غلّب القابضون على سلطة القرار مصالحهم الشخصية والسعي لنيل الامتيازات غير المشروعة وإشاعة الفساد والمحسوبية وغياب سلطة الدولة بقوانينها العصرية والتي من شأنها خدمة المواطن قبل كل شيء وإحداث نقلة نوعية في إعادة بناء الوطن الخارج من محارق النظام البعثي ومغامراته القاتلة، والأنكى من كل ذلك غياب السيادة الوطنية ونظام المحاور الذي عاد السمة المميزة، الأمر الذي فتح الأبواب مشرعة للتلاعب بمستقبل البلاد والعبث بمقدرات العراقيين، دون التفرغ لإعادة البنى التحتية المدمرة ولا توزيع عادل لمنح الفرص لكافة العراقيين ولا رقابة حقيقية على ثروات البلد ومقدراته ولا..ولا..

إن الخراب الحقيقي الذي تعرض ويتعرض له العراق بسبب تبعات الاحتلال ووضع سلطة القرار بيد دولة محتلة لتحويل البلد من حالة الى أخرى يدور في فلك الكوارث، هو غياب الدولة ومؤسساتها، وهذا ما سعى اليه ساسة العراق الجدد ممن وضعوا مستقبل العراق ومصير أبنائه بيد الأجنبي ليتحولوا الى آلات لتنفيذ مخططات المحتل. وما يثير الحنق فعلا أن هذه الفصائل والأحزاب والكتل ومن يدور في فلكها بعد أن جاءوا مع المحتل داعمين له ومباركين لأفعاله التخريبية، هم أنفسهم وبصلافة من لا يعي حجم الفعل الهادف لإلغاء فكرة الوطن التي يمارسونها بصلافة وعقوق خدمة لأجندات أجنبية، يطالبون اليوم برحيل المحتل بعد أن غنموا ما كانوا يسعون اليه ويجعلون من العراق البوابة التي يستفيد منها أعداء العراق، ليظهروا وجها ويخفون وجها آخر، وهذا ما احتكموا عليه وتشبثوا به خدمة لمصالحهم الضيقة.

ان كل المساوئ التي يعاني منها العراق والعراقيون اليوم جاءت بسبب الاحتلال ومن يؤيده وبوسائل خبيثة باتت مكشوفة للجميع، بعد أن كنا ننتظر لحظة الفرج للخلاص من النظام القمعي بإيجاد بديل وطني مقبول لتغيير النظام الفاشي، لا باختيار أسهل السبل للإطاحة بالنظام الصدامي على حساب حرب تدميرية أعادت العراق الى قرون من التخلف والتراجع الخطير وبمباركة المحتل.

كانت هناك قبل شن الحرب، حوارات تدور خلف الكواليس، آراء تكون بديلة عن تأييد الحرب وتدمير البلاد، هي تشكيل حكومة منفى وطنية يتفق عليها الجميع وخنق النظام الفاشي بوسائل عديدة وتمكين شخصيات وطنية من الاتفاق على البديل بأقل الخسائر وأسلك السبل، علما أن الجميع يعلم أن شن حرب شاملة ستحرق الأخضر واليابس، وقبل كل شيء تدمير البنى التحتية من ماء وكهرباء ووسائل عيش بسيطة للمواطن، والكل يعلم أنها ستكون حربا طاحنة وتسهيل مهمة دخول قوات معادية لا تعرف الرحمة ولا تتردد في تدمير كل شيء ليتسنى لها فرض هيمنة عسكرية ظالمة دون أن تهتم لنتائجها الكارثية وهذا ما وقع فعلا.

كنا نسمع من بعض العراقيين يزورون بلدانا أجنبية وهم في غاية الانهيار والخوف والحرمان واليأس، وبأنهم مستعدون للترحيب بمجيء الشيطان على أن يبقى نظام صدام المجرم جاثما على صدورهم، لكنهم لم يتوقعوا أن تصل الأمور الى هذه الحالة الكارثية، فكانوا يغلّبون العاطفة على التفكير المنطقي بمساوئ الاحتلال ونتائجه المخيفة. إن الاحتلال لأي بلد مهما كانت مبرراته ومسوغاته، هو تفكيك لبنى تلك الدولة وإخضاعها الى حالة من التشتت والانهيار وسيادة الفوضى وغياب القوانين التي من شأنها أن تبقي على مكوناتها حتى وإن كان بشكل نسبي، وعدم إشاعة الفوضى بكل سوءاتها وبلاويها، وهذا ما حصل للعراق بعد اجتياح الجيوش الأجنبية واطلاق حالات مفجعة لتحويل بلد مثل العراق، بثرائه وقوته ومكانته وهيبته وتأريخه ليكون مهبا للرياح العاصفة وظهور مخلوقات لم يكن يهمها بقاء العراق على وضعه المعروف حتى وإن كان بأضعف حالاته، لتكشّر تلك المخلوقات لاحقا عن انيابها وتفتح حالات من النهب والسرقات وتهديم مؤسسات الدولة التي لم تكن ملكا للطاغية صدام وبطانته، بل المراهنة على حدوث التغيير بأقل الخسائر مع الرفض المطلق بدخول جيوش الاحتلال لأرض العراق وجعلها الآمر الناهي للتلاعب بمقدرات الوطن وخيراته وتفتيت النسيج الاجتماعي لشعبه وتعميق النزاعات بين مكوناته وملله، الأمر الذي سبب صدمة عظيمة ما زالت

نتائجها الكارثية تتعمق يوما بعد آخر وظهور حالات غريبة لم تكن معروفة لدى العراقيين، بل ومرفوضة تماما أشاعت حالات من الفساد والنهب والاستحواذ على مفاصل الدولة من طرف كتل وأحزاب كانت بالأمس تعلن معارضتها للنظام القائم، بل والإعلان الدائم بسعيها لإقامة نظام بديل يحقق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وبسط الأمان لكافة العراقيين.

وهذا الكلام من وعود كنّا نحن المبتلين ببشاعة النظام القمعي وممارساته الإجرامية ممن نفذ بجلده من سياط المحو البعثي قبل حلول الكارثة التي بدأت بملاحقة أحرار العراق الذين لم يسلم من مقاصل البعث إلا القليل، كنا نأمل أن ينهار النظام بين لحظة وأخرى بسبب المغامرات الصبيانية التي أضرت كثيرا بالحرث والضرع والنسل، وبدل أن يراجع الطاغية وأزلامه الأسباب الكارثية بسبب مغامراته، ظل يلوح بالمزيد من الدماء التي لم تشف غليله المريض هو ومن يدور في فلكه من جلادين، تيقنوا أنهم قريبون من نهاياتهم، الأمر الذي لم يعد أمامهم لا هم ولا قائدهم المندحر سوى مواصلة أنهار الدم لأنهم قريبا زائلون، وعطّلوا عقولهم ومحاولة تصحيح مساراتهم رغم مسلسل الخراب الذي أشاعوه بحيث لم يسلم بيت عراقي دون مناحات كانت السمة الغالبة للشعب المظلوم، ولا نريد هنا أن نسرد مسلسل الكوارث التي سبّبها البعث للشعب العراقي المظلوم، دون أن يرف له جفن ودون أن يفكر ولو للحظة بعواقب الدمار الذي بات قريبا من أعناقهم هم أنفسهم، فتحولت حياة الناس الى جحيم لا يطاق، ومع كل هذا البلاء، ظل المستفيدون من عطايا السحت الحرام لقائدهم المندحر من عراقيين وعرب وأجانب يدبّجون المقالات والأشعار والأغاني وينظمون الزيارات مدفوعة الثمن قصد النفخ في قربة القائد المعطوبة ويلوحون بالانتصارات الوهمية والبلاد على حافة الانهيار، فهل يعقل إزاء هذا الركام الهائل من الدمار أن يعطّل الطاغية وأعوانه الأغبياء عقولهم الى هذا الحد من البلاهة وإدارة الظهر لما يحدث خلفهم على بعد خطوات حيث يتواجدون.

بلغ اليأس بالعراقيين حد الاستسلام المطلق لأقدارهم وهم يتطلعون ليوم الخلاص غير مبالين بالفواجع القائمة بسبب اجتياح جيوش الاحتلال لبلادهم، وحصل ما حصل من كوارث يعرفها القاصي والداني.

هنا وبسبب ما كان احرار العراق يحذرون من مجرد التفكير باحتلال بلادهم وما تجلبه من كوارث وهم يقرؤون بنظراتهم الثاقبة النتائج المخيفة لتحويل العراق من حالة كارثية إلى أخرى أشد هولا وأفظع بلاء.

من كان من العراقيين وبسبب حدوث هذا الفراغ أن يتحول العراق الى شيع وأحزاب ومكونات لا حصر لها كنا نخجل من ذكرها، الأمر الذي دفع كل فصيل من هذا التشتت الغريب الى التكالب حتى وصل حد الإحتراب للحصول على المكاسب والغنائم وبسط سلطتهم داخل وطن واحد، بقوة السلاح وخارج سلطة الدولة، بل ويستمر الاستفحال اكثر واكثر حتى وصلنا الى ما يعرف بالدولة العميقة التي هي في الواقع دولة فصائل تخضع لإمرة مجاميع من القتلة والناهبين والسراق، لا نعرف من أين أتوا وما هي أصولهم ومرجعياتهم وأهدافهم المعلنة وغير المعلنة، رغم أن ما يسعون اليه ويتشبثون به بات واضحا للعيان، جاعلين من البلد مرتعا للعبث وحالات كارثية من الفوضى والخراب ,المصيبة الأشد هولا، أن من جاء مع الاحتلال وكسب المغانم بسببه واستقرار الأمور لصالحهم وهم يصولون ويجولون، تتعالى أصواتهم اليوم بخروج المحتل وسن قوانين بعدم مشروعية بقاء الاحتلال، والهدف معروف وشبه معلن، بأنهم يريدون أن تخلو الساحة من أولياء نعمتهم بالأمس من جيوش المحتل بشتى جنسياتهم وتحديدا جيوش العم سام، لفسح المجال أمام محتل آخر يدينون بالولاء والخضوع والخنوع له طائفيا ومذهبيا، لتتحول البلاد لهم وحدهم بامتيازات تنسيهم روح المواطنة التي لا يعترفون بها أصلا، وتمرير كل ما يسعون اليه من استحواذ على خيرات البلاد وثرواته، رغم أنهم أخذوا كل شيء.

أخيرا، يمكننا القول إن من يفكر باحتلال بلده هو متواطئ بامتياز مع جيش الاحتلال، لأن تراب الوطن المقدس لا يمكن أن تدنسه أحذية جحافل العسكر القذرة.

شهادتي عن حرب لم أكن فيها

زهير الجزائري

الحرب مشرعة. مرّة أراها قدر، ومرة أتابع الحراك السياسي الذي يسبقها. الحرب قدر العراقيين منذ الأزل. جدّنا كلكامش نصفه ملك ونصفه إله، يحكم أعظم مدينة، ومع ذلك ذهب إلى الحرب حين لم تأت إليه. غادر مملكته وذهب الى الغابات يبحث عن (خمبابا) ليصارعه فينقذ قدراً مسلطاً على بلاده .أنا الذي ولدت مع الحرب العالمية الثانية وعشت الحروب، ذاهباً إليها أو قادمة نحوي، عرفت بالغريزة أن الحرب قادمة. لا أسلم للقدر وحده، إنما اتابع مقدماتها كما ضربات الزمن الذي يسبق الفاجعة. أتابع الاستعدادات للحرب وأفزع من كثرة الأسلحة.. بوارج في شكل جزر حديدية عائمة والجنود يعبئون بحمية صواريخها الموجهة نحو العراق، حاملات طائرات راكدة في مياه الخليج بينما تقلع الطائرات من على مدارجها الى البلاد التي تختض بانتظار الخراب والموت. ما أهدأ المياه وما أرعب ما تحمل إقوافل من جنود بمعداتهم الكاملة يصعدون الى الطائرات، يسأل المراسل أحدهم على ماذا تدربتم فيجيبه المظلي وهو يصعد سلم الطائرة:

-أن نقتل ونفجر.

الوسطاء والقدر

قبل أن تبدأ الحرب حاول الوسطاء إقناع الدكتاتور بالتنازل لإنقاذ بلاده. أنا الموهم بقدرات العقل على تجنب الكوارث عوّلت كثيراً على تنازله.. سيحل المشكلة من طرفيها، يستقيل وليأتي من يأتي. سيتجنب البديل أخطاء من سبقه ويفتح باباً للاحتمالات.. آنذاك تفقد الحرب ذريعتها ولن تكون قدراً .

بينما تتحشد الجيوش على حدود العراق وهي تصك أسنانها كنت في رحلة صحيفة أفريقية. أردنا أن نلتقي (نيلسون مانديلا). سكرتيرته وكاتبة سيرته (أمينه) أخبرتنا بأنه سيطير غداً فجراً الى بغداد لمقابلة (صدام حسين). الأمين العام للأمم المتحدة (كوفي عنان) كلّفه للقيام بوساطة أخيرة لإنقاذ البلد قبل أن يحترق. بقيت طول الليل أنمّق له أكثر الجمل تأثيرا لإقناع صدام بالتنازل: "ماذا تريد، المجد؟ ها أنا استقلت كرئيس لجنوب أفريقيا، ومع ذلك صرت أيقونة لشعبي وللعالم".. هكذا صنعت لمانديلا منطقاً من مخيلتي ورددت كلماتي بصوت مسموع. نمت وحلمت بصدام جالس على طرف سريره بدشداشة بيضاء مطرق يسمع هذه الكلمات من وسيط.. قبل مغادرتنا جنوب أفريقيا عاودت الاتصال بسكرتيرته لأسألها عن نتائج رحلته فأجابتني: لم يذهب! صديقه عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية حذّره: سيتركك في المطار عندما يعرف طبيعة مهمتك! هذا رجل يعبد

السلطة ويمسكها بأسنانه. لم يسمع صدام توسلات الوسطاء (كوفي عنان، بريماكوف، مبارك، توسلات حافظ الأسد، رسالة الشيخ زايد، محمد علي كلاي..)، إنما اختار الحرب برفضه الذهاب إلى المنفى. جورج دبليو بوش الذي منحه هذا الخيار يعرف أنه قدّم خياراً كاذباً، لأن صدام لن يغادر وسيبقى مطاردا ومختفيا طول عمره ومتنقلا من وكر لوكر. مع ذلك كنت اتابع الوساطات بلهفة وأخدع نفسي وأقول سيتراجعون.. لكن الأخبار تفندني.

الحرب بالنسبة لصدام البعثي كانت كما حددها أستاذه (ميشيل عفلق) اختبار إرادة، وللمتدرب في الجهاز الصدامي والمدمن على الحروب ستبدو المغامرة مجرد (كونة) صغيرة كما وصفها هو بمنطق الشقاوة. مع الشلة المقربة من أولاده تخيل شكل الحرب ورسمها على قفا خريطة مقلوبة. في خطابه المتلفز الأخير يوم 20-3-2003 خرج بشعر فاحم ليس فيه شيبة واحده على سبيل التمويه، ببدلته العسكرية يحمل رتبة مهيب ركن، وعلى صدره أوسمة الهزائم في كل حروبه، في هذا الخطاب يكشف خيبته، فقد بني حساباته على حرب جوية وضربات من بعيدة ولن يكون هناك تقدم على الأرض. وفي النهاية ستنتهي الأمور بمفاوضات تبقيه في السلطة مقابل حزمة تنازلات جديدة. لكنه فوجئ كما يكشف الخطاب بتحول الحرب من ضربات الى غزو. لذلك عوّل كثيراً على الزمن. لم يعد العدوان جوياً فحسب، إنما هناك تقدم على الأرض، وهذا كما اعتقد فرصة للمواجهة البرية، الغرب يريد الحرب قصيرة خاطفة، فاجعلوها طويلة وهنا كما اعتقد تكمن الهزيمة.

B52

أتابع الحرب من مقعد داخل بيتي في لندن وأفزع من قول المعلق العسكري "لم يشهد التاريخ العسكري تجمعا للأسلحة بهذا الحجم ضد مكان واحد". تقلع طائرات B52 من مطار Northholt في لندن على مسافة 20 دقيقة من بيتي في Millet Road. أسمع، أو يخيل إلي صوت إقلاعها وتهز الأرض تحتي كأنها تتوعدني أنا بالذات بصوت القيامة المزلزل. ستستغرق 10 ساعات للوصول إلى بغداد. أحسب الوقت بدقة: متى ستصل أهلي؟ أحسب الوقت بالأمكنة التي تمر فوقها وأفكر بهذا الطيار وهو يقطع رحلة الليل الطويلة كلها عابرا إيطاليا حيث الليل في أوائله في ساحة (بياتزا نافونا) والشوارع التي نام فيها المشردون على الأرصفة مدثرين بأسمالهم بعد حقن المورفين. لا تغري الطيار كل هذه المدن، فالمهم أن يفرغ حمولته هناك ينظرا في ساعته مستعجلا وهو يعبر البحر المتوسط البطيء الساكن، ستبدو سفن السياحة مثل نجيمات مربكة فوق البحر المظلم. بينه وبين الهدف ساعات قليلة.

اقترب الهدف! مدن تتوهج منائرها وقد غصّ المصلون بصلاتهم. يعبر كل هذه المدن نحو مدينتنا المسكونة بالخوف وقد انحشرت الأمهات في أضيق الزوايا والتفت أذرعهن على الأطفال الشاحبين بينما يعبر الآباء الشارع بين القذيفة والقذيفة وقد انغرزت رؤوسهم كالمسامير بين الكتفين، يعبر الطيار كل هذه البحار والمدن وسلاسل الجبال من أجل أن يفرغ 32000 كغم من المتفجرات فوق مدينة مأهولة ثم يعود لزوجته وأولاده. حرب بلا أبطال ولا مواجهات، فالمعركة سيحسمها رجال من الجو يرون أهدافهم ولا يعرفون قتلاهم.

أتابع الاخبار وأنا أصك أسناني، فاخرج لألتقي أصدقائي في الحديقة لأجادلهم. في الحقيقة أذهب لأهاجم دون أن أصغي لحجة الآخر، أعجن الكلمات وانفخ فيها النار لتكون مثل الجمرات، تتعبني الكلمات لأنها البديل عن أفعال العاجز. صديقي (فوزي كريم) راهن على هذه الحرب في إزاحة الدكتاتور الذي عجزنا، نحن معارضيه، عن زحزحة سلطته واولاده على مستقبل أولادنا. أهاجم فوزي كتابة وكلاماً، وفي حقيقة الأمر أهاجم في ذاتي فكرة توشك أن تصدقه.

أنا منقسم على نفسي: ضد كل من يؤيد الحرب وأصل بالنقاش حد العراك: كيف يمكن لمثقف أن يقف مع حرب تدمر بلاده وتقتل أهله؟ وأنا ضد من يعارضونها لأنهم يريدون استمرار الدكتاتور

شـاءوا أم أبـوا.. وفي الحـالتين كنت أعارك وأجادل نفسي بالنقيضين..

وسط الحشد، خارجاً عنه

كل سبت أخرج مع آلاف المتظاهرين في شوارع لندن منددا بالحـرب. كنت واحـداً من عشـرة ملايين شـخص تظاهروا في ثمانمائة مدينة عالمية. تركوا حياتهم العادية وخرجوا للشوارع في 15 شبـاط منددين بالحـرب. لم يحـرك هذا الحشد حزب أو أحـزاب، إنما هو مزيج من كل شيء، على بعد أمتار أمامي رفع ثلاثة شبان علم المثليين الذي يضم كل ألوان قوس القزح. خلفي شاب باكستاني ضخم الجثة، مغطى بالسواد حتى عصابة رأسه، حليق الشاربين بلحية كثيفة تغطي صدره يهتف بصوت عال (سيكون هناك ألف بن لادن)! أسـمعه وأبـتعد عنه منتظراً صرخة (الله أكبر)! على يميني عربـي في خمسـينياته يريد أن يتقـدم المسـيرة حـاملاً صورة صدام التي تعود لأكثر من عشـرين عاما مضت، لا أعرف الذي انتزعها منه "نحـن ندافع عن شـعب لا عن دكتاتور"! في مقـدمة المسـيرة حـاخامات يهود وخلفهم يهودية عراقـية حـملت علم العراق تصرخ (لا تقتلوا أهلنا هناك)! مزيج من نقابيين وربـات بـيوت ومهندسـين وكتاب وممثلين سينمائيين. الحشد يمنحـني الأهمية والمسؤولية كوني من البـلد الذي يتظاهر كل هؤلاء من أجله. أتفهم خوف هذا العالم الديمقـراطي من هيمنة القطب الواحد وفرض الحلول بالقوة، وأشـعر في نفس الوقت بالغضب لأن أحداً لا يندد بالنذل الذي قـادنا من حـرب إلى حـرب وهو يراكم الأوسـمة على صدره والنجوم على كتفـه. فـي جريـدة (المؤتمر) الذي يقوده (الدكتور أحـمد الجلبـي) كتب صديقاً لي مستغرباً كيف أن كاتباً معارضاً يشـارك في مظاهرة يتقـدمها جورج جالاوي. كنت أكثر استغراباً منه، لكنني كررتهاز

حرب العاجز

أعود متعبـاً من الجدل وصراع الأفكار، وأنا في الحقيقة أصارع نفسي، أعود الى التلفزيون باحثاً عن الصور رغم أنها تزيد عذابـي وإحساسـي بالعجز. في شبابي عشت وغطيت حروباً عديدة: حـرب الفلسـطينيين مع الجيش الإسـرائيلي في (غور الصافي) عـام 1969، معـارك المنظمـات الفلسـطينية مع الجيش لأردني أيلول عام 1970، الحرب الأهلية اللبنانية 1975-1982:

حـرب الصحـراء بـين الجيش المغربـي والبوليسـاريو 1980-1983، عامان ونصف 1984-1983 في جبـال كردسـتان.. عرفت الحروب وعشتها بحواسي واعصابي وعقلي. وسط الحروب ينشغل الجسد بـتمارين القـتال والسـلامة، ولن يترك للذهن مجالا للتردد والتأسّي. الحـرب كانت حـولي وتسـتدعي كل حواسي.. علي أن أتسمع صوت القذائف لأدرك مصدرها واتجاهها وأكيّف جسـدي على هذه المعارف التي راكمتها الخبـرة. لا شـيء يحـمينا في الحـرب غير الجدران، وهذه الجدران عدوتنا لأن القصف يستهدفها بالتحديد ولذلك صارت لنا ملجأ وقبرا في الوقت نفسه. أغادر مخبأي بعد سقـوط القـذيفة لأرى الموقـع وأتشـمم رائحـة البـارود والحـريق، ثم أقرر موقـفاً مما يحـدث. موقف أدخل فيه بكل كياني. كنت أعيش الحروب بعضلات جسدي التي تحول خوفي الى أفعال.

هذه الحـرب هي الأكثر وجعا على قلبـي لأنني أشـاهدها ولا أعيشـها. الحـرب الآن أمامي، لكن بـيني وبـينها هذه الشاشـة الرمادية. التلفزيون يقربني من الحرب الى حـافة الملامسـة، بـل أشم هذا الغبـار الأحمر الذي يلف الجنود الأمريكيين الزاحفين نحـو بـلادي. أعرف هذا الغبـار وأكاد اختنق بـه. تتقـدم الدبابـات والمدرعات دون مقـاومة تذكر، الغبـار الكثيف وحـده يعيق تقـدم القوات في الصحراء القريبة من كربـلاء. الجنود الأمريكان تائهين وسـط الغبـار، لا يرون عدواً ليقـاتلوه، غير قـادرين على القـيام بـالمهمات العملية التي كلفوا بـها: ان يقـاتلوا ويتقـدموا نحـو بـغداد. مراسـل(رويترز)Luck Baker الذي رافق فرقـة المشـاة الامريكية 353 يصف كيف أن الجنود بـكل معداتهم الضخمة بقـوا عاجزين وسـط عاصفة الرمال غير قـادرين على التنفس والرؤيا ولا حـتى أكل طعامهم. غابـت عنهم الاتجاهات، يبحـثون وسـط الغبـار عن عدو لا

يروه، غياب العدو يزيد قلقهم. ثمة مفاجأة غير متوقعة. ماهي؟. لا أدري؟
خلال وجودي في أبو ضبي استضافتنا، أنا والشاعر (حميد قاسم) قناتهم الرسمية. كانوا مذهولين بتقدم القوات الأمريكية نحو بغداد. بعصبية المُباغَتْ يسألني المقدم الفلسطيني:
- أين هي قوات صدام؟ (يعددها حسب تقرير أمامه) قدر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية عدد القوات المسلحة العراقية بـ389.000 ، الجيش العراقي 350.000، البحرية العراقية 2000، القوات الجوية العراقية 20.000 والدفاع الجوي 17.000، فدائي صدام شبه العسكريين 44.000، الحرس الجمهوري 80000 واحتياطي 650.000. وتشير تقديرات أخرى إلى أن عدد الجيش والحرس الجمهوري يتراوح بين 280.000 و350.000 و50.000 إلى 80.000 على التوالي، والقوات شبه العسكرية بين 20.000 و40.000. ثلاثة عشر فرقة مشاة وعشرة فرق ميكانيكية ومدرعات بالإضافة إلى بعض وحدات القوات الخاصة..) أين هي؟! يصرخ بي كأني أنا الذي خدعته.

الحزب الذي قارب تعداده السبعة مليونا، أين هم؟

حقا البعث كان التنظيم الوحيد القادر والمعتمد عليه للقتال. لكنه لم يكن أكثر من اداة بيد نظام الفرد الواحد فوق الحزب الواحد. حين غابت القيادة وضاعت الأوامر وجد البعثي نفسه فرداً ضائعاً مثل اي واحد من الرعية. سأستعين بشاهد فقدت اسمه نشرها على الفيس بوك " كنّا مجموعة من المتدينين المندفعين نجتمع كل ليلة عند مجموعة امنية وبعثية يُفترض أنها تراقب القلاقل وتحافظ على الأمن عند بدء الحرب... في 8 نيسان من ذلك العام، تنسحب خلايا الأمن الخاص الموزعة على اركان الأزقة... في 8 نيسان تنسحب خلايا الامن الخاص الموزعة على أركان الأزقة، وينسحب معهم أفراد حزب البعث ... يترك هذا الانسحاب حيرة عميقة في أعين الناس دون شفاههم. ما الذي يجري؟ هل صدر أمر بانسحابهم فعلاً أم أنهم تصرفوا بإرادتهم؟ هل سقط النظام البعثي فعلاً أم انهار موالوه نفسياً ولم يعد باستطاعتهم الانتظار يوماً آخر؟
- العراقيون...
-...
أجيبه بالسكوت. للمرة الثانية، او الثالثة يطرحون هذا السؤال. لا يتعلم الناس هنا من التجارب، فالتجارب هنا تراكم أفقي مفكك، لا يضيف شيئا على ما تحته وما قبله. يبقى السائلون على نفس الأوهام التي بددتها الهزائم، ويبقى ملوك الهزائم على عروشهم في السلطة أو في اوهام الناس، بل يصبح التوهم لذاته ضرورة او تعويضاً عن الضعف والخسارة. أستعين بما قاله صديقي الكاتب سهيل سامي نادر "من كان يستطيع الدفاع عن الدولة الوطنية غير مواطنين أحرار؟ لكن لم يعد هناك مواطنون بل مجرد رعايا.
ما من تنظيم للمجتمع المدني حتى ولو كان بسيطاً كان يستطيع الدفاع عن بقايا الدولة الوطنية ولا عن الميراث الثقافي للعراق، ولا عن إنجازات عشرات السنين المضنية في الصناعة والزراعة والإدارة والصحة والثقافة والعمل. المجتمع الذي تحكمت به قوى الاستبداد ظهر مجموعة من أفراد منعزلين همهم الوحيد الدفاع عن حياتهم".
شعبنا تعب من هذه المتوالية الدموية: حرب خارجية تتغذى وتغذي حرب داخلية للحفاظ على سلطة سميت عسفاً (وطن أو تراب) تتلوها حرب داخلية تعبر الحدود يريد النظام أن يحيلها لعدو خارجي. تنتهي الحروب دائمة بنقطة الصفر وبتنازلات مذلة ليبقى الكرسي الذهبي ويبقى القائد الرمز وخلفه العلم.
أرى وميض لانفجارات تهز الأرض تحتي أنا الجالس هنا في بيتي في Millet Road أخترق زجاج الشاشة الفضية التي تريني جنوداً منسحبين تركوا مواقعهم البائسة أمام الجحيم الزاحف إليهم والمخيم فوقهم. أمدّ يداً عاجزه لأعينهم على النجاة: ليتهدم الحجر! لينزل العلم! الحجر والقماش، كل الرموز، المهم أن يبقى الإنسان الحي القادر على أن يشيد رموزا جديدة أكثر واقعية ويشيد وطنا أقل دموية.

الخلاص من الدكتاتور والدخول في نفق الاحتلال... شهادة بعد ٢٠ عاما

صادق الطائي

مع انتهاء الألفية الثانية، ودخول الأزمة العراقية مرحلة النسيان وغياب الحلول الحقيقية، بدأ العراقي يعيش حالة يأس حقيقي من وجود حل موضوعي ينهي أزمة العقوبات الاقتصادية ليعود العراق الى وضعه الطبيعي، وبذلك أصبحت الحلول فردية هي الحل. والمثال الاوضح كان موجة الهجرة المجنونة التي ضربت البلد وقادت عشرات الآلاف من العراقيين الى دول الجوار اولا، ومنها الانطلاق في رحلة شتات الى مختلف منافي العالم بحثا عن خلاص او هامش عيش كريم. نزيف التسعينات الذي اخرج مختلف العقول والامكانات أفرغ البلد أو كاد من خيرة طاقاته. ومن بقي في الداخل، اقتناعا أو عجزا، بحث بدوره عن حلول شخصية ليتمكن من العيش في ظل النظام الشمولي، مختبئا في هوامش حياة يمكن أن يعيشها دون أن يتعرض لخطر مواجهة الدكتاتور وأجهزته القمعية. بات كل شيء في حياة العراقي قابلا للتدوير، من الكتاب المستنسخ، مرورا بمقابر السيارات والمكائن والمعامل الخردة التي أهملت أو طمرت في سنوات الوفرة المالية، وصولا الى طعام او ملابس العائلة التي كانت الأمهات تقوم بعمليات تدوير ها لتوفير ما يمكن توفيره للأبناء، ومع هذه المحنة والحاجة التي كسرت النفوس كان تلفزيون الشباب الذي يديره ابن الدكتاتور يبث تفاصيل الاحتفالات الباذخة لعيد ميلاد القائد كل عام، القائد الذي بنى في سنوات الحصار أكثر من سبعين قصرا رئاسيا في مختلف مدن العراق.

العقوبات الاقتصادية على مدى ثلاث عشرة سنة نخرت المجتمع، وخلقت فيه حالة غير مسبوقة من الخنوع، وصلت الى حد القضاء على الكثير من مشاعر الانتماء والاعتزاز والفخر بالهوية الوطنية، إذ أصبح الجوع حقيقيا، والعازة لحبة الدواء سيفا مسلطا على رقاب الناس الذين يحاولون تدبير أمور يومهم بمختلف طرق الالتفاف على حالة العوز التي حطمت كرامة الناس. هذه العقوبات التي فرضها المجتمع الدولي على العراق عقابا لنظام صدام على جريمة غزوه الكويت، لم تضعف النظام، ولم تصبه بأذى، بل جعلته يلعب لعبة البروباغاندا وهو يخرج كل شهر طوابير توابيت الأطفال الذين قضوا نتيجة الامراض ونقص الدواء ليكسب تعاطف الرأي العام العالمي، وقد حدث ذلك في كثير من الاحيان، بينما كان رجال النظام الفاسدين يسرقون أدوية السرطان والامراض المزمنة القادمة كمساعدات من الخارج للعراقيين ليتم بيعها في دول الجوار، ولتذهب أموالها وأموال النفط المهرب الى جيوب زبانية النظام والمطبلين له ليعيشوا حالة رفاهية مميزة، بينما العراقي يبحث عن لقمة عيشه. الخوف في عراق صدام كان مترسخا، الخوف من أي شيء، ومن أي شخص، إذ قد يكون واشيا، ينقل كلمة أو ضحكة او نكتة قد تنهي حياة الشخص ويدمر عائلته، هذا الامر بات ديدن العراقي بعد عقود من العيش في ظل نظام شمولي مفرط القسوة، يضاف الى ذلك عدم الثقة بوعود المعارضة العراقية في الخارج التي لم تكن تمتلك القدرات الحقيقية لإطاحة الدكتاتور، وحتى الامريكان لم يكن العراقيون يثقون بوعودهم نتيجة ما حصل بعد اندلاع انتفاضة 1991، عندما كانت قوات التحالف تتفرج على المجزرة التي نفذتها قوات الحرس الجمهوري وهي تدمر مدن العراق المنتفضة على رؤوس ساكنيها ممن خرجوا مطالبين بسقوط الدكتاتور، استجابة لخطاب جورج بوش الاب. برغم الستار الحديدي الذي كان يفرضه النظام الشمولي في العراق، إلا إن العراقيين سمعوا دوي طبول الحرب في الداخل. إذ كان البعض يمتلك الأطباق اللاقطة المهربة التي يتم تركيبها سرا في أسطح المنازل، وتتم تغطيتها بعناية خوفا من العقوبات الصارمة التي فرضها النظام والتي تطال كل من يمتلك "دش"، اذ وصلت العقوبة الى السجن لمدة طويلة ومصادرة البيت الذي يتم فيه تركيب طبق لاقط. كانت القنوات الفضائية تنقل جو الأزمة، والحوارات السياسية الدائرة حولها، كذلك كان بعض العراقيين

يستمعون الى إذاعات المعارضة العراقية التي تبث برامجها من دول الجوار، واعدة العراقيين بقرب إزاحة الكابوس عن صدورهم. المحنة تجلت عراقيا عندما كانوا يواجهون بعض الآراء العروبية والقومية والوطنية المطالبة بالوقوف مع النظام ضد الغزو الخارجي إذا حدث، حتى إن كان نظاما دكتاتوريا ارتكب جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية بحق شعبه، إذ كان الامر بالنسبة للعربي المتفرج، غير العارف بالوضع العراقي، أمرا مفروغا منه، ويجب على العراقيين محاربة قوات الغزو إذا وقعت الحرب، هذا هو المنطق السوي بالنسبة لهم، بينما كان العراقي يعيش محنته وصراعه الداخلي المتمثل بعدم تمكن أحد من إطاحة الدكتاتور سوى المحتل.

الداخل العراقي كان معزولا بشكل شبه كامل عن الحراك الخارجي، وكل ادعاء لفصائل المعارضة العراقية حول وجودها في عراق صدام كان محض خيال او مبالغات، اذ وصلت قوة وسطوة شبكات الأجهزة الأمنية للنظام الى الحد الذي مكنها من اختراق العديد من حركات المعارضة العاملة في الخارج، وقد أفشلت أجهزة النظام الأمنية أكثر من اربع محاولات انقلابية في عقد التسعينات جرى التخطيط لها من قوى عسكرية وسياسية عراقية نسقت عملها مع المخابرات الأمريكية والبريطانية.

العراق في الداخل لم يكن يعرف الكثير عن تفاصيل حراك المعارضة في الخارج، وفي الداخل كانت القسوة المفرطة للنظام قد جرفت الحياة السياسية بشكل شبه كامل، ولم تبق أي نشاط سياسي او نقابي يمكن أن يشار له في عراق صدام. الاسلام السياسي بفرعيه الشيعي والسني كان يحمل على كاهله دماء الاف الضحايا الذين قتلهم النظام نتيجة الانتماء الحقيقي لأحزاب إسلامية او نتيجة الوشايات الكاذبة، والنتيجة كانت وجود هذه الأحزاب في المنافي وفي دول الجوار. أما داخليا فقد عول البعض على حراك أية الله محمد محمد صادق الصدر الذي ظهر في ساحة الصراع السياسي بطريقة اشكالية منتصف التسعينات، وانتهى بعملية اغتيال مع ولديه عام 1999، يضاف الى ذلك تصفية بعض مراجع حوزة النجف في حوادث مختلفة مما خلق شعورا بانسداد الأفق في عين رجل الشارع.

إرث وتاريخ المعارضة السياسية في العراق الحديث منذ الثلاثينات تمثل في الحزب الشيوعي وبعض التنظيمات اليسارية الثورية التي خرجت من عباءته، لكن حتى هذا الحزب العريق الذي تعرض للضربات المتلاحقة من النظام اختفى تأثيره او كاد من الداخل العراقي حتى مع وجود مقراته في كردستان العراق الخارج عن سيطرة وقبضة النظام حينذاك، ولم يبق منه في التسعينات سوى موجة حنين وقصائد وأغاني وإرث ثقافي يحمل الكثير من نوستالجيا الثوريين الحالمين الذين لم يعودوا يمتلكون تأثيرا كبيرا على الارض ،من جانب آخر، الاحزاب الليبرالية او العلمانية التي سمعنا بها ونحن في الداخل قبيل الحرب تمحورت في كتلتين أو حزبين هما: حركة الوفاق الوطني التي يقودها د. اياد علاوي والتي كانت ناشطة بشكل ملحوظ في العاصمة الاردنية عمان، والتي كانت تستقطب الكثير من الكتاب والصحفيين الخارجين من جحيم العراق عبر بوابة طربيل، حيث يشتغل الواصل منهم الى عمان في صحافة الوفاق أو إذاعتها وبالتالي يحصل على ملف سياسي يخدمه في قضية طلب اللجوء التي سيقدمها للأمم المتحدة ليخرج دون عودة.

والكتلة الثانية كانت المؤتمر الوطني العراقي بقيادة السياسي الاشكالي احمد الجلبي، والتي كانت تنشط في العواصم الاوربية مع امتلاكها قاعدة عمل في كردستان العراق، لكن زعيمها احمد الجلبي كانت تطارده الشائعات في الداخل، واعتبر عراب الاحتلال الامريكي إذ وصف بانه العراقي الاقوى في لوبيات الضغط العاملة في واشنطن، وألصقت به معلومة مفادها أنه هو من كان وراء إصدار قانون تحرير العراق في نهاية ولاية الرئيس الامريكي بيل كلنتون او اخر التسعينات، والذي تم تفعيله لاحقا من إدارة الرئيس جورج بوش الابن في عملية غزو العراق. لكن وبأمانة شديدة لم تكن لهاتين الحركتين السياسيتين وجود حقيقي على الارض في الداخل، ربما كانت لهما بعض الصلات ببعض الافراد أو المنتسبين للجيش أو بعض الاجهزة الحكومية، لكن ذلك لا يمثل وجودا سياسيا مؤثرا في الداخل العراقي بشكل ملحوظ.

في نهاية التسعينات أشاع النظام مقولة: "إن الحصار الاقتصادي لن يرفع، لكنه سيتآكل" وسينتهي تأثيره نتيجة صبر العراقيين ومواجهتهم العقوبات الظالمة، وأخذت أجهزة النظام تشن حملات بروباغاندا واسعة النطاق لكسب التعاطف الاقليمي والدولي، وبدأت الوفود الشعبية والنقابية العربية تتقاطر على بغداد للتضامن والعمل على كسر الحصار الاقتصادي والحظر الجوي.مع مطلع العام 2002، عندما أتمت الولايات المتحدة بضربة خاطفة عملية القضاء على امارة طالبان في افغانستان واستعادة بعض الهيبة بعد الجرح الذي سببته ضربات 11 ايلول/سبتمبر 2001. بدا واضحا إن نظام صدام هو الهدف القادم لصقور المحافظين الذين يحيطون الرئيس جورج بوش الابن. الاعلام الغربي عموما والامريكي تحديدا اشتغل على فتح الملفات وتصعيد الازمة مع بغداد بغرض الحصول على غطاء شرعي للضربة القادمة عبر قرار ادانة دولية لنظام صدام على خلفية امتلاكه اسلحة دمار شامل اولا، والتعاون والتنسيق مع تنظيم القاعدة ثانيا، وفي النهاية لم يتم اصدار القرار الاممي، لكن ادارة بوش قررت الذهاب للحرب بدونه.

في الخامس من شباط/ فبراير 2002 قدم كولن باول، وزير الخارجية الامريكي كلمته الشهيرة في الأمم المتحدة ملوحا بأنبوبة اختبار صغيرة تحوي مسحوقا

ابـيض، مدعيا امتلاك العراق لأسلحـة جرثومية ضمن ترسانة اسلحـة الدمار الشـامل التي يمتلكها نظام صدام والتي فشل مفتشو الامم المتحدة في الكشف عنها حتى ذلك الحـين. كما عرض بـاول في تقـريره صورا زعم أنها لمختبرات بيولوجية عراقية رصدتها الأقمار الصناعية، ودافع عن قرار حكومته بشن الحرب على العراق . كانت محـنة العراقـي تتمثل بـانه يريد الخلاص من النظام الشمولي الدموي، لكنه يخشى بطشه ولا يستطيع التحرك ضده، وهو يعلم جيدا أن بـإمكان الولايات المتحـدة إطاحـته، لكن الثمن سيكون الخضوع لاحـتلال أجنبي، وسـتكون المحـصلة النهائية هي الخلاص من الدكتاتور والدخول في نفق الاحتلال، لكن المزاج العام للشارع كان يتعامل بتجاهل ولا مبالاة ملفتة، فلا أحد مستعد للموت في سبيل بقـاء الدكتاتور سـنوات أخرى على عرشـه، وفي نفس الوقت لا أحد يريد دعم المحـتل الذي سيخلصه من الدكتاتور. الخوف المشوب بالأمل بانزياح كابوس النظام الشمولي كان شعورا سائدا في الشـارع العراقي، الخوف مما سيقدم عليه نظام صدام عبر لجوئه لسياسـة الارض المحروقـة، اذ طالما سمع العراقـيون إن صدام لن يسـلم العراق إلا أرضا بلا شعب، لذلك كان الخوف الحقيقي من احـتمالية استخدام صدام لأسلحـة كيمياوية او بـيولوجية ضد قـوات التحـالف التي لن تقف مكتوفة الايدي وسترد بالمثل وسيكون الخاسر الاكبر هم العراقيون.

المفارقـة ان خطة الغزو الاسـتراتيجية نشـرتها وسـائل الاعلام وبعض القنوات الفضائية، وكأن الحـروب لم تعد ذات خطط سرية، بـل أصبحـت أقـرب لألعاب الفيديو، الخطة كانت تتمثل بشكل رئيس بهجوم من جنوب العراق صعودا الى العاصمة دون السيطرة على المدن الرئيسية بـل عبر تحييدها، وكان هنالك شق آخر في الخطة تمثل باستخدام قاعدة انجرليك التركية والنزول من الشمال عبر كردسـتان العراق، لتطبق كماشـة القـوات المهاجمة على القوات العراقية التي وضعت ثقلها المتمثل بفرق الحـرس الجمهوري في محيط بغداد، لكن البـرلمان التركي صوت بالرفض، ولم يسمح لقـوات التحـالف باسـتخدام الاراضي التركية في العمليات العسكرية، لتتحول العمليات كلها الى جنوب العراق فقـط. بـعد تصعيد واضح ومهلة منحـها الرئيس بـوش للرئيس العراقـي صدام حسـين وعائلته ووعدا بـالخروج الامن من العراق، وعرض الشـيخ زايد رئيس دولة الامارات العربية استعداده لاستقبال الرئيس وعائلته، لكن صدام حسـين رفض العرض، في هذه اللحظة بات الكل موقنا إن الحـرب واقعة لا محـالة، لكن ماهي التفاصيل والنتائج؟ لا أحـد يمكنه التكهن بـما سيحصل. النظام العراقي أطلق على الحـرب اسم معركة الحواسم، بينما أسمتها قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحـدة اسم (عملية حـرية العراق)، وابـتدأت العمليات العسـكرية بقـصف الطيران والصواريخ الموجهة الى اهداف مختلفة في العراق في مسـاء 19 آذار / مارس 2003، ثم ابتدأت العمليات البرية يوم 20 آذار / مارس واستمرت أكثر من شـهر بقليل، الاعلام العراقـي ممثلا بوزير الإعلام محمد سعيد الصحاف كان محور الاخبار العالمية بتصريحـاته الغريبـة والمثيرة، واسـتخدامه مفردات غير معهودة مثل توصيف (العلوج) الذي أطلقـه على قوات التحالف.

قـوات التحـالف كانت تتقدم بـوتيرة ابـطأ مما حـدث في افغانسـتان، إذ تأخرت عملية اختراق مدينة ام قـصر جنوب البصرة بضعة ايام، مما اشـاع شعورا بـالتوتر في الشارع العراقي من إن الحـرب لن تكون خاطفة، وربما طال أمدها، وبعد حوالي اسبوع من التحرك شمالا بـاتجاه العاصمة توقفت قوات التحـالف عن تقدمها نتيجة هبوب عواصف ترابية قوية جدا حجبت الرؤية ومنعت تحرك الارتال العسـكرية. بالمقابـل كان الصحـاف يتوعد "العلوج" يوميا بالاندحار والموت على أسوار بغداد.

الشـائعات تداخلت مع الاخبـار، الحقيقـي مع المبـالغة، قصص عن قوة وتطور القوات المهاجمة، يقابلها قـصص وحكايات عن قوة وثبات القوات العراقية، لكن فرق القوة والتقدم التقني الكبير لم يكن يسمح الا بأقل من ثلاثة أسابيع ليفاجأ سكان العاصمة بغداد يوم 3 نيسان/ أبـريل بدبابـات التحالف تتحرك باتجاه مطار بغداد الذي يقع على بـعد 16 كم غرب العاصمة. وهناك دارت واحـدة من أشـرس المعارك، وقد انتهت العمليات العسكرية في محيط بـغداد يوم 8 نيسان/ ابريل ومعها حسم أمر الحـرب، إذ سقطت العاصمة بغداد بيد قـوات التحـالف يوم 9 نيسـان /ابـريل، وتبخرت القيادة العراقية، ومعها مئات الآلاف من قـوات الجيش ومختلف صنوف وتشـكيلات القـوات الامنية والحزبية في العاصمة بـغداد وبقية مدن العراق. اللحظة الفارقة في المحنة العراقية كانت في تقدم الدبابة الامريكية مقتربـة من ساحـة الفردوس حـيث كان يقـيم أغلب الصحـفيين الأجانب في فندقـي شـيراتون وميريديان في قلب العاصمة، وحيث كان الصحـاف يطلق تهديداته قبل ذلك بسـاعات. وشـاء صناع القـرار الأمريكي أن يكون احتلال العراق عبارة عن عملية "شو" تلفزيوني تنقله كل قنوات العالم لتؤرخ به بدء القرن الأمريكي.

العراقـي كان يشـاهد بـعض قنوات التلفزة الايرانية التي كان بثها يصل الى العراق بعد ان توقف البث التلفزيوني العراقـي. والمشـهد: محـاولة بـعض العراقـيين تحـطيم واطاحـة تمثال ضخم لصدام حسين في ساحـة الفردوس، لكنهم يعجزون عن ذلك، فتتقدم الدبابـة الأمريكية وتضع الحبـل في رقبـة التمثال، بـينما يغطي أحـد الجنود وجه صدام بـالعلم الأمريكي، فتتعالى الصرخات مطالبـة بإزاحـة العلم، لتتجلى لحـظة المحـنة بـكل قسـوتها، مع انهمار الدموع، الخلاص من الدكتاتور مقابل الدخول في نفق الاحتلال.

ألا فلنبكِ الرخامَ الجميل

طالب عبد العزيز

في الثالث من يناير من العام 1889 بتورنتو يخرج نيتشه من المنزل رقم 6 الى كارلو البيرتو ربما، ليأخذ نزهة، وربما ليمرَّ على مكتب البريد، حتى يتسلم رسائله، ومن مكان ليس بعيداً عنه، أو بعيد عنه في الحقيقة، كان هناك سائقُ مركبة يعاني من حصانه العنيد. وعلى الرغم من الحاجة الّا أنَّ الحصان يأبى ان يتحرك، لذا، كان على سائق المركبة جوزيه، كارلو، ايتوري أن يفقد صبره، ويخرج السوط ليجلده. يصل نيتشه المكان، ويضع حدّاً لهذا المشهد الوحشي، الذي يقوم السائق به، والذي كان يغلي من الغيظ. في الاثناء هذه، وفجأة يقفز نيتشه الى العربة، وعلى الرغم من مظهره القاسي يُحيط برقبة الحصان بكلتا يديه، وياخذ بالبكاء.. يأخذه جارُه الى المنزل، حيث يستلقي لمدة يومين على الاريكة، صامتاً وهادئاً، حتى ختم صمته متمتماً: أمّي انا أحمقْ. اما الحصان فلا يُعلم عنه شيئاً. من فيلم The turen hors

هكذا، ومثل حصان تورنتو، الذي لم يُعرفْ خبرُه الى اليوم، وعقب ثلاثة أيام من سيطرة الجيش البريطاني على البصرة، أيّ في ظهيرة يوم 24 نيسان 2003 خرجتُ، دونما يقين منّي بمكان العربة (الحلم) حيث تركتُ، فيما أخذ أحدُهم الحصان الى جهة مجهولة، لا أعلم ما إذا كان سيعود به أم لا، لكنني، التقيتُ لؤي حمزة عباس، القاص والروائي، في ساحة ام البروم، بالعشار، كان قد خرج مثلي، أو مثل حصان تورنتو ايضاً، ترك عربة أحلامه في المكان ذاته، ممتثلاً لرغبة في الانعتاق والحرية ورؤية مدينة أخرى، خلت من الحمقى والغاضبين، من القتلة والبعثيين.. لم يكن بيننا موعد، لكننا التقينا، كما لو كنّا خرجنا معاً، أكنا فرحين، مستبشرين؟ لم لا! وفكرة الانعتاق والحرية ماتزال قائمة في رأسينا. ذرعنا شوارعَ العشار طولاً وعرضاً، كانت مقراتُ حزب السلطة والدوائر الامنية ومراكز الشرطة وبقية المؤسسات قد خلت تماماً، اللهم إلا من القطط والكلاب، والقليل من الناس، الذين دفعهم الفضول لمعاينة شيء ما. كان أصحابُ المحال التجارية وأرباب المهن يقفون أمام دكاكينهم المغلقة، تحسباً لأيّ طارئ، والجنود البريطانيون مدججين، يصوبون بنادقهم بكلّ اتجاه، لكنهم يبتسمون

بوجوه المارة، في رسائل طمأنينة واضحة، وكاذبة.. أكثر من حلم وأمنية كانت مدار حديث بيني ولؤي، فقد خضنا في أحاديث كثيرة، مستعرضين المصائر والنهايات، ورحنا نستعرض تجارب عالمية، فذكرنا برلين بعد الاحتلال، والدول التي خرجت من الحرب الثانية، وعرّجنا على تجربة اليابان ودول جنوب شرق آسيا. كان هواءٌ مختلف يهبُّ بين الفينة والاخرى، وبأكثر من صوب وإتجاه، العصافير ما زالت آمنة في بطون الشجر، بحثنا في مقاعد المقاهي المتروكة فلم نلتق بأحدٍ، آخرون لا نعرفهم يتهامسون بأحاديث تشبه حديث العربة والحصان، لم يكن بينهم من نسب لنفسه آلة التغيير، ولم نرَ يافطة لحزب ما، وليس في سماء المدينة راية واحدة ترفُّ، إلا ما تبقى من خيوط العلم العراقي، مخذولاً بعبارة الله أكبر، يقلبه الهواء على بعض المباني الرسمية.

بعد أسبوعين وأكثر ربما، وبالقرب من ساحة الفلاسفة، بالعشار أيضاً، عند المبنى الحكومي القديم وقف شرطيٌّ ينظّم السير، البعضُ ينصاع له، وكثيرون لا يأبهون لإشاراته، التي راحت تطيش في الهواء، رأيته منسجماً مع اللحظة الفارقة تلك، متحرقاً لرؤية مشهد أكثر تحضراً، بعد ذلك بشهر رأيت أكثر من شرطيٍّ في المكان ذاته، أو في أمكنة أخرى، ثيابهم فقيرة لكنهما بابتسامات صادقة، وبلا بنادق ولا مسدسات، يجاهدون في وضع لمسات للنظام في الشارع، والناس تفعل بهم ما كانت تفعله بشرطي المرور. الآنّ عليَّ ان أكون صادقاً أكثر، لأقول بأنَّ المشهد ذاك تعجّلني بالسعادات، فبكيتُ، وانهمرت الدموعُ غزيرةً، داريتها بالخجل فلم أقدرْ، ومسحتها بأقذر المناديل فلم تُوارَ.

أتذكر قولاً لآل باتشينو:" إن بشرة الانسان رقيقة جداً إزاء هذا العالم". بكيتُ لأنني احسستُ ولأول مرة في حياتي بأنني قاب قوسين أو أدنى من الامساك بوطن لي، أستحقه لذا فهو يستحق دموعي أيضاً. شعرتُ ولأول مرة بانَّ الشرطيَّ الواقفَ تحت شمس حزيران من العام 2003 يمثلني، ينتمي لي وأنتمي اليه، وهناك وطنٌ أخذ يتشكل بين أيدينا معاً، ينتظرنا ليكون، لأنَّ انتظارنا له كان طويلاً، وهو موجود فينا، ولا حاجة لابتكاره، أبداً.في فلسفة الكينتوسي يكون الجسمُ الذي يتم ترميمه قد تقبّل ماضيه، لذا، على الانسان ان يتقبل أخطاءه لأنها تظهر أجمل مافيه. وهكذا، وجدتني أمسح عن عيني صورة الشرطي الذي دهم بيتنا في خريف العام 1978 وأخذني من بين يدي أبي.

بعد عشرين سنة على حزيران 2003 كرهتُ الشرطيَّ في معاونية الشرطة القريبة من ساحة الفلاسفة، فقد نهرني، وانا اتوسله استرداد هوية ابني، الذي تآمرت عليه مفرزة النجدة، التي بالبصرة القديمة، وأخذته الى مخفرها، ولم تفلح معه هواتف الضباط الشرفاء، أصدقائي، ولا هوية اتحاد الادباء، خاصتي، بل، ليتني لم أسمع قول أحدهم: الشرطة مخترقة يا أخي! ولا أقوى معك على قول كلّ شيء.لم أشأ أنْ أسأله من أين تم الخرق أو الاختراق؟ لكنّني تذكرتُ هيدغر وهو يقول: اللغة بيت الحقيقة. ثم أنني تذكرتُ ما حدد لي في نقطة الحدود الفاصلة بين العراق العربي وكردستان فقد كان عليَّ أنْ أحتفظ بورقة الاسايش، التي تبيح لي الاقامة هنا، وانْ لا أبقى أكثر مما يسمح لي، في الجبال، وبين الوديان التي دافعت عنها قبل أربعين سنة، لأنَّ عراقيتي ومواطنتي ناقصة هناك. كان بوب ديلان يقول: " لا بأس يا امّاه، أنا انتحبُ فقط." لكنني، ولكي أبدو أكثر تماسكاً صحتُ بصديقي الذي لم تمهله قذيفة الـ RBG7: يا أخي في الوجود المرّ هذا: إنهضْ وسرّ، أياً من عظامك ليست مكسورة.

في العادة، لم ترِدْ عبارة الحكم الوطني مقرونة بالفساد والخيانة، لذا، فالوطني يعني نمط الحكم غير المرتبط بالاجنبي، والعامل لصالح

بـلاده ومواطنيه، وإذا كانت قـوى المعارضة التي حكمت البلاد بـعد العام 2003 لم تطلق على النظام السابق بالحكم الوطني فأنَّ الشعب العراقـي بـرمته يفعل معها اليوم، وهكذا، وجدتني أبحـثُ عن دموع سـعادتي، التي ذرفتها عند رؤية شـرطي المرور ورجل الامن قبـل عشـرين سـنة، يوم خدعتني صورتهما، أو صورة الوطـن الكـذب. الآن يحقُّ لي أنْ أسأل: أبقيا كعهدي بهما، أم أنهما باتا جزءاً من منظومة الحكم (الوطني)؟ أريدُ أنْ أتأكد من الصورة الشوهاء، الملوثة برأسي تلك، وأشير الى يد الرجل، الذي ظلَّ واقـفاً، ينظّم السـير، أبقـيت يده مبـرأة من الدنانير السحـت، والى يد رجل الامن وهي تحـاول احكام قبضتها، عاملةً على حفظ حياة الناس، وتروم خلاص البـلاد من القـتلة واللصوص، أما تزال كعهدي بـها بيضاء؟ أم أنها انسلخت من زمني ذاك، فصارت واحدة من عشـرات الايدي الحـمر، فهي طيعة بـيد المليشـيا هذه مرة، وجريئة بـيد الجماعة المسلحـة ثانية، تنتزع من لحم بني جلدتها فلا تشبع، وتقضم دنانير هذا وذاك فلا تقف عند مبلغ. أقـول هذه وأنا أنظر الى السيارات والمباني والأرصدة التي جناها أبناء الحكم (الوطني) وأصرخُ بـما بـين فكيِّ من القـهر: أمن أجل هذا تقـطعت أجسادُنا في الحروب، وسُحقنا في السـجون والجبهات، أمن أجل اللحظة هذه جعنا وعرينا في البـيوت، أمن أجلها انتظرنا في المنافي أربعة عقـود حـتى يسقـط النظام؟ في كتابـه (الحـفلة التي لا تنتهي) يكتب كريسـتوفر هيتش:" لا تقـف متفرجاً ازاءَ الظلم والغبـاء، سـيوقرُ القبـرُ لكَ كثيرا من الوقـت الكافي للصمت.." وأقول غير خائف من أحد:

لا يوجد طريقٌ أطول من القـدمين، ولا حبـلٌ أعلى من الانسـان. ذلك، لأنَّ سبـعين سـنة مضت من الآمال والآلام، واحـتمالات القـتل بالرصاص أو الموت على الاسرة، ولا أمل لنا جميعاً في فراديسَ غير تلك المفقودة.

قد يصحَّ لنا تقريبُ صورةً ما حدث في العراق خلال العقـدين الماضيين فنقـول هي ملحـمة صبـر الشـعب على هؤلاء، فقد كان هو قـطبَ الاحداث تلك، لكنَّ ملحمته هذه سرقت، سرقها مدّعو بطولات وهميين، أما هي(الملحمة) فبلا أبطال، لأنَّ البـطولة سرقـت ايضاً، وهي تبـاع في سـوق النخاسـة، وفي كل سـوق للخيانة والعمالة والفساد، حـتى لم يعد الشـعب يفرّق بين ما كان قائماً قبل عشـرين سنة وما تلاها. البطولة تزيفت وترذلت وترثثت فهي بـضاعة القتلة واللصوص الآن، وينسبها لنفسه واسرته من مُهْدت الارضُ له بـدماء غيره، وينتزعها من يد غيره من لم يولد لأجلها، ويسـتأثر بـها من لا حـقَّ له فيها، ويدعيها من لم يكن من العراق وناسه بشيء. قد لا يحتمل أحدٌ رائحة الحقيقة الكريهة، لكنها هي كذلك.

لذا، ومن أجل أن أنأى بنفسـي عن هذه وتلك، كان لي ان أتخذ من جذع نخلة أقصى السباخ متكأً، أحدّث انسانيَ فيها بحديث الخيبة والالم والقـوارب الطافية والاشـرعة الهاكلة. فهذه أرض عزَّ على ساكنيها الصبـر، هذه بـلاد يقـرض أمنها قـومٌ لا يؤتمنون، وتفرض قوانينها على ضعفائها، بـينهم من يرفع ذراعه عالياً، مع صوت طبل كبير، بـغيته أنْ يدخلك الرعبَ الذي أدمنتْه، وآخرُ يشجُّ رأسَه بقبضة صاحبه ليُرعبكَ أنت، فلا خير بـمن يجيؤوك بحديث مستلٍّ من كتاب بـالٍ أصفر، لا ليضيئ وجهك بنوره، إنّما لكي تُسلمَ روحك بين يديه، هذه بـلاد إن أحببـتها قـتلتك(ملائكتُها) وإن غادرتها تركتَ عيالك فيها للسبي والمهانة.

لذا، أوصيكَ يا صنويَ الشـاعر، ألا تكتب في صفحـتك، ولا في أيِّ ورقـة أخرى كلَّ ما عنَّ لك، لئلا يقرأ صاحبُ ابنك ما كتبتَ، فيشنّعه عليه، ولا تنشـر صوراً ملونة تضمّك والليلَ والخمرة والنسـاء في المدن الجميلة، فهذا مما لا يليق بـك انسـاناً، وأبـاً بـرهط من الحـفدة والاسبـاط. في الزمن الرديء هذا، أرجوك تجرّأ واحـذفْ صداقـتك مع أخيك وزوجتك

وابنتك وابنك وشقيقه وزميله ورفيقه، لئلا تُحرجَ احداً منهم، ولئلا تصبح عار أهلك كما قال "طارق الشبلي" عن نفسه ذات يوم.
ولأنك ماعدت من المِلّة المجنونة هذه بشيئ، بحسب وثائق هؤلاء وأولئك، وبحسب انحراف قلبك الى اليسار وعينك الى الشمس والنهار سيتوجب عليك السماحَ لأحدهم بأنْ يغرز بيرقاً، أعلى الدار، ولتدعه يخالطُ السماء، وليترامحَ طولياً مع الطير والنخلة ولاقط الانترنيت، ولا بأس بان يعلوها أكثر وأكثر، فهذا زمان يُحترم فيه من علت بيارقُه السود، واتسعتْ مضايفه، وكبرت قدورهُ، ومُلئت بالرز واللحم صِحافه، ومسَّ الارضَ، تبختراً وخيلاءً ذيلُ دشداشته، وتختّمَ بالعقيق وأولادُه، وإزيّنت بالذهب والفضة نساؤه، أما أنت فمن أجل عيون أبنائك، وزوجتك، وكنّاتك، وأحفادك، وأسباطك، من أجل (شرفهم) عليك أنْ تجعل من صوت الدي جي عالياً، ولينشد المنشدُ الكريه ما اقترحوه على أذنيك، ولا بأس بالاثافي والقدور، وبشيئ من الرماد قرب الباب. كان كارل ماركس يقول:" لو كانت الظروفُ هي التي تشكّلُ الانسانَ فمن الضروري حينئذٍ تشكيلَ الظروف لتكونَ الانسانَ".
إيّاك والازرق السمائي من الثياب، فانه لون الموسيقى، وإيّاك والابيض الزهري من الشوق أيضاً، فهو صوت القادمين من المسرات، وإياك والاحمر الاحمر من الآمال، فهو نسيج الحب والثورة في قلبك، كيف لا أقول ذلك وكلُّ جدار في المدينة أسود، وكلُّ الحدائق غبراء منزوعة المباهج، كلُّ الارصفة للبيارق والقتلة واللصوص، فلا تُفزع الشجر بصوت فيروز، واترك المباهج مشنوقة على كتيبة باب الدار، فهذا يوم نهاره لمفارقة الاحبة، وليله للكمد والخذلان، وحاملو المصابيح فيه لا يستعجلون النهار، فقد أضلوا الطريق اليه، هم في سبخة الارض ينتظرون اللحم بالرز، يقدّمه من أبحرت مراكبُه في الخليج، لأنَّ النفط محمول الى هناك، محروس بالبنادق الرسمية وشبه الرسمية، حيث يتسع البحر لكلِّ قائم بالامر وعاطلٍ عنه. ولانهم في لباس التقوى لا تقل لصاحبك: صباحَ الخير، عن أيِّ الصباحات تتحدث، وعن أيِّ بارقة للأمل لم يقتلوا فيك بعد.
أخفِ كيس المكسّرات عن زوجتك، فهي تريدك واقفا مع حشد الواقفين، مُرمِداً بين الأثافي والرؤوس المعصوبة كذباً، توقِد وتنفخ وتبكي وتتجهم. ولكي تكمل حروبك قل لأبنك ألا يضحك، علّمه كيف يراكمُ الدمع في مقلتيه وينحب متى شاؤوا له، علّمه ألا يمشط شعره، وليمتنع عن محاورة طلاب الموسيقى في القسم، وليذهب ضياعُ غرفته الى حديقة أخرى.
في الليالي حالكة السواد، ومن النافذة التي تشرعها، يأتيك صوتُ الطبول، متجرداً من الرأفة، وتنتزعك من مكانك صلصلةُ السلاسل، فهي ترتطم باللحم، تسلخه أحمرَ دامياً، ومن الزجاج ما ينفذ لقلبك من الرعب، فينغلق بابٌ أطلتَ تشرعه للسلام. ومن الباب ذاك يتسلل أحدُهم، وبمدية الى حديقة روحك، أكثرُ من مِديةٍ تشهرُ بين البتلات، والظلام صامت يرين، هناك من أتى بفأسه على مرقاة الامل، وأكثر من واحد لا يأبه لانطفاء المصابيح على العشب.
اتخرج؟ أتتجرأ؟ وأنت شلو رفيفٍ وآس قليل. أرجوك، كن في الغرفة الاخيرة من البيت، وأغلق النوافذ كلها، وإجعل يمينك على يسارك، وظهرك الى بطنك، وأمامك الى خلفك.. وتدثر بقصيدتك الاخيرة، أكمل كتابَ أسمائك، الذي ابتدأته، وأحمل الى وسادتك ما شئت من الاحلام، كنْ في الظلام الأخير. هناك، ففيه من لا يعثر عليك.. وانظر الى مايحدث، لكنْ بالصمتِ الذي تُثقبُ جذورُ النباتاتِ به الارضَ.
كما كان يقول خوسيه ساراماجو. أتلفتُ حولي فلا ارى من فيض التغيير إلا ما غمرني

بقسوته، واتي عليَّ بآلته، فقد فقدت الكثير من الاصدقاء، ماتوا كمداً، أو قُتلوا غيلة، أو غابو هرباً وطمعاً بالنجاة. لم تطل فسحة الحرية التي منحتُ إياها وبني جلدتي- جلدتي في الوطنية والانتماء وحب العالمين أعني- أكثر من سنة او سنتين، فقد استأثر الاشقاءُ الحزبيون بكلّ شيء، وحازوا الدرجات العلى في المال والسلاح والقتل والاقصاء والطرد والجاه والعفونة والمكر والنفاق والسطو والقتل ... حتى انهم لم يتركوا لي فرصة أن أكون، أو أنْ أخون!! أيخون إنسانٌ بلاده؟ تعال أيها الشاعرُ الكبير سترى البلاد نهباً، والخيانة فخرا، والفساد ثقافة، والقتل بطولة وتقربا الى الله، تعال، ستزداد فقراً ومرضا وموتا، وإياك أن تبحث في عيني حبيبتك عن غابة النخل، فقد ولّت والى الابد، لقد أتى حكام المصادفات عليها، وبما بين أيديهم من السندات والثوباتات الكاذبة، فردموا الانهار واقتلعوا الاشجار، ولم تعد المدن تضيق بالنخل والاثل والتوت والسفرجل، هم يؤثرون الحديد والاسمنت على كل شيء..

أما نحن، فلا نقوى على شتم جرّافة واحدة، ولا نحدّثُ أنفسنا بحديث البطولة والمقارعة..

لكنْ، والحق أقول:

لقد مَنحنا الشقاةُ واللصوص والقتلة وعبدة الربِّ الكبير الحرية كاملة في البكاء، بين الاضرحة، التي على الفرات، وفي كل مكان هناك، وضافروا الجهود والجهود، وبما امتلكوا من القسوة والجبروت فتحوا أعيننا على الحياة والموت معاً، لم نمنح الاختيار، لكنَّ بعضنا لم يختر الحياة، والبعض الآخر مجبراً اختار الموت، ثم قالوا لبعضهم: إنَّ أفضل طريقة لجعل زهرةٍ تموت، هي اجبارها على التفتّح بالقوة.

لم نفتح أعيننا، نفتحها على ماذا؟ فأنا اليوم معهم أردد ما قاله بورخيس:" لقد اقترفتُ أكبرَ خطيئةٍ من الممكن أنْ يرتكبها إنسان. أنني لم أكن سعيداً ".

إذا كان العدم -بتعبير أحدهم-هو البداية الاصلية لكل ما هو موجود، فأن الوجود هو القدرة على التفاعل مع الواقع بشكل مباشر أو غير مباشر. وهذا أبحث في العدم فلا أراني، وفي الوجود فلا أرى إلا ما يتهدم ليؤول الى العدم. وحين أردتُ أنْ أطرق باب العدم ذات يوم، لم تستجب الارقامُ لي بإحصاء عدد الشهداء والقتلى المغدورين بالمفخخات والمسدسات الصائتة والكاتمة، فقد رابت الارقام على الارقام، وتداككت الجثثُ على الجثث، وبعثرت القبور قبل النشور، حيث بعثرت، فهالني ما رأيت، قلتُ لأطرقن باب الوجود إذن، علّني أجدُ من يأخذ بيدي الى دارة المباهج والمسرات، حيث تأملت، وهكذا اخذني صاحب المال الى الفنادق الكبيرة والمطاعم الانيقة والبنوك المبردة وسوق الصيارفة والمرابين، المودعين والساحبين، المشترين والبائعين، حملة الدنانير، وعاقدي الصفقات داخل الحدود وخارجها فهالني ما رأيت، فالناس هناك انيقون وببزات مختلفة، يذهبون ويأتون، يقومون ويقعدون، يعرفون بعضهم، ويخشون بعضهم أيضاً، مع أنهم لا يختلفون، لكنهم موجودون، ووجودهم اكبر من عدمنا بكثير، وهم في كل مكان. أما نحن فكثيرا ما نصل المكان الذي ينتظروننا فيه.

ياه، هذا أنا أقول:

لكل من يصادفني من الاحياء: اشتر حصاناً، ولكن لا تذهب.

وأكرر عليه: سعادةُ مِقرعة البيت في انتباهه اهله. وفي ازميل المثال عين لا يُبصرها احدٌ، وفي الخشب روح تنمو بالخدش والقشط، أما السهم الذي اخطأ الرجل فقد ثلم الحجر.

ألا فلنبكِ الرخامَ الجميل..

شمس ودخان ... البصرة تخسر حلمها

علي أبو عراق

مع ساعات الصباح الأولى هبت ريح مثقلة بسحب الدخان الكثيف راحت تكتسح الأجواء، فمنذ دخول القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها غطت سماء البصرة غيمة هائلة سوداء أحالت النهار ليلا في بعض الأنحاء، ما أدخل الكثير من مرضى الربو إلى المستشفيات التي لم تزل تعمل، حرائق اندلعت منذ أيام للإنذار بالهجوم، إذ تم قصف آبار وأهداف نفطية انبعثت منها سلسلة من حرائق ودخان، طائرات التحالف التي تتقدم على الطريق السريع نحو بغداد، ركزت في البصرة على قصف أهداف نفطية وأهداف عسكرية ولم تستثن الأهداف المدنية وبيوت وسيارات سحقها الطيران الأمريكي والبريطاني سحقا، وخلفت المدينة متسربلة بالدمار والدخان الأسود الذي يوزع روائحه الكريهة الخانقة في سماء المدينة للحد الذي يحجب النظر في أماكن أخرى، الأرجاء تكتظ بطوفان من دخان و رصاص وشظايا وهلع، ورائحة الموت في كل مكان تنافس الدخان ، الخراب والدمار لا يتركان بشرا ولا ظلا ولا شجرة ، أوقيانوسيا من الموت المائع المكتسح يزحف على كل الأشياء، كأنه شلال أسود ينهد من أعلى ذروة للفواجع يسيح فيغطي الأفق والجهات بستارة من جزع ونار ، الشباب الشرسون يخوضون متاهات نار كالضباب لاسع كالجمر ، ينهال على أجسادهم وبيوتهم فتلوح في الأفق القريب كارثة محزمة بطيشها مثل مهرة يسبقها الصهيل، ما جعل الكثيرين يلعبون لعبة التخفي تلافيا للوقوع في قلب وشراسة العاصفة ، ويراوغون يمينا وشمالا لتجنب الأسوأ، الانتقال إلى أماكن بعيدة عن مركز المدينة أو تغيير سكن بيوت قريبة من أماكن حكومية مهمة عسكرية أو مدنية، ومع هذه اللوحة القاتمة الضاجة بالموت والخراب والشعور المتزايد بأن الحياة لم تعد تطاق، من بعيد تناهت أصوات دوي عاصف غطت على هدير الطائرات وقصف المدفعية، جاء الصوت متدفقا كالسيل من شمال المدينة، هتافات عالية من جموع غاضبة تتفجر حماسا وعزما، غضب يسيح على الأرض ويصعد للسماء ..أيقظ سكان المدينة الذين خلدوا للنوم قبل قليل بعد هبوب نسمات شحيحة خالية قليلا من سحب الدخان، بعد أيام اصطبغت فيها السماء بلون اسود ساقت فيها ريح شرقية قطعان الدخان غربا، نسمات نقية باردة بعض الشيء جاد بها ليل قاتم، وأنا الرجل اليساري الذي ترنمت طويلا بأغان حماسية وسرديات طويلة عن قبح الاستعمار وبشاعة الامبريالية وقواميس السب والشتم لأمريكا، أنظر بقلق من كوى في سطح بيتنا إلى الأفق الغربي الذي يمطر دخانا أسود صوب الطريق السريع النازل من بغداد الى البصرة، إذ تتقدم الدبابات البريطانية بثبات برتل جبار يبصق الحمم على مركز المدينة وشمالها فيما أنسحب رجال النظام باكرا كل إلى بيته بعد ان نزعوا ملابسهم الكاكية

ورموا أسلحتهم وارتدوا زيا مدنيا كانوا قد جلبوه من بيوتهم تحسبا للقبض عليهم ، كنت قلقا من تكرار تجربة 1991 بعد أن وضعوا المنتفضين بين فكي كماشة وتراجعوا ومنحوا ازلام النظام فرصة ذهبية في قمع كل من تحرك ضد النظام، كنت ارتجف من القلق والهلع من تراجعهم ثانية والسماح بقمع كل هذه الجموع المنتفضة، ولكن بين ساعة من الوقت وأخرى كانت الحشود تتعاظم وتمتد طويلا، و تهرع مدججة بالعصي والأسلحة من كل محلة على الطريق أو منطقة سكنية تلتحق مجاميع جديدة وتنخرط بذات الحماس الهستيري مرددة نفس الأهازيج التي تطالب بإقامة حكم شيعي وإزاحة وقتل الدكتاتور وجماعته:

ماكو ولي الا علي وثريد حاكم جعفري

أدركت حينها، وخصوصا مع هذا الحماس الفائر لهذه الجموع التي لا يربطها رابط سوى النقمة وكره النظام، أن هذه القوات الغازية لن تتراجع هذه المرة وأن صفحة الطاغية ستطوى، ولكن الأهازيج التي كانت في مجملها أهازيج شعبوية دينية متطرفة، جعلتني أتوقف عن الفرح بنهاية نظام الاستبداد، وأن المستقبل مجهول وغير واضح المعالم، خصوصا أن بعضهم كان لا يكتفي بالأهازيج التي تبشر وتطالب بنهاية النظام، بل أن الكثير منهم ينخرط في مواكب اللطم على الصدور والرؤوس وهي ممارسة أو جزء من طقس دأب عليه الكثير من العراقيين ومنعوا من ممارسته طوال حكم النظام السابق، وهو إحياء المناسبات المتعلقة بمحرم ذكرى استشهاد الأمام الحسين ابن علي الأمام الثالث عند المسلمين الشيعة الذين يشكلون غالبية سكان الجنوب والوسط. قلت لنفسي مطمئنا وأنا أنظر لهذه الجموع التي تطلق أهازيج تطالب بحكم شيعي، هي فورة ستخمد، البصرة لا تغير هويتها منذ زمن بعيد تنازعتها أهواء مختلفة لكنها تقاوم كل هذه الدعاوى لحيويتها الاجتماعية وموقعها الجغرافي، مرت بمئات الخرابات ونهضت من جديد، مدينة لا تشيخ ولا تستسلم للأهواء العابرة وللطغاة والدمار .... كأنها منحت سر الخلود .. تصارع الزوال بضراوة، راسخة ومتجددة وحية.. على الرغم من عواصف ومتواليات الموت والانتهاك التي مارستها الطغاة ضدها. لكنها تنهض من جديد وتعود أكثر حياة وقدرة واخضرارا وازدهارا، ثرواتها المتنوعة تجذب الكثيرين من بلدان مختلفة فضلا عن موقعها الجغرافي الاستثنائي الذي يستدعي الحياة ويحرض على الانطلاق، هذه المدينة الجاذبة التي كانت مطمحا للغزاة والفاتحين وعشاق السلطة والثروة عبر كل العصور.

أعاصير

أعاصير الحرب وصخب الجياع تكتظ في قلبي حتى الساعة، إذ بعد أن أطمأنت الجموع الهادرة لسقوط النظام وانسحاب قواته، تدافعت بكثير من الهلع والخوف نحو مخازن السلاح والطعام، وفي محلتي حيث اسكن خرج الناس من البيوت ثائرين والتحق الكثير منهم بهذا السيل الدافق ليصب في الطريق العام الذي يربط بين البصرة وبغداد، نساء ورجال خرجوا من البيوت بعد أن أدركوا أن الطاغية يفقد السيطرة على نظامه وان جيشه تبعثر وأصبح مزقا، تبخر خوفهم وهبت عليهم عواصف الشجاعة، توجهوا إلى مخازن أسلحة في محلتنا، كانت تحتل إحدى المدارس واندفعوا بفوضى عارمة إلى الداخل، وفي دقائق معدودة أفرغوها تماما من كل محتوياتها، بنادق كلاشنكوف ومسدسات والكثير من الذخائر والنواظير الليلية والمسدسات، وخرجوا منتصرين، الرجال يلوحون بالبنادق، والنساء يطلقن الزغاريد كأنه عرس، ولا تعجب إذ ترى يافعا يلوح ببندقية كلاشنكوف، او يدور مسدسا بإصبعه على طريقة الكابوي رعاة البقر. والأطفال يتراشقون بالذخائر المختلفة وينظر بعضهم في النواظير الليلية، كان الجميع منشغلا بإحصاء غنائمه، وبعد ان جاؤوا كتظاهرة منظمة مرصوصة الصفوف تهتف برحيل النظام، رجعوا مبعثرين كل منهم يفحص ما غنم وبعضهم يهزج فرحا، ولا تدري هل كان فرحه بما كسب أو بالجموع الثائرة، تخلف عن هذا الكرنفال جماعة النظام، إذ جلسوا في بيوتهم مذعورين وأغلقوا أبوابهم عليهم في انتظار أسوأ الاحتمالات، لاسيما أن بعض المنتفضين راحوا يطاردون عناصر منهم أو من الشرطة والجيش الشعبي وهم من الذين لهم ثأرات معهم، أو من ما يسمى بكتّاب التقارير للوشاية بالمعارضين أو من الذين الحق ضررا بأحد أو أساء إليه، ورفع تقارير

للحكومة والذين أطلق عليهم (شماشمة)، لاحق بعض المنتفضين والمتحمسين منهم الرفاق الهاربين وقتلوهم دون أدنى رحمة لا حساب ولا محاكمة، بل أحرقت جثة أحد الرفاق وكان بدرجة حزبية رفيعة، وبعد قتله وضعوا على جسده تلا من الحطب وأضرموا النار فيه دون أي تردد أو شعور بالعطف، وبرروا فعلتهم أن هذا الرفيق كان عدوانيا ونكل بالكثيرين بأشكال مختلفة، وبعد أن أفرغ المنتفضون مستودع الأسلحة لم يكفوا عن إطلاق الأهازيج والرقص بإيقاعات حماسية. ومن خلال هذا الصخب انطلق صوت ارتفع فوق ضجة المنتفضين، مشيرا إلى أن المدارس المقابلة التي على بعد 50 مترا فيها أنواع المواد الغذائية، ولم ينتظر الحشد طويلا، هرعوا يتسابقون بخفة نحو المدرسة، وفوجئوا أن الجدران حصينة جدا والأبواب مغلقة بإحكام .. وهناك كان مركز المدينة يموج بالصخب والنار، جلبة وضجيج وفوضى عارمة ومعارك دامية وعمليات سلب ونهب، كانت المدينة تنفث غضبها ونيرانها على الجوع والإهمال والسلطة وكل ما تراكم في رحمها المجتمع من سنين، اقتحموا البنوك وسلبوا خزائنها، وظلت الاوراق النقدية من كل الفئات تتطاير في الشوارع يلاحقها من لم يملك الجرأة للدخول للمصارف، فيما راحت أعداد كبيرة من شباب حزام الفقر في البصرة بكسر المحال التجارية، كانت الأصوات تعلو وتعلو والصخب يصعد للسماء وينزل إلى الأرض، لعلعة الرصاص وزمجرة مدافع أدمنت الثرثرة تكتسح الارجاء، دخان يغطي آفاق المدينة التي ترقص على إيقاع الحرب مدافع وراجمات ورصاص أنساها الصمت، كأنها تدافع عن اتهامها بالجبن والخيانة ولكن بأصوات مبحوحة، تثرثر وتثرثر وتتقيأ نارا وشظايا لتبيد كل من يقف في طريقها، وتخلف حقولا من النار والأشلاء الممزقة، يرتفع الصراخ بين الفينة والأخرى وتتناثر الأشلاء على التراب وتصبغ الثيل الأخضر ببقع حمر من الدم، المشهد ينضح ويلا ورعبا ودما يزيده هلعا صراخا حادا واستغاثات، جنود بريطانيون ينتشرون بكامل أسلحتهم وحقدهم ولكنهم يراقبون فقط دون أي تدخل، وعلى الرغم من كل هذا كان الكثير من الأهالي لا يعبأون بهذا، بل هم في غاية الانشغال في مهمة لا تتوفر لهم دائما، يركضون في كل الاتجاهات ليمارسوا عمليات السلب والنهب بكفاءة عالية كأنهم تدربوا عليها سنين، يهاجمون الدوائر الحكومية والمحال التجارية يجردونها من محتوياتها، ومن السهل أن تصطدم بين لحظة وأخرى بهؤلاء وتعجب من البعض منهم إذ كنت تصنفهم ضمن الأخيار ووجوه المدينة، وليس مصادفة أن تلتقي بالكثير من الرجال والنساء وهم يحملون معدات وأجهزة كهربائية وأغراضا مختلفة، مواد لا يشبه بعضها الاخر: ملابس... مواد إنشائية، قناني وسكي وغيرها . بعد ساعات افرغ هؤلاء مستشفى المدينة الكبير من كل محتوياته، حتى الأسرة والفرش نهبوها وكسرت المحال التجارية وسلب كل ما كان من الممكن حمله، مراوح.. مبردات مكيفات حاسبات وكل ما تحويه الدوائر الحكومية، وقد تمتعت المصارف والبنوك بعدد أكبر من هذه الغارات، إذ رابط بعض لصوص محترفين هناك حتى كسروا باب المصرف وسلبوا محتوياته، واندلعت أمام أبواب المصارف معارك دامية بين اللصوص قتل فيها بعضهم، فوضى عارمة وجلبة مفزعة دون رادع ورقيب.

شمس شاحبة

شمس شاحبة تحتضر كأنها أصيبت بفقر الضوء .. مهزومة تتسلل بصعوبة بالغة من بين ظلال النخيل وتتعثر بالأنهر الصغيرة والكثبان، كانت الأيام بعد سقوط النظام أياما مضطربة قلقة، ورغم شمسها الهزيلة التي لا تخلفُ ظلا إلا أن الوجوه لوحتها الأنواء وأحالتها إلى وجوه سمراء داكنة محتقنة زائغة بسبب التعب تتطلع بجزع نحو السماء، يرعبها عصف الرصاص وطلقات القناصة التي تأتي من كل صوب، فقد انطلق المارد من القمقم والعشائر في ضواحي المدينة واهوارها تعمل على تأكيد قوتها في سلوك ينم عن العنف والعدوانية والرغبة بتأكيد الذات، بحر من صراخ وسيول من دعاء وتراتيل لا تستجاب وضجيج يعم الأرجاء، موتى يتساقطون كالرطب الناضج، عبر تصفية حسابات وملاحقة حزبيين ورجال أمن وعداوات عشائرية وشخصية، أنها رحلة رعب حقيقي وخوف لم نألفه سابقا.

فوضى عارمة

انتهى نظام القمع والاستبداد، وتبخرت دوائر الحكومة التي كانت تفتك بالجميع بسبب او دون سبب وتحاسب حتى على الأحلام فيما لو شمت منها رائحة تتقاطع مع الحكومة، وبعد انهيار النظام وتداعي كل مؤسساته، اتجهت البصرة إلى فوضى عارمة ووقفت على رأسها، تترقب القادم بهلع كبير، خصوصا وان قوات التحالف الغازية، لم تتدخل لإيقاف الفوضى أو مواجهة أعمال العنف التي راحت تستشري في كل مناطق البصرة، وخصوصا شمالها حيث العشائر والاهوار والقيم المبنية على العنف، فالبصرة مدينة مفتوحة للجميع ولا تستجنب أحدا، كانت عشائر شمال البصرة من أشرس المعادين للنظام بسبب تجفيف الاهوار والتي أعقبتها عمليات عسكرية شرسة قتل فيها الكثير منهم وأبادت سبل ووسائل عيشهم مما اضطر معظمهم إلى النزوح لمركز المدينة او مدن أخرى، وبسبب العداء الأزلي بين هذه العشائر والسلطة، أمسك هؤلاء بزمام الوضع الأمني والتحكم في مختلف شؤون الحياة، وخصوصا الوضع الاقتصادي، قطعوا الطرق الرئيسة واكتسحوا أغلب الدوائر الحكومية، وراحوا يمارسون نوعا من الابتزاز على الشركات النفطية وبعض المشاريع التي هي قيد الإنشاء وبعض المقاولين، وحتى الأعداد القليلة جدا من الشرطة الذين عينتهم القوات البريطانية في البصرة لم تكن كافية ولا مؤثرة، إذ لا يستطيع الشرطي أو رجل الأمن، الوقوف بوجه هؤلاء لأنهم يخشون من سطوة العشائر المعتدية، وبدأت أحلام الناس الذين حلموا بالتغيير تذهب إدراج الرياح، وذهبت المدينة التي كانت رمزا للتسامح والألفة إلى مدينة غير حضرية وعشائرية بامتياز، ونسى الناس فيها أنها كانت منذ الاحتلال الأول 1914 مدينة حضرية ذات فعالية، فيها الطوائف والشرائح الاجتماعية واختلاط الأعراق من الزنج والزط والعرب الأقحاح والعرب المستعربة والسريان والموالي والمعدان والهنود وبعض فلول الغزاة الذين تخلفوا عن جيوشهم، تمتزج فيها الأنغام والإيقاعات والعادات واللهجات والعطور والألوان، من حداء البدو وأغاني غارسي النخل والطواشات وأهازيج الصيادين وبحارة المراكب ونداءات المعدان ورطانة الأعاجم، من المسلمين والمسيحيين والمندائيين واليهود وغيرهم، فضلا عن استقبالها لهجرات واسعة من جميع محافظات العراق وخصوصا الناصرية والعمارة ومن الإحساء والقطيف والبحرين، وفي الزبير وفد إليها الآلاف من النجادة من أصول (نجدية) بنوا فيها محلات خاصة بهم وأسسوا تجارة واسعة، لكنهم هاجروا إلى (السعودية) بعد منتصف القرن الماضي ربما بسبب استشفافهم لما يحدث مستقبلا، كما سكنها الكثير من الأرمن بعد المجزرة التي تعرضوا لها أواخر الدولة العثمانية مطلع القرن، وتدريجيا ذابوا في طيف البصرة الواسع وهم أهل حرف واشتهر الكثير منهم بحرفة التصوير، رحل آخرهم الى العالم الآخر قبل شهور، البصرة هي المدينة المدنية بالمفاهيم الديموغرافية والاجتماعية والجمالية، وتنازلت البصرة مكرهة عن كل هذا، واستسلمت لدوامات العنف والقيم العشائرية الغريبة عنها، استشرى العنف والسلب والنهب ليس بعيدا عن أنظار القوات المحتلة او الحليفة، وشرعت عودة الكثير من العراقيين الذين عاشوا في ايران لعقود هذه الفوضى الاجتماعية، فضلا عن جماعات إيرانية دخلت وفق أجندات مرسومة لإدامة الفوضى وإشاعة العنف، إذ بدأت عصابات مسلحة بتصفية كفاءات عراقية تحت ذرائع بائسة لاتهامهم بالانتماء للنظام السابق أو هم من الجيش السابق من الطيارين والقادة العسكريين، الجدير بالإشارة ان القوات البريطانية عينت اثنين من المحافظين على التوالي للبصرة، وهما مزاحم التميمي وبعده القاضي وائل عبد اللطيف، وكانا مجرد أسماء او أرقام لم يفعلا أي شيء البتة. انفرط عقد الأمن والسلام وتحكمت الفوضى والعصابات لشهور، حتى صار منظر الشرطي في الشارع، الشرطي الذي كان مثارا للكراهية والتندر، أصبح مبعثا للبهجة والسرور وشعور خفي بالأمان، تبخرت الأحلام التي حلم بها البسطاء من الناس بعيش رغيد وحرية تحفظ كرامة ومستقبل الإنسان، ولم تستطع خمس دورات من مجالس المحافظات من إصلاح الوضع تماما، ولم تزل البصرة شمس تحجبها الغيوم.

الضباع لا تنتظر طويلاً

قاسم الساعدي

ليس ما قـــد تراه ، الآن ، بحـــرا ، او ضفافا ، هو الســراب ، يا صاحبـــي ، هي الاوهام ، ظلت تراكم بعضها ، حتى علت لتسد قرص الشمس ، وانت انت في شاغل عنا وعنها.

سحب الدخان، الحـرائق والحـروب، أخذت منك، فوق فيما في القلب من الاحتمال، وانت لم تنته بعد لما يشبــه الانتصار.. حـتى الهدنات الشحيحـــة، لم تعطك رفاهة الوقـــت، لتنفض عن كاهليك ما تعلق من غبار وسخام، فما ان تصمت النيران على جبـهة ما، عاجلتك اخرى - كنت تحسبـها صديقـة - بـنار أشد.. حريق ينتهي، كي تشب النار بين الأصابع والضلوع

هذي شغاف القلب، وما تبقى من بنيك ... فلا تنس شيئا مما وضعت على الرفوف: احلامك المؤجلة، كتاب لم تكمل قـراءته، حـجر ازرق وفتاح بـيتك ايضا، فقـد تعود اليه يوما، تعلقـه تميمة او صليبـا، ولكي تقول لنفسك، كلما داهم الشوق؛ كان لي وطن.

من الأســود الى الأزرق الليلي، كان نصيب امي، من دهرها، كما اخواتها؛ فجيعة إثر اخرى، شقـــاء عابـــر لحـــدود المهالك والممالك، والجمهوريات الملكية.

هي الصحراء تحاصر المدن الشحيحة الظل، لتلتقي بحر الرماد ، و بحر المدامع ، وأنقاض حروب دون اسماء، هكذا يكتمل الشقاء..

خارطة تتناقص كل يوم، لما كانت لنا من بلاد..

ذباب ، جراد ، هباء ، قراد ... وباء ، هراء ، بلاء ، رماد ؛ أهذا كل ما تبقى لديك؟

ماذا دهاك ؟

كيف افتقدت نهرك الاول ، بغتة .. و نهرك الثاني ، الثالث ، الرابع ، و العاشر ؟

ومازلت تسامر لصوصا ، لم يبقوا لبيتك شيئًا ، تتبـادل الانخاب ، كريما في عطاياك : للاول دعاء بـطول العمر ، للثاني دماء بـنيك، للثالث بـناتك ، للرابع البترول ، للخامس والسادس شطا وخليج ... بينما اكتفى الآخر بالسماء.

لا صوت السبـايا يطرق سـمعك .. لا الثكالى ، لا الصراخ ولا العويل ، لا دمعة المنفيين عنك ، وفيك.

لا النخل القتيل، يكسر قلبك ، لا نحـيب الهور ، لا الليل، ولا الغبار ولا النهار.

يا اول الحرف ، اول مكتبة ... و كثير من بنيك، لا يفقهون اليوم حرفًا !

ماذا تريد بيتمنا هذا، ماذا قد صنعت بنا، و ماذا قد صنعت بنفسك؟

كانت ميسـان مملكة يخطب ودها الرومان واليونان .. و حدها نينوى ، كانت إمبراطورية العالم!

بغداد عاصمة الكأس والسيف والقلم! اتذكر سومرا؟ انسـيت بابـل ؟ اوروك وابـنها ، وكل الممالك والشواطئ والنجوم ؟

و ها انت : تتطبـق السـماء على جناحـيك ، على بصيرتك الشحيحة ، و على يديك...

فكيف تعيد للروح المعذب ، شـيئا من الضوء ، او بعض جسد؟

من جنوب العالم السحـري، بـصرتك العظيمة ، الى حـدود الأعالي : حقـول انقـاض ، و ما يتركه الموت المنضب، بـوار ، تيجان شـوك ، و ما لا يحـد من الأسـئلة ، عن ورطة الإقـامة، الموت ، والميلاد ؛ بعيدًا عنك ، فيك؟

ايها الشاخص الابدي ، بين فصول الغبار والرماد ، حـــــديد عتيق ، كمثل وجهك في اطار من فراغ

الازمنة
لا الحرب حربك، ولا الهدنات ... لا السلم الملوث بالخديعة، لا الطعان ولا النزال.
انت النجيع المر ، بركة من دم ونفط... رحم صالح للبيع ، للإيجار ، انت.
دروع منزوعة السرفات، براميل نفط، اكوام من خردة و احلام مكسورة ، تل من أحذية مستعملة في مدخل الصالة الرئيسة لقصر النهاية، هي ما تبقى من بنيك، يمضون الى بسالة حتفهم ولم يخلعوك.
عيون اسماك تحدق في مرايا الرمل، راية مزقتها الريح، وصلبان تكفي لألف جيل و جيل...
هذا انت ، كأنك لا احد ، ولا احد يعينك مثل قلبي ، فلماذا هجرتني ، وحيدا على صليب مل مني...
* لم تذرف الدمع على الراحلين الى الحتوف، صبيحة الاعدام ، ولا ما يليق بهم من وداع.
* تركت بنيك من اليهود لأقدارهم ، يخطفون من بين عينيك ، يديك ، الى طريق الجلجلة : مسيحيون ، مندائيون ، ايزيديون ، ملكيون ، يساريون ، عرب ، كرد فيليون ، مسلمون ، و من لا صوت لهم ولا جواز سفر..
* لم تسل يومًا ، عن دمي ، و دم اخوتي ... عن موتنا اليومي ، عن الشقاء...
شعب فائض عن الحاجة ، تناهبته شعاب الأرض من أقصى شمال الارض ، الى الجنوب ، شرقا وغربا.
بناتك، أبناءك ؛ رسموك وشما على القلوب ، و على الضمائر .. لم يهجروك ولم يخلعوك .. اتذكر أسماءهم، اصواتهم ، والوجوه ؟
ذباب الأيديولوجيا، كان يعمي البصائر والعيون، من كان يجرؤ ان يقول لا ، سوى مريديك حقًا !
متلفعا برداء ليس لك، بالحكمة الناقصة، وعند منعطف الكلام ، تعلي من كان يلعق جراحك ، وترد قبلة الساعين اليك ، تشيح بوجهك عن مريديك ، عن الراهنين الدم لاجلك و من رهنوا من اجلك ومن راهنوا بالروح ، ومن ومن ... لعلك قد نسيت!
عد الى الجملة الاولى، لخاطر مايزال فيك طريا، لجرحك الاول ، للنار ، لبساطة الماء والملح ، لانتظار بنيك الى الرغيف ، للقيامة ، لجرعة ماء ، للسلاح يسترون به العورات وقد تكشفت..
فأين أنت الآن مما نرى، ما نريد ؟
سيظل ارتحالنا، نزيفنا المر ؛ منك ، فيك مواسما اخرى، هجرة كالانبياء !

نحن المرميون على حدود المدن البعيدة، مازلنا نتساقط من ثقوب ذاكرتك الوسيعة، يوما بعد يوم ... قل لي: ما يعينك على الوقوف، قل ما تشاء: قوة اليأس، خمرا او قليلا من امل؟
نوح الحمام، نباح الكلاب المعدنية، عويل الثكالى، ام لحن المطر ؟
آه لو كان لي بعضا من لامبالاتك القاتلة، شيئا من صبرك العجيب، قليلا من لا اكتراثك بي...
كي أناديك بعالي الصوت، بين الجبال وبين البراري ، الشواطئ والقفار..
ايها العالي: ماذا تبقى لنا في خوابيك سم ام نبيذ؟
قرار البحر ، ارض بلا طير او سماء ؟
تقول لي ابنتي: كيف السبيل ليكون لي متر واحد من بلاد ابي وامي؟
وماذا ستفعلين بمتر واحد؟ قالت: لارفع اعلى راية في الارض ؛ راية للدمع المقدس ، للمغدورين ، للأمهات ينفقن العمر من اجل ابن سيغادر يوما ، ليقتل او يؤسر في حروب الآخرين ... راية لوطن منفى ، ومنفى وطن ! راية لغد بعيد ، تناوئ الأمل الكذوب ، راية لمجد الفعل .. للجناح الكسير...
كي تبدأ الثورة حالاً .. لا وقت للسلم المدجن، ونعلن؛ هنا البلاد.. هنا الوردة !
وبعد، فماذا تنتظر؟
برابرة جدد؟ حربا اخرى مما قد يجود بها القريب او البعيد؟ مقصلة بارتفاع الكون، تهوي على اعناقنا؟ جوعًا اشد، عطشًا ، ذلة اخرى ! انظر هناك، هم يتجحفلون الان ؛ من عرفت من الذئاب ومن الضواري ، كل تحت رايته البغيضة ، خناجر ، انياب وكل مايلزم للإجهاز على ما تبقى فينا وفيك!
وأنت اعرف بمن خبرت:
الضواري .. لا تجيد .. الانتظار..
فاذكر زمانك فينا، كي لا يسيء اليك احد.
دبابة أمريكية الصنع، وصلت ضفاف دجلة، بالخطأ.. دارت على نفسها.. كشفت مؤخرتها البذيئة
سقطت جيوش، هربت كتائب .. وانتهت بغداد، من سيرة موتها الألف ، الى ما ينهي كابوس بآخر !
عاش الرئيس ... سقط الرئيس !
... آه يا بلد .

نصوص قديمة

البديل الديمقراطي هو برنامجنا*

الفارو كونيال
السكرتير العام للحزب الشيوعي البرتغالي

يعكس الوضع الراهن في البرتغال نتائج العمليات المعقدة والعميقة الجارية في بلادنا خلال السنوات العشر الاخيرة. فمن المعروف أن ثورة نيسان (ابريل) 1974 قضت على الدكتاتورية الفاشية وأقامت نظام حكم ديمقراطي، بيد أنها لم تكتف بإعلان الحريات الديمقراطية وتطبيق نظام سياسي تشكل فيه الحكومة على اساس الانتخابات العامة. فقد صفيت رأسمالية الدولة الاحتكارية والملكية الكبيرة للأرض (بواسطة الاصلاح الزراعي)، فإن الحركة الشعبية الجبارة لم تؤد الى تحولات سياسية حسب، بل والى تحولات بنيوية اقتصادية - اجتماعية عميقة ايضا. ومكن ذلك من فتح الطريق نحو الاشتراكية امام الديمقراطية البرتغالية التي أنجبتها الثورة. وأثبتت الحياة في ما بعد ان الحفاظ على الديمقراطية السياسية والحقوق والحريات في ظروف البرتغال لا ينفصم عن الدفاع عن مكتسبات هامة كتصفية رأس المال الاحتكاري والملكية الكبيرة للأرض، وتأميم البنوك وفروع الاقتصاد السياسية، والإصلاح الزراعي.

هجوم الثورة المضادة

بعد هزيمة الوحدات العسكرية الثورية في نهاية عام 1975 وحل حركة القوات المسلحة بدأت عملية سعت القوى الرجعية من خلالها إلى تصفية المكتسبات الاقتصادية - الاجتماعية الكبرى للشعب. وكان الهدف الأساسي للحكومات التي تعاقبت منذ ذلك الحين انعاش الاحتكارات وإعادة الهيمنة السياسية والاقتصادية للبرجوازية الاحتكارية الكبرى وملاك الأرض، الذين اضطهدوا وقمعوا شعبنا طيلة 48 عاما من الدكتاتورية الفاشية.

إننا نقيّم طابع الحكومة ليس من خلال اسماء الأحزاب الممثلة فيها، بل من حيث جوهر سياستها، وهكذا تحكم البرتغال حكومة حزبين هما الحزب الاشتراكي والحزب الاشتراكي الديمقراطي. فإذا انطلقنا من الاسماء فقط برز أمامنا اغراء وصفها بكونها حكومة يسارية أو في الاقل حكومة وسط. أما في الواقع فإنها ليست مجرد حكومة يمينية، بل انها حكومة نعتبرها نحن الشيوعيين البرتغاليين معادية للثورة. وهذا تقييم قاس، ولكن لدى حزبنا اسباب وجيهة تتضح بعد تحليل الواقع البرتغالي.

لا يمكن فهم الوضع الراهن في البلاد إلا اذا اخذنا في الحسبان كيفية تصفية رأس المال الاحتكاري في البلاد. ففي عدد من البلدان الرأسمالية توجد مؤسسات مؤممة ايضا. وهي يمكن ان تصبح كذلك نتيجة نضال الطبقة العاملة والجماهير الشعبية أو خيار البرجوازية نفسها التي لا ترغب في الاعتناء بالفروع المربحة ولذا تضعها تحت رعاية الدولة. اما في البرتغال فقد تم التأميم على يد الطبقة العاملة والقوى الثورية، التي طردت الرأسماليين ورجال المصارف ووضعت يدها على البنوك والشركات الكبرى وقطاعات الاقتصاد الاساسية واللاتيفونديات الكبرى، حيث اقيمت استثمارات

زراعية جماعية وتعاونيات. وعقب ذلك اقرَّ قانون الاصلاح الزراعي والتأميم. غدت هذه التحولات ميدانا لنضال حاد في السنوات الاخيرة. فمنذ عام 1976 اعتبرت الحكومات المتعاقبة مهمتها الرئيسية تصفية هذه التحولات وإعادة الاحتكارات واللاتيفونديات. بيد ان هذه السياسة اصطدمت بمقاومة الشغيلة البرتغاليين. وبفضل المواجهة الجماهيرية تمت بصورة اساسية صيانة ثمار التأميم والإصلاح الزراعي، على الرغم من الضربات الموجعة التي انزلت بمكتسبات ثورة نيسان (ابريل). صحيح، انه انتزع من المزارع الجماعية والتعاونية اكثر من نصف الاراضي المصادرة، أي 650 ألف هكتار من اصل 1140 ألف هكتار، وانتزع منها 250 ألف رأس من الماشية (بينها اكثر من 50 ألف رأس من البقر)، و 1750 جرارا وقسما كبيرا من المحصول. ولكن بقيت 350 مزرعة جماعية تمتلك حوالي نصف مليون هكتار من الارض. وهذا يعني انه على الرغم من العقبات الهائلة الناجمة عن هجوم الثورة المضادة يتابع الشغيلة تطوير الانتاج ويزرعون المزروعات الجديدة ويعملون على رفع مستوى الزراعة.

ويحاول الرجعيون بكل قواهم تدمير القطاع المؤمم. فيستخدمون سياسة الاسعار والتسليف وأشكال التدخل الاخرى لخلق شتى العقبات في وجه مؤسسات الدولة. وينتزعون منه اكثر ميادين النشاط ريعية لتسليمها الى رأس المال الخاص. ويرغمونها على الحصول على القروض الاجنبية بالدولار، التي ترتفع فوائدها بصورة جامحة بسبب هبوط قيمة العملة المحلية - الاسكودو. ويُعيّن إداريون لقيادتها هدفهم تخريبها، فيقودون المؤسسات المؤممة إلى حالة الإفلاس. والهدف من ذلك إعلان نشاطها "غير فعال" بسبب التأميم، بغية تعليل الدعوات إلى إرجاع البنوك والمعامل والمصانع الى من "يحسن إدارتها"، أي إلى كبار الرأسماليين وممثلي الاحتكارات السابقة المرتبطين بالإمبريالية.

الخطر على استقلال البلاد والنضال في سبيل السلام

إن الدفاع عن المكتسبات الثورية لا ينفصم عن الدفاع ليس عن النظام الديمقراطي حسب، بل وعن استقلالنا الوطني ايضا، لأن الحكومة التي لا تحظى بالدعم الكافي داخل البلاد تسعى في نضالها ضد الشعب الى الاعتماد على القوى الخارجية، وعلى مساعدة الامبريالية الامريكية بالذات. وهي تسدد ثمن هذه المساعدة بالتنازلات الاقتصادية والمالية والدبلوماسية والسياسية والعسكرية، الأمر الذي يشدد قيود التبعية. لا توجد في الاراضي البرتغالية صواريخ امريكية جديدة، ولكن تعاون حكومة سواريش مع واشنطن في الميدان العسكري يصبح اكثر رسوخا. وهذه السياسة تهدد استقلالنا وسيادتنا وامننا.

ويمكن ان ينقلب انضمام بلادنا الى "السوق المشتركة" الى كارثة حقيقية. وقد توصل الحزب الشيوعي الى هذا الاستنتاج بعد تحليل دقيق جدا للعواقب المحتملة لهذه الخطوة بالنسبة لكل قطاع من قطاعات الاقتصاد، ويمكن القول، بالنسبة لكل مؤسسة. فبسبب تخلف اقتصادنا النسبي بالمقارنة مع اعضاء "السوق المشتركة" الآخرين لن يكون بإمكان البرتغال بعد رفع الحماية الجمركية عمليا مواجهة منافسيها حتى في السوق الداخلية. هذه بعض الاسباب الاقتصادية التي توضح سبب معارضة حزبنا للانضمام الى "السوق المشتركة". وقد أشّرنا ان الحكومة الحالية هي كالسابقة في سعيها للتكامل، ترمي الى تحقيق اهداف سياسية معادية للثورة: استعادة المجموعات الاحتكارية وتصفية الاصلاح الزراعي بحجة ضرورة ربط بنية الاقتصاد البرتغالي ببنى اعضاء "السوق المشتركة"، وهم كما هو معروف، بلدان رأسمالية الدولة الاحتكارية.

اننا لا نريد الحكم على ما هو مفيد او غير مفيد لدول "السوق المشتركة"، ولكن فيما يتعلق بالبرتغال لنا كامل الحق في القول بانه ستنجم عن دخولها الى هذه السوق عواقب سلبية للغاية بالنسبة لشعبنا ولمكتسبات الثورة.

ثمة جانب آخر لوضع البرتغال الخاضع نعني به الدين الخارجي. فهذا الدين يزداد بشكل يومي، ويضع البلاد في تبعية متزايدة للمراكز المالية العالمية. ويقارب الدين الخارجي اليوم 16 مليار دولار، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لاقتصاد ضعيف كاقتصادنا. وتضطر البرتغال لدفع فوائد تناهز ملياري دولار في السنة. ويمكن القول بأن مجمل تصدير الحبوب والنبيذ في خلال سنوات ثلاث لا يكفي لتسديد فوائد عام واحد فقط. ان هذا الدين يخنق الاقتصاد الوطني ويقوض مستقبله.

تبين تجربتنا ان صندوق النقد الدولي، اذ يقدم القروض، حتى وان وفر في البداية فرصا معينة، فإنما يفعل ذلك ليفرض فيما بعد شروطا جديدة

ويهيمن على اقتصاد البلاد. فقد طالب صندوق النقد الدولي في البداية البرتغال بتخفيف وتائر نمو اجمالي الناتج الوطني الى 1,2 في المئة سنويا. ويجري دفعها الآن الى الركود، بل وحتى الانحسار بحجة انها الوسيلة الوحيدة لتفادي نمو التضخم. ويفرض صندوق النقد الدولي اسعارا عالية للفائدة تصل الى 30 في المئة. ان هذه القروض الغالية تصيب المؤسسات الصغرى والمتوسطة وتشجع رأس المال الكبير بصورة اساسية. ويتدخل صندوق النقد الدولي في شؤوننا الداخلية مطالبا بتقليص عدد العاملين في المؤسسات التي تعاني مصاعب مالية، وخفض النفقات الاجتماعية و"كبح" الاجور وما شابه ذلك.

وتوافق حكومة سواريش بسرعة على مثل هذه المطالب التي تأخذ شكل الانذار، وذلك لأنها تتفق مع نهجها الخاص الرامي الى تصفية المكتسبات الثورية ولو كان ثمن ذلك انهيار الاقتصاد الوطني والخضوع للامبريالية.

ولذا فان من بين المهام التي تشملها سياسة البديل الديمقراطي ينبغي ان تكون ممارسة نهج اقتصادي جديد يهدف الى توطيد البنى الاقتصادية - الاجتماعية التي أنشأتها الثورة وكذلك اجراء المفاوضات حول الدين الخارجي للبلاد.

ان الدفاع عن نظام الحكم الديمقراطي والاستقلال الوطني يرتبط ارتباطا وثيقا في البرتغال بالنضال في سبيل السلام. ويخوض الحزب الشيوعي هذا النضال في اتجاهين:

أولا، اننا نعمل على تنشيط حركات الجماهير في سبيل نزع السلاح والانفراج، وبصورة خاصة ضد نشر الصواريخ النووية الامريكية الجديدة في أوربا، وضد التنازلات امام الولايات المتحدة في الميدان العسكري كإنشاء قواعد لقوات التدخل السريع والسماح للغواصات النووية بالدخول الى مرفأ لشبونة. وتوجد في البرتغال حركة جبارة للسلام، حيث تجري المظاهرات واللقاءات التي يشارك فيها ممثلو مختلف التيارات الاجتماعية.

ثانيا، يرتبط النضال في سبيل السلام في ظروفنا الملموسة ارتباطا وثيقا بالنضال في سبيل استقالة حكومة سواريش. فالنهج السياسي لرئيس الوزراء، بما في ذلك العلاقات في البلدان الاخرى والموقف من الوضع في "المناطق الملتهبة" من الكوكب - امريكا الوسطى، والشرق الاوسط، جنوب افريقيا - هو نهج يتفق مع مصالح ادارة الولايات المتحدة واستراتيجية الامبريالية الامريكية.

ولذا فان النضال في سبيل السلام في البرتغال لا ينفصم عن الدفاع عن نظام الحكم الديمقراطي، وعن الاستقلال الوطني، وعن النضال من اجل استقالة الحكومة الحالية وفي سبيل البديل الديمقراطي.

من أجل البديل الديمقراطي

تبرر الحكومة سياستها المعادية للثورة زاعمة انها السبيل الوحيد لإخراج البرتغال من الازمة الاقتصادية. بيد ان السنوات المنصرمة اظهرت ان الهجوم على قطاعات الاقتصاد المؤممة، الهادف الى اعادتها الى رأس المال، أدى الى تدهورها واشاعة الفوضى فيها. فالاراضي التي انتزعت من الشغيلة في منطقة الاصلاح الزراعي وسلمت الى كبار الملاك مهملة الآن.

وأدت محاولات اعادة نظام الاستغلال الذي كان قائما في عهد الدكتاتورية الفاشية اكثر من نصف مليون عاطل عن العمل، أو 15 في المئة من مجمل العاملين بأجر. ولا يحصل 150 ألف عامل على اجور عملهم. ويصل التضخم الى 30 في المئة، وانخفضت الاجور الفعلية في العام الأخير، وفقا للمعطيات الرسمية، بنسبة 10 في المئة.

ان نهج تقويض المكتسبات الثورية في البرتغال يقود الى الافلاس والكارثة. لذلك نطالب، كمهمة أولية، باستقالة الحكومة بأسرع ما يمكن وممارسة سياسة البديل الديمقراطي.

الحزب الشيوعي البرتغالي، اذ يدرك كل ما يكتنف الوضع من صعوبة، يؤكد ضرورة ليس فقط الدفاع النشيط والمتسق عن مكتسبات الثورة، بل والانتقال الى الهجوم ايضا. فقد نشأت في البلاد ظروف تسمح بإجراء تحولات ايجابية.

في ظروف البرتغال الخاصة لا يكفي أن تحصل الحكومة على الاغلبية في البرلمان لتقبض على زمام السلطة. فبعد 25 نيسان (ابريل) 1974 تعاقبت عدة "حكومات للأغلبية" اسقطها النضال الشعبي. ففوة الشعب وحجم الحركة الاحتجاجية قادران على هز الاساس الذي تقوم عليه السلطات، وقاعدتها الاجتماعية - السياسية والانتخابية. ويتقلص سند الحكومة مع مرور كل يوم، في حين يصبح اساس النضال في سبيل البديل الديمقراطي اكثر اتساعا. إن نقمة الناخبين الذين اقترعوا لصالح الحزبين الحاكمين، على نشاط هذه الاحزاب تخلق الشروط لإنشاء تشكيلات سياسية جديدة. وتطرح اليوم مبادرات تهدف الى تنظيم حزب مرتبط

بالرئيس، الذي نذكر بان له صلاحية اقالة الحكومة وحل جمعية الجمهورية. ان انشاء هذا الحزب يمكن ان يرتدي اهمية كبرى وحتى حاسمة في تحقيق البديل الديمقراطي. فهو قادر على تغيير ميزان القوى السياسية في البرتغال وتوفير الامكانيات لظهور تحالفات اجتماعية وسياسية جديدة لتحقيق التحولات الديمقراطية.

ان الحزب الشيوعي لا يطمح الى حل قضايا البلاد بمفرده. فسياسة البديل الديمقراطي ينبغي ان تستند من الناحية الاجتماعية الى جميع الطبقات والفئات المناهضة للاحتكارات، وفي المجال السياسي - الى الشيوعيين والاشتراكيين الذين خاب املهم في سياسة سواريش والتيارات الكاثوليكية التقدمية وغير الحزبيّن والمستقلين وكذلك العسكريين الامناء لمُثل 25 نيسان (ابريل) وانصار الجنرال ابانيش الرئيس الحالي للجمهورية الذي يتمتع بهيبة كبيرة بين جميع فئات المجتمع.

ان المهمة الاساسية التي تواجه الديمقراطيين والوطنيين البرتغاليين هي توحيد كل الجهود لتحقيق الهدف الرئيسي المتمثل في استقالة الحكومة وإحلال البديل الديمقراطي، وصولا الى خلق اغلبية انتخابية من جميع الاوساط الاجتماعية والسياسية التي تناضل من اجل هذا البديل. ولا يمكن ان يتحقق هذا الهدف إلا بتصعيد نضال الجماهير في سبيل الحلول الديمقراطية وتوطيد الحزب الشيوعي والحركة العمالية.

الشيوعيون ونضال الجماهير

ان نشاط الشغيلة خلال العملية الثورية كلها هو الذي حتم عمق التحولات المحققة وإمكان الدفاع عنها. ويعتبر حزبنا قوة الجماهير الشعبية بقيادة الطبقة العاملة العامل الاساسي الاكثر أهمية في تطوير الوضع الراهن.

ويرتدي حجم الحركة العمالية أهمية عظمى. ففي البلاد يوجد مركز نقابي حقيقي واحد فقط هو الانترسنديكال الوطني. اذ ان المجموعة الانقسامية الاستفزازية التي يدعمها - بصورة مباشرة وبسخاء - رجال الاعمال والحكومة والاحزاب اليمينية والامبريالية، فشلت في ان تصبح مركزا نقابيا حقيقيا، على الرغم من ان البعض يعتبرها كذلك.

فمن اصل مليوني عضو من اعضاء النقابات هناك 1,6 مليون ينتمون الى الانترسنديكال. وهذه المنظمة العمالية التي لا تقتصر على طرح المطالب الآنية، تضع هدفا لها الا وهو الدفاع عن التأميم والإصلاح الزراعي والمكتسبات الثورية الأخرى، وهي تطالب باستقالة الحكومة.

وتتمثل الحركة الجماهيرية الواسعة كذلك في اتحادات الفلاحين والتجار الصغار والمتوسطين والمثقفين والنساء والشبيبة والافراد الذين يعانون اشد المصاعب، أي المتقاعدين والمقعدين وغيرهم. فالحكومة لا تحظى بتأييدهم. يتباين التوجه السياسي لسكان الريف البرتغالي من منطقة لأخرى تباينا حادا. ففي الجنوب، في منطقة اللاتيفونديات، حيث لم يكن وجود لفئة الفلاحين بالمعنى التقليدي للكلمة مع الوعي الذي يتميز به مالك الارض الصغير، كانت تتركز بصورة اساسية البروليتاريا الزراعية ذات التقاليد الثورية القديمة. وقد اخذ الاصلاح الزراعي هنا طابعا بروليتاريا وليس فلاحيا، حيث أنشئت بدل اللاتيفونديات مزارع جماعية وهي منظمات انتاجية خاصة تختلف عن التعاونيات. وللحزب الشيوعي نفوذ عظيم في هذه المناطق. فنحن نتمتع بالأغلبية في جميع المجالس البلدية باستثناء مجلس واحد.

ويسير خلف الشيوعيين القسم الاكبر من السكان، بمن فيهم ممثلو الطبقات الوسطى في المدن والقرى. أما في الشمال فيختلف الوضع بصورة حادة. فهذه مناطق مميزة للاستثمارات الفلاحية الصغيرة. وتمارس الكنيسة والقوى الرجعية تأثيرا كبيرا هنا، وتحظى الاحزاب اليمنية بتأييد كبير في الانتخابات. ولكن من المميز ان الخارطة الانتخابية لا تتفق تماما مع اصطفاف القوى المشاركة في النضال الاجتماعي والسياسي، فالكثير من الفلاحين الذين يقترعون عادة الى جانب الاحزاب اليمينية يشاركون معنا اليوم ضد سياسة الحكومة. ونعمل على اشراكهم في التحركات الجماهيرية ونجد استجابة واسعة. ولكن اصعب بما لا يقاس هو تجسيد هذا النفوذ في نتائج الانتخابات، اذ يشرف على تنظيمها جهاز الدولة والأغنياء المحليون، الذين يملكون وسائل كثيرة للضغط على الفلاحين. فالمشاركة في النضال اليومي دفاعا عن المصالح الذاتية شيء، والتصويت في الانتخابات شيء آخر. بيد أن نضال الفلاحين يزداد نشاطا. وبدعم من اكثر من 400 منظمة فلاحية مختلفة جرى تشكيل الاتحاد الوطني للفلاحين - وهو اتحاد للفلاحين ذو طابع نقابي والاكثر تمثيلا.

وتضطلع اتحادات النساء التوحيدية بدور كبير. وفي

مقدمتها حركة النساء الديمقراطية، وهي منظمة ذات نفوذ هدفها تحرير النساء اجتماعيا والدفاع عن مصالحهن الاساسية. وتعمل الحركة النسوية داخل النقابات ايضا. وتوجد كذلك اللجان التوحيدية النسوية. ويضم حزبنا 45 ألف امرأة.
وتسدي حركة الشبيبة الكفاحية قسطا هاما في نضال الشعب البرتغالي من اجل السلام والتقدم الاجتماعي. وتضم منظمة الشبيبة الشيوعية 30 ألف عضو. وهي تتقدم بمبادراتها الخاصة وتعمل بنشاط في الجمعيات الجماهيرية والطلابية والرياضية والثقافية وفي ميدان تنظيم اوقات الراحة. وتواجه منظمات الشبيبة مشكلات معقدة تتعلق بالتأثير الايديولوجي للامبريالية الذي يمارس عبر السينما والتلفزيون والموسيقى.
وثمة اكثر من 200 ألف شاب وشابة لم يمارسوا أي عمل بعد التخرج من المدرسة. وغالباً ما يعيش في وضع ميؤوس منه تستغله الدوائر الرجعية بصورة ديماغوجية وتسعى الى ممارسة تأثيرها الأيديولوجي والسياسي فيهم.
ان حزبنا ذلك الفصيل المجرب من فصائل الحركة العمالية البرتغالية، يزداد قوة. ومن بين السمات المميزة للوضع في البلاد ان سنوات هجوم الثورة المضادة لم تؤدِ الى اضعافنا. فبعد 25 نيسان (ابريل) 1974 مباشرة كان الحزب الشيوعي البرتغالي يضم 15 ألف عضو. وفي اثناء مؤتمره الاخير الذي انعقد في كانون الاول (ديسمبر) 1983 تجاوز عدده حدود مائتي ألف عضو. ويرتفع هذا العدد باستمرار. والحديث لا يدور عن مجرد اناس يحملون البطاقة الحزبية، بل عن اناس مناضلين ونشطاء يشاركون بقوة في النضال السياسي. وللحزب نفوذ عظيم في الطبقة العاملة وبين الفلاحين والمثقفين والشباب. وله مواقع راسخة في المنظمات الجماهيرية.
وليس سرا ان الاكثرية الساحقة من القادة النقابيين على جميع المستويات - من الخلايا المحلية حتى المركز - اعضاء في الحزب الشيوعي.
وثمة وضع مشابه في العديد من المنظمات الاخرى. وقد حصل الحزب في الانتخابات البرلمانية الاخيرة على 30 في المئة من الاصوات على صعيد البلاد. ويتمتع الشيوعيون بالاغلبية في المجالس البلدية لخمسين مدينة. وتحكم هيئات السلطة المحلية التي يتمتع فيها الحزب بهذه الأغلبية، في حوالي ثلث اراضي البلاد. واذا اخذنا في الحسبان ان نظام الادارة في البلاد يتسم بلا مركزية شديدة وان الهيئات تتمتع بصلاحيات واسعة، أمكن القول ان حزبنا يمارس تأثيرا كبيرا في جميع ميادين حياة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وان مساهمته في النضال من اجل البديل الديمقراطي ليست ضرورية حسب، بل وإلزامية ايضا.

الآفاق القريبة

ان التعدد البالغ وعدم استقرار الوضع الراهن يدلان على ان البرتغال ستشهد في القريب العاجل تغيرات حتمية ذات طابع ايجابي أو سلبي.
فإذا بقيت الحكومة الراهنة في السلطة فان خطر تصفية المكتسبات الديمقراطية لثورة نيسان (ابريل)- التأميم، الإصلاح الزراعي، حقوق الشغيلة، نظام الحكم الديمقراطي والاستقلال الوطنيين سيبقى ماثلا. وثمة خطر هو قيام دكتاتورية جديدة بهذا الشكل أو ذاك.
أما اذا ادى نضال الشعب الى استقالة حكومة سواريش وهزيمة ائتلاف الحزب الاشتراكي والتقدم على طريق نيسان (ابريل) وحل القضايا الوطنية الكبرى.
يعتقد بعض الديمقراطيين ان هذا البديل يتوقف على نتائج الانتخابات الرئاسية التي ينبغي ان تجري في كانون الاول (ديسمبر) 1985
وفي رأينا ان الشعب لا يمكن ان ينتظر كل هذه المدة، فهذا امر خطير للغاية. فالنضال يجري من أجل اقالة الحكومة الحالية بأسرع وقت ممكن.
ما الذي ينبغي ان يتبع ذلك؟ ربما تشكيل حكومة ديمقراطية للإنقاذ الوطني. وربما تشكيل حكومة لحل القضايا الاكثر إلحاحا، او من المحتمل حل جمعية الجمهورية وإجراء انتخابات عامة استثنائية.
ان نظام الحكم الديمقراطي في البلاد يمتلك القدرة الكافية للخروج من هذه الازمة. ونحن على يقين من امكان العثور على هذا المخرج في مجرى النضال.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 161، شباط 1985، ص 32 - 39**

نصوص مترجمة

العنف الرمزي عند بيير بورديو

جان ـ ميشيل لندري*
ترجمة: نجاة تميم**

مفهوم "العنف الرمزي" هو أحد المفاهيم الرئيسة للموروث "البورديوسي- نسبة الى بورديو/ المحرر". بالإضافة إلى ذلك فقد استطاع عالم الاجتماع الشهير بيير بورديو، من خلاله، رفع الحجاب عن تواطؤ المؤسسة التعليمية في إعادة إنتاج علاقات الهيمنة. إن هذا المفهوم يثبت أنه أداة نظرية قيمة للتفكير في عناد بعض التفاوتات الهيكلية. ويقترح هذا النص تحديد جوانب مفهوم "العنف الرمزي" من أجل فهم خصوصيته وكذلك نطاقه النظري.

1- توطئة

على عكس العنف الجسدي، فإن العنف الرمزي لا يفهم على الفور. في حين يُرى ويُسمع العقاب البدني أو الشجار البسيط بالأيدي. ويبقى العنف الرمزي دائما خفيا وغير مرئي. ومع ذلك يظل اللجوء إلى استخدام العنف الجسدي، وفقا لبورديو، عبارة عن عملية هيمنة مخصصة للأفراد الذين لا يطيعون تلقائيا. أما آثار الخضوع، كما أعمال الإكراه التي تحكم النظام الاجتماعي، فهي تنتج أكثر من العنف الرمزي الذي يتم دمجه في الهياكل المعرفية ويمارس بتواطؤ من ضحاياه

مفهوم العنف الرمزي هو جزء من أسرة الظواهر الرمزية (القوة الرمزية، الهيمنة الرمزية، الثورة الرمزية، إلخ) الذي يسعى علم الاجتماع "البورديوسي" إلى توعيتنا به. يدل كل مفهوم من هذه المفاهيم على أن الأفراد جرت تنشئتهم اجتماعيا بحيث يمكنهم أن يجلبوا لأنفسهم هيمنة خارجية وتعسفية. ولتوضيح آثار العنف الرمزي، يستشهد بورديو بحالة هيمنة الذكور: فعدم المساواة بين الجنسين لا ينبع من الإكراه البدني، بل من نتيجة أنماط تفكير الفاعلين الاجتماعيين في المجتمع (1).

2- الأساليب

يتطلب العنف الرمزي مشاركة المسيطر عليهم في عملية خضوعهم؛ وهذه هي خصوصيته الأساسية والمقلقة. كما أنه يساهم في خلق ذلك

الخضوع. وبما أن أمراً "لا يصبح فعالا إلا من خلال الشخص الذي ينفذه"، فإن العنف الرمزي يتطلب، لكي يُمارس، تواطؤ الفاعل الاجتماعي المستهدَف (2).

كتب بورديو: العنف الرمزي هو ذلك الإكراه الذي لا يتمُّ تأسيسه إلا من خلال تضامن المهيمَن عليه الذي لا يمكنه أن لا يمنحه للمهيمِن، (أي الهيمنة)، وذلك عندما لا يملكُ المهيمَن عليه، لكي يفكر أو يفكر في نفسه أو بالأحرى يفكر في علاقته مع المهيمِن، إلاّ أنماط تفكير مشتركة مع المهيمِن (3).

بيد أن هذه الصيرورة، التي بفضلها يصبح الشخص الخاضع متواطئا في خضوعه، تتميز، مع ذلك، عن علاقة "العبودية الطوعية"، وذلك لأن تواطؤ الفاعل الخاضع هنا لا يأخذ شكل فعل واع متعمد. إن علاقة الخضوع التي تمت عن طريق العنف الرمزي، هي بالأحرى، ثمرة قبول ميكانيكي وغير طوعي ينشأ ضمن أنماط مسبقة من الإدراك.

وللإشارة إلى الجانب اللاواعي وغير التأملي الذي يميز طريقة تطبيق العنف الرمزي، يقول بورديو، بأن هذا الشكل من العنف "مدرج بشكل دائم في أجساد المسيطر عليهم، وذلك في شكل أنماط من الإدراك والتصرفات" (4).

مع هذا، فقد تبدو الوضعية الجسدية لأداء العنف الرمزي متناقضة للوهلة الأولى. في الواقع، كيف لنا أن نفهم بأن السلطة الرمزية تعمل على الجسد، عندما حددنا أعلاه بأنها تعمل بواسطة أنماط التفكير؟ على هذا السؤال، يجيب بورديو بأنه من الضروري قطع العلاقة مع "التقليد الكانتي" الذي يفصل، وبإحكام، الجسد عن العقل لكي ندرك بأن الهياكل المعرفية ليست أشكالا من الوعي ولكنها تصرفات الجسم (5).

ومع ذلك، دعونا نتذكر أن الإشارة إلى الجسد تسمح لبورديو بتحديد أن العنف الرمزي لا يحدث من خلال صيرورة واعية وعقلانية، بل يُمارس من خلال طرق غير واعية تفلت من مصفاة العقل. يحيل مفهوم الجسد في الواقع إلى عملية الدمج التي من خلالها تستثمر القوة الرمزية الجسم وتصوغ وتشكل التصرفات. يقودنا هذا الدمج مباشرة إلى قلب الآلية التي من خلالها ينتج العنفُ الرمزي آثارَه: تقود هذه العملية الفرد إلى اكتساب مجموعة من التصرفات الجسدية التي تتكيف مع مجال نشاطه وكذلك مع الهياكل الاجتماعية المحيطة به.

ولصالح هذه العملية، يتم نسخ الهياكل الاجتماعية في الجسم التي بدورها تبني طرق التفكير والسلوك والتصرف. يقول بورديو أن دينامية الدمج هي تلك التي من خلالها "يستوعب الفرد المظهر الخارجي" (6). فالعنف الرمزي هو محور هذه الدينامية، حيث يجري تحقيقه عندما تدمج العوامل الاجتماعية الهياكل المعرفية التي تُثمنها المجموعة المهيمِنة. وهكذا، يجري تأسيس الهيمنة الرمزية بمجرد أن يتقاسم المهيمَن عليهم مع المهيمِنين أنماط الإدراك والتقدير - والتي بموجبها يدركون كيف يُنظر إليهم، وكيف يَنظرون إلى أنفسهم (7). تحت تأثير هيمنة بهذا الحجم، فإن كل فعل من أفعال المعرفة التي تقوم به المجموعة المهيمَن عليها يأخذ حتما شكل فعل اعتراف بالنظام الاجتماعي المفروض، وبالتالي يأخذ شكل فعل الخضوع (8).

وباختصار، فإن استخدام العنف الرمزي يجعل من الممكن التوفيق بين الهياكل الذاتية للمهيمَن عليهم والهياكل الموضوعية التي تعكس النظام الاجتماعي وعلاقات الهيمنة التي تَمرُّ عبَره.

3- الآثار

العنف الرمزي، كما أكدنا، يولّد آثار الهيمنة. كما أن هذه الأخيرة تترجم تجريبيا عبر مجموعة من إيماءات الخضوع والطاعة. بينما، على عكس العنف الجسدي، الذي ينتج طاعة سريعة الزوال، فإن العنف الرمزي له آثار دائمة؛ إذ الطاعة الناتجة عن هذا العنف الرمزي ليست مخفية أو غير مخلصة، بل صادقة وعنيدة لأنها متجذرة في الهياكل المعرفية للفرد. وبالتوازي، فإن العنف

الرمزي له تأثير على جعل النظام الاجتماعي هذا طبيعيا: وذلك، فبمجرد أن أنماط إدراك الفاعلين الاجتماعيين تتبنى الهياكل الموضوعية للمجتمع، فإن سير الأمور - الذي نعرف أنه تعسفي وناتج عن قوى الهيمنة القائمة - يصبح أمراً مسلّماً به، وعلى أنه بديهي وضروري. ونتيجة لذلك، نلاحظ أن الوضع ينقلب بسهولة فائقة. يقول بورديو: "يكفي أن ندع الآليات الموضوعية تأخذ مجراها أو نسمح لأنفسنا بأن نتماهى معها، لكي نُصدِّق عليها دون أن نعيَ ذلك" (9). وفي هذا السياق، نفهم أنه ما دامت قوى النظام القائم قادرة على ضمان "الاتفاق الانعكاسي المسبق بين الهياكل الموضوعية والهياكل المدمجة"، فإن هذه القوى ستكون قادرة على الاستغناء عن أدوات الإكراه البدني والبروباغاندا - الدعاية (10).

يطلق بورديو مصطلح "الجهل" على هذا الاتفاق الضمني الذي بفضله لا يتم إضفاء الشرعية على النظام الاجتماعي فحسب، بل يتم تطبيعه (جعله طبيعيا) أيضا. إنّ الجهل يرتكز، بهذا المعنى، على قبول "مجموعة من الأساسيات المفترضة [...] التي يتخذها الفاعلون الاجتماعيون ببساطة لتقبل العالم كأمر مسلم به، أي كما هو، كما يجدونه طبيعيا لأنهم يطبقون عليه الهياكل المعرفية المستمَدّة من هياكل هذا العالم ذاته" (11).

وهكذا يتمكن العنف الرمزي، بفضل جهل الفاعلين الاجتماعيين، من جعل هذه الممارسة طبيعية، ونشر وجهة نظر سياسية معينة تحت غطاء الكونية، وهي وجهة نظر المهيمِن. يسترعي بورديو انتباهنا إلى حقيقة أن العنف الرمزي يثير استبعاد مجموعة كاملة من الإمكانيات السياسية والاجتماعية من خلال تقديم ما ينتمي في الواقع إلى النظرة العالمية التي تتقاسمها القوى الاجتماعية المهيمِنة على أنها واضحة ومكتسبة وراسخة إلى الأبد. وتعكس هذه المبالغة في تقدير وجهة نظر المهيمِن توزيعا غير متكافئ للأفكار والخيارات السياسية في الفضاء العام.

وبالإشارة إلى هذا الشكل من المنافسة على توزيع وجهات النظر في مجال النقاش، يقول بورديو، إن الفضاء الاجتماعي يخترقه "صراع رمزي". هناك حد واحد فقط لهذا "الصراع الرمزي للجميع ضد الجميع." هذا الحد هو الدولة.

4- دور الدولة

نظرا لموقعها المركزي في مجتمعاتنا، تلعب الدولة دورا رئيسا في ممارسة العنف الرمزي. وفيما يتعلق بهذا الدور، يؤيد بورديو قول فيبر Weber بأن الدولة تحتكر العنف الرمزي المشروع (12). وباعتبارها هيكلا تنظيميا وهيئة تنظيمية للممارسات، فإن الدولة "تؤسس وتغرس أشكالا رمزية من الفكر المشترك، والأطر الاجتماعية للإدراك أو الفهم أو الذاكرة، وأشكالا من التصنيف الحكومية، أو، بشكل أفضل، الأنماط العملية للإدراك والتقدير والعمل" (13). وهكذا، وبالنظر إلى طريقة ممارسة سلطتها، لا يتعين على الدولة الحديثة توزيع الأوامر، ولا فرض قيود تأديبية لخلق عالم اجتماعي منظم؛ بل يكفي أن "تنتج هياكل معرفية مدمجة متناغمة مع الهياكل الموضوعية وبالتالي تضمن الخضوع الدوكسي) doxique ما هو بديهي وطبيعي) للنظام القائم" (14). من أجل توضيح الدور الأساسي للدولة في تأسيس الهيمنة الرمزية، يشير بورديو إلى التعليم. إنّ مجمل النظام التربوي يبدو تحت قلمه محور مهم داخل نظام يضمن إعادة إنتاج الهيمنة (15). وبحسب قوله، فإن المؤسسة التعليمية تمارس عنفا رمزيا حقيقيا لأنها تساهم في إضفاء الشرعية على موازين القوى التي تخترق الجسد الاجتماعي، مع إخفاء طابعها التعسفي.

فالمدرسة، على سبيل المثال، قادرة على الإقناع على المدى البعيد بأن عدم المساواة في الوصول إلى الثقافة هو حقيقة طبيعية. أيضا يلاحظ بورديو أنه بمساعدة التعليم، تنجح الدولة في إضفاء الشرعية على التسلسل الهرمي

الاجتماعي غير العادل للغاية من خلال فرض تسلسل هرمي تعليمي يفي بنفس المعايير (16).
في كتابه الموسوم، "إعادة الإنتاج"، ذهب بورديو إلى القول أن "كل عمل تربوي هو، بكل موضوعية، عنف رمزي، مفروض كضريبة، من قبل سلطة مستبدة تمارس التعسف ثقافي" (17).

5- فهم العنف الرمزي

وفقا لبورديو، فإن المثقفين هم من بين الأقل قدرة على إدراك العنف الرمزي، وخاصة العنف الذي يمارسه النظام المدرسي. هذا لأنهم تعرضوا أيضا له لفترة طويلة ولأنهم يساهمون يوميا في تطبيقه (18). صحيح أن تلمسَ العنف الرمزي يتطلب جهدا فكريا خاصا. ومع ذلك، فإن الطبيعة الهيكلية لآثاره تجبر العلوم الاجتماعية على إزالة الغموض عن وظيفة عملها. وتحقيقا لهذه الغاية، يقترح بورديو بعض المفاتيح لفهم الديناميات الخاصة للعنف الرمزي. ويُشدّد منذ البداية على أن التقاليد الماركسية -اللينينية والتسوية ليست ذات فائدة، لأن الخوف من هذا الشكل المحدَّد جدا من العنف لا يمكن أن يتم نتيجة "الوعي بهذه الديناميات"، كما يرد عن الماركسية والنسوية: العنف الرمزي، كما ذكرنا سابقا، يتصرف بعيدا عن الوعي ويفلت من سيطرة الإرادة. ويبقى مجرد عبث، وفقا لبورديو، أن نعتبر هذا العنف أيديولوجية وأن نستحضر مجال أفكاره، لأنه يستثمر الجسد ويعمل قدماً عن طريق الإدماج. كما أن المقاربات البنيوية والفينومينولوجية تفشل أيضا في تفسير العنف الرمزي: الأولى لأنها تجهل "البعد النشط للإنتاج الرمزي".
والثانية لأنها فشلت في "إثارة مسألة البناء الاجتماعي لمبادئ بناء الواقع الاجتماعي" (19).إذا لاحظ بورديو أن عمل فيبر بشأن الجانب الإنتاجي للأنظمة الرمزية (الدينية على وجه الخصوص) يفتح مجالا لفهمه، فإن توصيته الرئيسة تتعلق بالحاجة الملحة لوضع حد للتمزق المعرفي الذي يضعنا أمام البديل بين الموضوعي والذاتي. في الواقع، العالم الاجتماعي هو مصدر المعرفة لأولئك الذين هم جزء منه، والذين يفهمونه، ويستوعبهم، فينتجونه، ولكن من وجهة نظر التي يمثلونها بداخله. لذلك لا يمكننا استبعاد percipere و percipiالمدرك والإدراك، المعرفة والكائن المعروف، المتعرف إليه والمعترف به، والذين هم في الأساس نضالات من أجل الاعتراف، ومن أجل السلطة الرمزية، أي من أجل فرض مبادئ التقسيم والمعرفة والاعتراف. لكن لا يمكننا أيضا أن نتجاهل حقيقة أنه في ظل هذه النضالات السياسية البحتة لتغيير العالم عن طريق تغيير تمثلات العالم، فإن الوكلاء يتخذون مواقف، بعيدا عن أن تكون قابلة للدمج، كما تريد المنظورية الظاهراتية - الفينومينولوجية، وهذه المواقف تعتمد، في الواقع، دائما على موقعهم في العالم الاجتماعي الذي هم نتاجه والذي يساهمون مع ذلك في إنتاجه.
ولتحقيق ذلك، يجب أن نسعى جاهدين لدمج الموضوعي والذاتي؛ دمج "وجهة النظر التي تم اكتشافها في الكائن [الذاتي] ووجهة النظر التي يساهم عمل التحليل، من خلالها، في تحقيقه [الموضوعي]" (20).
إن عملية المصالحة هذه بين الموضوعي والذاتي هي، في نظر بورديو، حتمية من أجل التمكن من وصف الحقائق الاجتماعية في حقيقتها المزدوجة (الموضوعية والذاتية)، وهي الضمان الوحيد لفهم حقيقي لظواهر العنف الرمزي.

6- مقاومة العنف الرمزي

في حين أن فهم الآليات الدقيقة التي يمارس بها العنف الرمزي تهمّ المثقف في المقام الأول، فإن أدوات مقاومة هذا العنف تهمّ الجميع.
هنا مرة أخرى، يستحضر بورديو بعض المسارات. فالأول، فكري، ويتمثل في خضوع الأفكار والوقائع الاجتماعية، التي تبدو حتمية

أو تحت ستار الطبيعة، للنقد التاريخي. ويهدف هذا الجهد من التأريخية إلى تحييد آثار تطبيع وجهة النظر السائدة. المسار الثاني للمقاومة الذي يتبعه بورديو فهو غير مكتمل: إنه يقترح السماح للمهيمَن عليهم بالوصول إلى عمل تخريبي ضد النظام الرمزي القائم من خلال المثقفين العضويين، الذين يتقنون النقد وأدوات التعبير العام اللازمة لأي عمل جماعي. وفي حين أن لهذا المسار فعالية سياسية معينة، فإنه لا يصبح ممكنا إلا على حساب تحول رمزي إشكالي، لأن مصالح المسيطر عليهم لا تتطابق دائما مع مصالح المتحدثين الرسميين. ويأخذ المسار الثالث الذي اكتشفه بورديو شكل المدخل: بينما يجادل بأن آثار العنف الرمزي دائمة، ولكنها ليست ثابتة، فإنه يستحضر إمكانية حدوث ثورة رمزية، أي "عمل جماعي يهدف عمليا إلى كسر الاتفاق التلقائي بين الهياكل المدمجة والهياكل الموضوعية" (21). ومن شأن هذه الثورة أن تنطوي على ممارسات "التدريب المضاد" التي تهدف إلى إحداث تحول مستدام في كل من التصرفات الجسدية والهياكل المعرفية للفاعلين الاجتماعيين.

وعموما، يبدو أن المسارات القليلة التي أثارها بورديو تشير إلى أن العنف الرمزي لا يحمل معه حتمية لا رجعة فيها. ويبقى من الممكن، نتيجة للنضال، عكس معنى ممارسته أو عكس آثاره. إن هذا العكس لا يمثل أقل من دعوة لإلغاء كل علاقات الهيمنة التي تساهم في ترسيخ نظام الأشياء".

* عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، يعمل في الشرق الأوسط وأمريكا الشمالية. يجمع بين دراسة الإسلام والعلمانية والقانون والأخلاق لتطوير أنثروبولوجيا سياسية للدين. من بين دراساته "جدلية الاجتهاد، إصلاح قانون الأسرة المنبثق عن الشريعة الإسلامية في لبنان"،2019

** نجاة تميم، أستاذة اللغة الفرنسية. ماجستير بالأدب الفرنسي من الجامعة ليدن/ هولندا (2006). وماجستير بطرق تدريس اللغة الفرنسية من الجامعة نفسها (2009).

الهوامش:

(1)Pierre Bourdieu, Réponses pour une anthropologie réflexive, Paris, le Seuil, 1992, pp. 146-147.
(2)Pierre Bourdieu, Méditations Pascaliennes, Paris, Le Seuil, 1997, p. 243.
(3)Ibid., p. 245.
(4)Ibid., p. 245.
(5)Ibid., pp. 253-254.
(6)Pierre Bourdieu, Le sens pratique, Paris, ?dition de Minuit,1980, p. 214.
(7)Pierre Bourdieu, Méditations Pascaliennes, op. cit., p. 286.
(8)Patrick Champagne et Christin Olivier, Mouvement d'une pensée, Pierre Bourdieu, Paris, Bordas, 2004, p.137.
(9)Pierre Bourdieu, Méditations Pascaliennes, op. cit., p. 262.
(10)Ibid., p. 256.
(11)Pierre Bourdieu, Réponses pour une anthropologie réflexive, op. cit., p.143.
(12)Bourdieu, Méditations Pascaliennes, op. cit., p.268.
(13)Ibid., p. 253.
(14)Ibid., p. 257.
(15)Pierre Mounier, Pierre Bourdieu, une introduction, Paris, Pocket, coll. " La découverte ", 2001, p.133.
(16)Ibid., p.137.
(17)Pierre Bourdieu, La Reproduction, Paris, ?dition de Minuit, 1970, p.18.
(18)Pierre Bourdieu, Réponses pour une anthropologie rréflexive, op. cit., p.145.
(19)Pierre Bourdieu, Méditations Pascaliennes, op. cit., p.252.
(20)Ibid., p. 272.
(21) bid., p. 271 الترجمة عن: Jean- Michel Landry, "La violence symbolique chez Bourdieu", Aspects sociologiques, Le retour à la théorie, vol. 13, nr.1, 2006.

حوارات

الثقافة الجديدة تحاور

الدكتور عامر حسن فياض

قراءة سياسية بعد عشرين عاما على الحرب والاحتلال .. والتغيير

حاوره: سوران قحطان

أ.د. عامر حسن فياض، تولد بغداد - الكرخ عام 1952. حاصل على شهادة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة بغداد عام 1978، وعلى الدكتوراه من ذات الجامعة في تخصص الفكر السياسي الحديث عام 1990.

عميد كلية العلوم السياسية ـ جامعة بغداد 2006 - 2011. عميد كلية العلوم السياسية/ جامعة النهرين 2011 - 2020، وعميد كلية الآمال حاليا.

من مؤلفاته: جذور الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق 1980؛ الظاهرة القومية - مدخل الى الفكر القومي العربي 1997؛ جذور الفكر الديمقراطي في العراق الحديث 2002؛ مقدمة منهجية في الرأي العام وحقوق الانسان 2006؛ اشكالية السلطة في العقل الغربي عبر العصور 2012؛ ولايات الشر المتأسلم 2015؛ العراق وحلم الدولة 2018 .

الثقافة الجديدة: تمرّ هذا العام، وبالتحديد مع صدور هذا العدد من (الثقافة الجديدة)، الذكرى العشرون على حرب العراق. ذكرى انهيار النظام الدكتاتوري والاحتلال.
لقد جاء هذ الحدث، في سياق عالم ما بعد 11 سبتمبر/ أيلول 2001. حينما شرعت الولايات المتحدة إلى جعل الإرهاب البوصلة المحددة لمفهومها عن الأمن الدولي. ففي تلك الفترة، كثيرا ما وصفت أروقة الادارة الامريكية واعلامها حرب العراق بأنها "جبهة مركزية في الحرب على الإرهاب". باعتبار ان النظام العراقي ورأسه يشكلان تهديدا متزايدا على الولايات المتحدة وحلفائها، ويمثلان خطرا على المجتمع الدولي. وذلك لأن التبريرات الأساسية المزعومة لشن الحرب كانت تطوير صدام حسين لأسلحة دمار شامل. وكذلك علاقاته بالقاعدة.
دكتور عامر، في غضون هذه السنوات الطويلة بعد الحرب والاحتلال، ووصول إدارات متنوعة الى سدة الرئاسة الامريكية؛ حدث العديد من التطورات في النظام الدولي، والتوازنات السياسية العالمية في تغيير وتحول دائمين. فالعالم اليوم لم يعد يعيش أجواء الحرب على الإرهاب عام 2001 المشحونة.

ترى ما هي أبرز التحولات في الاستراتيجية الامريكية خلال هذين العقدين؟ وما هي التغييرات التي طرأت على موقع العراق بالنسبة للولايات المتحدة في ظل هذه التحولات؟ وكيف اثر كل هذا على الدور الذي تلعبه أمريكا في العراق والمنطقة؟

د. عامر: من حيث المبدأ ومنذ نهاية الحرب الباردة وانهيار تجربة الاتحاد السوفييتي السابق، ليس هناك تحولات استراتيجية في السياسة الأمريكية تجاه العالم، فالثوابت هي ذاتها وعنوانها زعامة العالم انفراديا والمصالح الأمريكية أولاً وأمن إسرائيل، بيد أنها تشهد متغيرات لا تلغي هذه الثوابت. وعلى هذا الأساس فإن الإدارات الأمريكية المتعاقبة أحسنت توريط الآخرين سواء حلفاء أو شركاء أو خصوم أو أتباع في الحروب والفتن ونهب ثروات الشعوب وصناعة رجال صدفة عبر يافطات مضللة لشيطنة هذا الطرف ورحمنة ذاك الطرف بحجة الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وبذريعة مكافحة الإرهاب على حساب تدمير كل ما له صلة بالدولة الوطنية. وقد كان العراق من الأطراف التي أحسنت التورط وعاشت التدمير بالاحتلال وحكم الديمقراطية بلا ديمقراطيين !
اي عالم نعيش في ظل عولمة متوحشة حيث عسكرة المياه بسلاح التعطيش، وعسكرة الكهرباء بسلاح القطع وعسكرة الانتقال بسلاح النزوح والتهجير وعسكرة القوت بسلاح حرق الزرع وعسكرة بطون الشعوب بسلاح التجويع وعسكرة الصحة بسلاح منع وصول الدواء وعسكرة المعابر بسلاح السرقة والفساد وعسكرة المرافئ بسلاح التفجير !!.
اي عالم نعيش وقد اصبحت النقاوة السياسية النظيفة المتمثلة بالديمقراطية والحريات نقاوة وسخة متمثلة فقط بالليبرالية الرأسمالية المتوحشة.. واصبحت النقاوة الدينية النظيفة المتمثلة بالتسامح والتعايش ما بين الاديان نقاوة وسخة متمثلة بصراع الطوائف وغلبة الطائفية الجهوية الضيقة. واصبحت النقاوة الحضارية المتمثلة بالأمم نقاوة وسخة متمثلة بالعنصرية القومية !!.
اي عالم نعيش ونحن ابتلينا ومبتلون الان بثقافة عولمة متوحشة جعلت من بلدان تحت الاحتلال ترفل بالانفتاح ومن بلدان ترفل بالاستقلال تعاني من العزلة والحصار!! ونحن ابتلينا بساسة رفعوا رايات الاستقلال دون ديمقراطية ومبتلون الآن بساسة يرفعون رايات الديمقراطية بلا استقلال.. وابتلينا بساسة حريات معدومة ومبتلون الآن بساسة حريات منفلتة.. وابتلينا بمستبد واحد في وطن واحد ومبتلون الآن بمستبدين في وطن واحد!! ابتلينا بإنتخاب متسلط واحد على كل الرقاب المتنوعين ومبتلون الآن بإنتخاب المتسلطين على رقاب تنوعاتهم!! وابتلينا بالقتل من الطرف الاول الرسمي الحكومي ومبتلون الآن بالقتل من الطرف الثالث الغامض المتخفي غير المعروف!! ابتلينا من حصارات البراني ومبتلون الآن من حصارات براني وجواني!!

ابـتلينا في عالم الامس بقسـوة العيش في ماض يكره الحـاضر ومبـتلون اليوم في العيش بقسـوة حاضر يكره المستقبل !!. اي عالم سياسي نعيش حيث تشويه الحق (القضية الفلسطينية) وتلميع البـاطل (التطبـيع مع العدوانية الإسـرائيلية) لشـيطنة كل ما له صلة بالقـضية الفلسـطينية ورحـمنة كل ما له صلة بـالعدوانية والعنصرية الصهيونية!! عالم يسـكت عن ضم ارض وعن طرد ونزوح والغاء شـعب ويصرخ للتعمير بالمستوطنات في ارض محتلة!! عالم الطوابير الخامسة التي بعد ان كانت ساكتة اصبحت مطبلة لمعزوفة شـيطنة فلسـطين ورحـمنة الكيان الصهيوني المحتل لفلسطين !!.

نعم بالفواجع والمآسي والكوارث تتدافع وتتوحد كل طاقـات ابـناء الأوطان إلا اوطان العرب وطبقـاتهم السياسـية المتنفذة فأنهم يتبـاعدون ويتشـرذمون وكل يغرد خارج السـرب الوطني لينخفض منسوب الوطنية ويرتفع منسوب التوثب الوهمي غير المسـتور بـأغطية العدمية الوطنية (الاستقواء بالأجنبـي، اللجوء للمحـاكم الدولية، النأي بـالنفس، السـلام مقابـل السـلام، ترجي الوصاية الدولية) وغيرها من موديلات جديدة تروّجها مصانع العولمة الرأسمالية المتوحشة !! كل ذلك لأن القلة الرأسمالية المتوحشـة والنخب السياسية المتنفذة وطوابيرهم الخامسة (حكماء) في نهب اموال الشـعوب وفي نشـر الفسـاد بـالأوطان ونبـذ الاخلاق والمنطق في السـلوك والتفكير وفي التبـاهي بشـطارتهم في الخيانة والعمالة والتبعية ناسين ومتناسين ان الحكمة السياسية الحقة هي فك اسر العقل السياسي من الارتهان للمشـاريع الاجنبـية المتجاوزة على الوطنية، وعدم الانفعال امام المتفاعل والتفاعل مع المنفعل دون ادخال الاحـتلال في دائرة الشرعنة والمقاومة في دائرة الارهاب والتجريم ليكون القاتل حرا طليقا والضحية متضررا مقيدا .. وليكون الفاسـد آمنا والنزيه خائفا.. وليكون ابـناء الجوع متخمين بـالزهد والصبر، وابـناء الشبع متنعمين بالسحت والنهب. انه عالم يحترم فيه الطالح ويثاب بـينما الصالح لا يثاب ولا يحـترم.. عالم ينصف فيه الظالم، والمظلوم فيه يقـصف.. عالم يفلت فيه المعتدي من العقـاب، والمعتدى عليه ينتظر المزيد من العقـاب، وما علينا وسط هذه البانوراما غير المبـهجة إلا توجيه انذار ختامي يفيد ان البـلاد، في عالم العولمة المتوحشـة، التي لا تكون لها سيادة وطنية قـادرة على توفير اكتفاء ذاتي بالغذاء والدواء والمعرفة، سوف لا يكون لها مكان تحت شمس العالم الآتي.

نعم، تتحـكم في العلاقـات الدولية ومشتقـاتها (السياسـات الدولية، السياسـات الخارجية، الدبلوماسـية، السياسـات الاسـتراتيجية، والجيواسـتراتيجية) معادلة الصراع والتعاون. والعراق كان ولا يزال أقرب الى دائرة الصراع منها الى دائرة التعاون في منظومة العلاقـات الدولية؛ فمرّة يكون طرفا في الصراعات، والاخرى يكون جغرافية لها، وهو اليوم حلبـة لصراعات اقليمية ودولية الامر الذي يسلب منه الارادة ويشـل عنده القـدرة في ان يلعب عمليا، دور الوسـيط رغم ان كل ذلك لا يمنعه من ان يعلن، كموقف فقط، انه مستعد للعب هذا الدور.

وكذلك من مصلحة العراق ان يكون ساحة حوار بـين المتخاصمين الإقـليميين والدوليين كيما يتخلص من كونه ساحة صراع في ما بينهم. وان تشخيص الحال بهذا الشأن يشير الى ان وحدة الخطاب السياسـي الخارجي للعراق تكاد تكون مفقودة لأسباب تتمثل في ان الاطراف السياسية العراقية المتنفذة والتي تمتلك صلاحيات اتخاذ القرار السياسي الخارجي لا تستقوي بذواتها ولا تستقوي ببعضها، بقدر ما يستقوي كل طرف منها بالخارج البراني. وفي إطار تشخيص واقع الحال ايضا نرصد حالة تفيد بأن نظرة دول الجوار الى العراق هي نظرة اسـتعلائية تتعامل مع العراق بوصفه كيانا لا بوصفه دولة بسبب وحدة الخطاب السياسـي الخارجي المفقـودة ولأسبـاب اخرى تتصل بالأرقـام القياسية السلبـية التي سـجلها العراق على نفسـه في السياسـة ولواحقـها الاقـتصادية والاجتماعية والثقـافية. ولا يفوتنا التأكيد، ضمن الإطار التشخيصي لواقع الحال، ان نرصد الانشغال العبثي العراقي بـأن اسس المشاكل هو الآخر الخارجي فقط، في حين ان هذا الآخر يتعامل معنا من منطلق مصلحـته اولا،

ومتى ما يجد فراغا في دواخلنا يتدخل لينصب نفسه فيه، وبالنتيجة فإن الملام ليس الآخر الخارجي هنا، بل الملام هو من صنع الفراغات او تسبب في صناعتها، وعجز عن سدها وطنيا.
ما تقدم تشخيص لواقع يقتضي المغادرة، فما هي سبل الخروج للخلاص من هذا الواقع؟
المطلوب، خطاب سياسي خارجي عراقي موحد يقوم على داخل معافى وتوظيف سليم للقدرات واستخدام صحيح للموارد. والخطاب المنشود لا يقوم على الانتظار الموضوعي بل على المبادرة الوضعية لأن عملية الاصلاح والتغيير لا تنتظر توافر اوتوماتيكي للظروف موضوعيا، بل تقتضي المبادرة وضعيا، والمبادر هو نظام سياسي يمتلك الارادة والحزم القادرين على التوظيف الصحيح والاستخدام الصحيح للموارد، لا سيما ان العراق لا يعاني فقرا في الموارد الطبيعية، ولا شحا في الموارد البشرية، بيد انه يعاني ضعفا في القدرة على التوظيف الصحيح والاستخدام السليم للموارد الطبيعية والبشرية الامر الذي يجعل من الموارد الغنية عامل نقمة لا عامل نعمة .ولما كانت العلاقة بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية هي علاقة المولود بالرحم، فإذا كان الرحم معافىً فأن المولود معافى والعكس صحيح فأن الخطاب المنقذ من واقع يقتضي الإصلاح والتغيير ينبغي ان ينطلق من رحم معافى الا وهو الداخل العراقي، والعافية تتأتى من تشخيص ومعالجة عيوب الداخل التي تحمل عناوين العوز التشريعي والعجز الخدمي والعوق المؤسساتي والعمى بالأولويات والعطب المعرفي والعقم الإنتاجي والعبث بالمال العام والعشق للماضي وهي أبرز العيوب وليس كلها . وتلك العيوب ينبغي أن تعالج من قبل رجال دولة يتمتعون بخصال أبرزها توسلهم نهجا تكميليا لا تصغيريا في العمل، يمتلكون ثقافة الاستقالة لا ثقافة الاستطالة في المناصب العامة، وثقافة المعارضة لا المحاصصة، ومن المتفاعلين لا الانفعاليين مع المختلف، ومن النازعين الى التسوية لا التصفية مع الاخر، ومن حملة ثقافة التعددية لا الشمولية الاحادية في اتخاذ القرار، ومن المدركين ان السياسة هي ليست حل مشاكل قائمة فحسب بل حل مشاكل قادمة ايضا ومن عشاق المستقبل. إذا كانت تلك ركائز الخطاب السياسي العراقي، فسوف لن يكون خطاب نزوة نرغب فيها او امنية نحلم بها بل خطاب تفكير وسلوك معا، وخطاب برامج واجراءات معا، خطاب ينشد دخول العراق شريكا وطرفا فاعلا في دائرة التعاون لبناء السلم والامن والاستقرار في المنطقة والعالم.

الثقافة الجديدة: وسط ذهول الجميع، كانت فترة ثلاثة أسابيع أكثر من كافية لإنهاء النظام الدكتاتوري عام 2003. لكن، لم يكن هذا هو المعلم الأهم للحرب. بل أن انهيار الدولة وتقويض جميع مؤسساتها بهذا الشكل، ونهب منشأتها، واحداث ما سمي بـ"الحواسم"، كان أبرز معالمها
إن سقوط نظام البعث بهذا الشكل المذل يعد مصداقا لوجهة النظر التي تختصر أربعين عاما من تطور حكمه. في البداية ابتلع الحزب الدولة، ومن ثم سيطرت المدينة والعشيرة على الحزب. ورويدا رويدا اختزلت الدولة والحزب المدينة والعشيرة بالعائلة، وأخيرا لخّصت إرادة واحدة، الجميع: الدولة والحزب، والعشيرة والعائلة. فالقائد يحتكر كل المناصب والالقاب: الرئيس والأمين العام والاب والشيخ والرمز. وعندما انهزم وهرب، تداعى كل شيء، العائلة والحزب والدولة .وعند النظر الى التجارب التاريخية، نجد ان هناك حالات قريبة لما حدث في العراق عشية الاحتلال. الوضع في ليبيا خلال السنوات العشر الأخيرة بعد سقوط نظام القذافي على سبيل المثال. لكن، في ذات الوقت، هناك تجارب تاريخية أخرى، تفرد فيها دكتاتور بحكم البلد، ولكن انهيار نظامه، لأي سبب كان او وفاته دون خليفة لم يتسبب في تقوض اركان الدولة.

في رأيك، في لحظة نيسان 2003 هل سقط النظام البعثي ام انهارت الدولة؟ وما هي الأسباب الكامنة في بنية الدولة العراقية الحديثة التي أدت الى تغلغل النظام البعثي فيها بهذا الشكل حد التماهي؟ والتي أدت في النهاية الى أحداث عام 2003؟

د. عامر: إن ما حصل في لحظة نيسان 2003 هو انقطاع حلم مشروع بناء الدولة وتدمير ما بقي من منجزاتها المؤسساتية المشوهة منذ العشرينات وصولاً حتى الآن. وبالإرادتين الداخلية والخارجية معاً مازال العراق يعيش حلم الدولة من جهة، ويعيش حقيقة كوابيس اللادولة العميقة من جهة أخرى، ومهما تعددت تسميات الوحدات السياسية وتنوعت توصيفاتها فان القاموس الدولتي المعاصر استقر على ثلاثية (الدولة والدولة العميقة واللادولة العميقة)، ولأننا نريد التحذير من الفوضى الاقتتالية المنظمة وغير المنظمة.. ونريد الحذر من الشعبويات العاطفية غير المستنيرة والاقلويات التسلطية بالسلاح او المال تعالوا نتعرف إلى ماهية اللادولة العميقة.

إنّ اللادولة العميقة وقبل تحديد ماهيتها علينا ان ندرك بانها، من حيث الوجود، لاحقة وليست سابقة لوجود الدولة الدستورية. وبقدر تعلق الامر بالعراق بوصفه كيانا سياسيا تاريخيا لم يصل بعد الى منصة الدول القائمة حقاً، فان الحديث عن الدولة العميقة سابق لأوانه في العراق.

عليه يمكننا، على اساس ما تقدم، ان نتحدث عن (اللادولة) العميقة في العراق قبل الانشغال، بلا جدوى، بالحديث عن الدولة العميقة في العراق.

ومن المفيد أن نتعرف إلى ماهية اللادولة العميقة بدلالة الحديث عن كل من مصطلحي الدولة العميقة والكيان الموازي للدولة العميقة من حيث المفهوم والخصائص ودوافع التشكيل.

فكيف تتغول الدولة العميقة والكيان الموازي على الدولة الدستورية؟

الدولة العميقة تعني التحكم بوظائف المؤسسات الدستورية من قبل نخب سياسية وعسكرية وإعلامية واقتصادية واجتماعية تجمعها مصالح متشابكة لتجعل منها نخبة متسلطة على القرارات السياسية السيادية وغير السيادية. وقد تتدخل أطراف خارجية في صناعة أو دعم جماعات الدولة العميقة عندما ترغب تلك الأطراف الدولية الخارجية في محاربة المشاريع المحلية والدولية التي لا تخدم مصالحها في بلد مهم استراتيجيا بالنسبة لها فتدعم او تنشئ شبكات تنظيمية خارج الأطر الرسمية للدولة. وقد يتوافق مع الدولة العميقة كيان موازي أو يتداخل معها، ويشير مصطلح الكيان الموازي للدولة الى حركة اجتماعية تتأسس لتوليد التأثير الاجتماعي الشعبوي والدخول الى ميدان الحياة السياسية على وفق رؤية بعيدة المدى تلتزم بموجبها بتكوين حاضنة اجتماعية واسعة تدور في مسار قائد مؤسس. ويأتي انشاء هذه الارضية الحاضنة الاساسية للكيان الموازي للدولة بسبب عدم وجود منصة فكرية سياسية تدفع باتجاه اداء دور سياسي وطني، الامر الذي يؤدي بسبب ضعف هذه المنصة او غيابها الى استقطابات محاصصاتية للمشهد السياسي.

عندها يدور الكيان الموازي في فلك قائده الاوحد الذي اسس هذه الحركة الاجتماعية ذات الامتدادات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد ان بدأ باختيار الطريق الاجتماعي لتأسيس النفوذ داخل المجتمع اولاً، زاحفاً نحو الدوائر السياسية عبر الارشاد والتبليغ والتربية والتعليم والمؤسسات الخدمية الاسكانية والصحية والمالية والاعلامية.

ورغم النفوذ الاجتماعي والاقتصادي والاعلامي الشعبوي الهائل للقائد فانه يأبى وكذلك بعض أبرز جماعته واجنحته من غير السياسيين، يأبى العمل السياسي المباشر والمعلن ليقود حركة او تيارا واسعا، وتصبح لأنصاره مشاركة مؤثرة في دوائر صنع القرار، بعد ان يتمكن من تعبئة ساسة في مرافق ومؤسسات الدولة قاطبة، وبعد ان يفتح أذرعه للتحالف مع احزاب وقوى سياسية، لكن سرعان ما يتخالف معها فيتحول التحالف الى احتواء او الى مواجهة.

والكيان الموازي هنا يشكل بديلا للدولة العميقة او المرحلة الثانية للدولة العميقة.. وبكل الاحوال فان الدولة العميقة والكيان الموازي لم يتشكلا بعد في العراق، لان الدولة لم تأت بعد، ولان البواعث لوجود اللادولة العميقة متوافرة بقوة من خلال المؤشرات الاتية :ان قوة اللادولة العميقة تتناسب عكسياً مع ضعف المؤسسات الدستورية.

انها تتناسب في قوتها مع ارتفاع منسوب الفساد وانتشار السلاح المنفلت عن الشرعية.

انها تتزامن مع عسكرة السلطة او السلطة المعسكرة.
انها تتواءم مع ارتفاع وشدة انتشار الشعبوية.
انها تتقوى عند ضعف او غياب المعارضة السياسية الايجابية .
انها تحيا وتنتعش عندما تكون للعلوية التوافقية غلبة واولوية على العلوية الدستورية.
انها تتأسس خارج رحم الدولة الدستورية وعندما تغيب الدولة الدستورية فان رحم الكيان السياسي ماقبل الدولة يكون الرحم الخصب لحمل وولادة اللادولة العميقة.وأنها تنمو وتتصلب عندما لا تستقوي قوى الداخل ببعضها وطنياً وتنزع الى الاستقواء بقوى الخارج متناسية او متجاهلة بقصد او بدون قصد الوطن والوطنية والمواطنة وضرورة تقويتهم والاستقواء بهم.
كذلك تكبر وتتجبر اللادولة العميقة عندما تنظر القوى السياسية الى العراق من ثقوب مذاهبها او قومياتها او مناطقيتها الجهوية الضيقة دون ان تنظر لجهويتها المذهبية والقومية والاجتماعية والمناطقية من بوابة العراق الموحد المتحد العريضة الواسعة الجامعة.
اخيراً، تتغول اللادولة العميقة عندما يركب الساسة مركب السلطة والحكم ويتنحى رجال الدولة عن قيادة هذا المركب او تتم تنحيتهم.

ما العمل؟

باختصار شديد، لا دعاء يخلصنا.. ولا قائد ينقذنا.. ولا براني يسعفنا بل المخلص والمنقذ والمسعف نجده في الانتخابات وبالمزيد من مواصلة الانتخابات التي تقوم على قانون عادل وإدارة مستقلة حقا ومراقب منصف ومرشح مواطن وناخب واع. دون ذلك فان اللادولة العميقة باقية والدولة العميقة والكيان الموازي للدولة آتيان.

الثقافة الجديدة: منذ التغيير عام 2003 والازمة البنيوية التي تشهدها البلاد في تفاقم مستمر. وبمرور السنين اتخذت هذه الازمة أبعادا ومديات عميقة. وشيئا فشيئا صارت تجليتها أكثر تنوعا، باتت بعض امكانياتها خطرة على مستقبل البلاد. في الحصيلة النهائية تعد هذه الازمة نتاجا للآلية التي تم بها اسقاط النظام، والتي تمت عبر الحرب والاحتلال. وكذلك عبر هندسة "نظام سياسي" خاص ليتلاءم مع الحالة العراقية بعد 2003. نظام يستند منهجه على المحاصصة الطائفية والاثنية وفي بناء وادارة مؤسسات الدولة، وعلى تغليب الهويات الفرعية، على الهوية العراقية الجامعة التي كان من المفترض بها ان تقوم على اساس المواطنة. وإذا كان الاحتلال هو من عمل على تأسيس نهج المحاصصة، فإن القوى السياسية المتنفذة هي التي عملت على ترسيخه وادامته، وذلك عبر تكريس مفهومها عن دولة المكونات. الذي يتيح لها ان تختزل "المكون" بنفسها، بشخوصها وكتلها السياسية، وذلك من خلال ادعائها انها الممثل الحصري والوحيد احيانا، او "الحقيقي" في احيان اخرى. وقد وفرت عمليات الاختزال هذه، الغطاء المناسب لتقاسم النفوذ والسلطة والمناصب.

وبالتالي، فإن الازمة البنيوية في العراق، هي حقيقتها ازمة بنيوية مركبة واحد تمظهراتها ازمة العملية السياسية التي تم تدشينها بعد 2003، وأزمة منظومة الحكم التي نتجت عنها. فبدلا من ان تمثل الاخيرة نسقا منضبطا، وفق سياسات وآليات منهجية، من اجل الانتقال من نظام دكتاتوري تسلطي نحو نظام دستوري وديمقراطي، تنهض اسسه على مبدأ المواطنة والهوية الوطنية الجامعة؛ تم مسخها الى مجرد عملية ايجاد أفضل الصياغات لتحقيق "التوازن" في توزيع المناصب والوظائف العامة بين "المكونات". ولتتمحور في مطافها الاخير، الى مجرد تنافس مرعب وعنيف على السلطة والثروة والقرار. وبينما تتواصل عملية تشويه مفهوم العملية السياسية من قبل القوى المتنفذة، وكي تأخذ الامور نصابها من وجهة نظرهم، يصار الى مماهاة الديمقراطية بالعملية الانتخابية، والى صراعات حول القانون والنظام الانتخابيين وطريقة احتساب الاصوات. فبالنسبة لهم الديمقراطية والانتخابات هي مجرد مقياس كمي تُحدد نتائجه النهائية العلاقة بين المكونات، كما انها ليست سوى البحث عن تمثيل "عادل" للمكونات، وعن الذي يحق له تمثيلها، حصريا او بالشراكة.

ترى هل تتفق مع هذا التوصيف للعملية السياسية في العراق؟
نتطلع الى ان يتم تأطير وتعميق وجهة نظركم بهذه القضية عبر تعليقات ضافية ووافية.

د. عامر: نعم، اتفق معكم إن توصيف العملية السياسية ينطلق من أنها عملية أزمة بنيوية مركبة لها بُعد تأريخي حيث ان قصص التكوين التي سردها العقل الانساني على مر العصور هي قصص سجالية جدلية وليس تعاونية تنافسية.. وهي قصص مسارات وصيرورات لا قرارات ونزوات.. وهي قصص صبورة وليست مستعجلة حيث تتمدد على ماض وحاضر ومستقبل.

والعراق كما نعرف ويعرف الجميع بلاد مقر ومستقر وليس بلاد معبر او ممر فقد شهد خمس حضارات ما قبل الاسلام والحضارة الاسلامية والهيمنة العثمانية والاحتلال الانجليزي والشمولية التسلطية الجمهورية والاحتلال الامريكي وصولاً الى حاضر الاستقلال الهش والديمقراطية التي لم تكتمل بعد! وفي هذا الرحم المجتمعي العراقي (التاريخي الاجتماعي الاقتصادي والسياسي الثقافي) تكونت ثلاث ثقافات (ثقافة تقليدية، ثقافة خضوع، ثقافة مساهمة) على وفق تصنيف عالم الاجتماع الالماني (ماكس فيبر). وكان أضعف ادوات التفكير هي ادوات ومناهج التفكير العلمي حيث غلبت الادوات الاسطورية ثم الدينية حتى دخول العراق عهد بناء الدولة الوطنية العشرينية اوائل القرن الماضي. وعندما دخل العراق هذا الطور اصبحت خارطة الفكر والتفكير موزعة بين فكر وتفكير موروث وفكر وتفكير توفيقي بين الموروث والوافد.

ففي العهد الملكي كان الوافد التعددي المهين سياسياً والموروث المهيمن اجتماعياً.. وفي العهود الجمهورية كان الوافد التسلطي (القومي - اليساري) المهيمن سياسياً والموروث مهيمن اجتماعياً.. وبعد العام 2003 كان الوافد التعددي بالصبغة الليبرالية والمضمون التعددي التقليدي متسيدا سياسياً والموروث التقليدي متسيدا اجتماعياً.. تلك هي خارطة الفكر والتفكير بخطوطها العامة وليس في دواخلها التفصيلية لأن التكوين سجالي والسجال لم يكن حوارياً تنافسياً بل كان وما يزال تقاتليا دمويا في أكثر الاحيان، لذلك فان تاريخ الحاضر العراقي كما هو ماضيه هو تاريخ قسوة وألم إكيف الخروج والانتقال بالعراق من بلاد السجال القتالي التقاتلي الى عراق السجال الحواري التنافسي؟

إذا أراد العراق ان يكون له مكان تحت شمس المستقبل، عليه ان يعمل على:

اكتفاء ذاتي نسبي في القوت لتجاوز امراض العقم الانتاجي والخصوبة الاستهلاكية.

اكتفاء ذاتي نسبي في الدواء (استهلاكاً وانتاجاً).

اكتفاء ذاتي نسبي في المعرفة (استخداماً وانتاجاً).

من هنا تبدأ رحلة تعبيد الطريق نحو بناء الدولة في العراق، ومنها يبدأ مسار الانتقال بالعراق من كيان او كيانات سياسية الى دولة حقة. دولة تستحضر التاريخ لتغادره، لا لتعيش فيه وتعتاش عليه. دولة ترى ان كل القمم مدببة الا ثلاث قمم هي غير مدببة وعريضة تتسع للجميع (قمة الايمان، قمة المعرفة، قمة الوطنية). دولة تنتج مواطنين لا رعايا ولا اتباع ولا زبانية... ومن رحم المواطنية يولد رجال الدولة. عندها نعلم انه يخدعنا من يقول اننا متنوعين ويعالج او يدير التنوع اخلاقياً او عقائدياً بينما إدارة التنوع قضية حق دستوري مضمون لكل التنوعات وقانوني منظم لكل التنوعات، ومؤسساتي ممكن لكل التنوعات..

أخيراً، نقول إن للعراق فكرا وتفكيرا وينبغي عدم التطيير من تعددية اتجاهاته سواء الوافدة والتوفيقية وحتى الموروثة، طالما ان السجال بينهما يصبح سجالا تنافسيا غير اقتتالي وغير دموي، صالح لبناء دولة حديثة، بعيداً عن الفوضى الانتقالية والتسلط القمعي، وهذا الامر لا يخص العراق فقط بل يخص كل كيان سياسي في المنطقة، يريد ان يكون دولة بحق.

الثقافة الجديدة: تحتل موضوعة الانتقال Transition موقعا مهما في الادبيات المنشغلة بمشاكل البلدان التي لديها العديد من التجارب، في

ما يخص شكل الدولة الشديد المركزية والطبيعة الدكتاتورية أو الاستبدادية وكيفية الانتقال منها الى نظام جديد وديمقراطي وما هي شروط ذلك. ثم ان عمليات الانتقال إلى الديمقراطية التي تمت في مختلف مناطق العالم اتسمت بدرجة كبيرة من التعقيد؛ وبتعدد مساراتها، وبالاختلاف البيّن في نتائجها. ومن جهة ثانية فقد ميّز العديد من الباحثين بين مفهوم التحول transformation الديمقراطي ومفهوم الإنتقال transition الديمقراطي حيث اعتبروا أن الانتقال الديمقراطي هو مرحلة من مراحل التحول الديمقراطي وأخطر مراحله أيضا وذلك لأن في مرحلة الانتقال يكون النظام ذا طبيعة مزدوجة تتعايش فيه كل من مؤسسات النظام السلطوي القديم والنظام الديمقراطي الحديث، ويشاركان في السُلطة سواء في صورة صراع أم اتفاق.

ونظرا لأن عملية "الانتقال الديمقراطي" هي عملية معقدة بطبيعتها، تتداخل في تشكيل مساراتها ونتائجها عوامل عديدة، داخلية وخارجية، فقد تكون مصحوبة بمرحلة جديدة تتمثل في ترسيخ النظام الديمقراطي، وقد لا يترتب عليها قيام نظام ديمقراطي في مرحلة ما بعد الانتقال، وذلك في حال حدوث ردة أو انتكاسة تقود إلى نشوب صراع داخلي أو حرب أهلية أو ظهور نظام تسلطي جديد.

والسؤال الذي يفرض نفسه، بعد الملاحظات اعلاه هو اين يقف العراق اليوم؟ وهناك من المشتغلين في العلوم السياسية، مَن يرون أن العراق يقف اليوم في (مرحلة الانتقال الى مرحلة التحول الديمقراطي) ولم يصل بعد الى مرحلة التحول الديمقراطي، وكذلك بالتأكيد، لم يعش بعد (المرحلة الديمقراطية).. ما هو رأيكم بذلك؟ هل من تدقيقات اضافية؟

د. عامر: الانتقال الى الديمقراطية غير التحول الديمقراطي.. ففي الانتقال نعني مغادرة من نظام شمولي تسلطي الى نظام غير شمولي غير تسلطي.. بينما التحول الديمقراطي يمثل مشروعا بمراحل: المرحلة الاولى منه هي مرحلة الانتقال الى الديمقراطية، وهذه المرحلة تنشغل بإنجاز مهام وسلوكيات وتشريعات ومؤسسات النظام الشمولي التسلطي، عن طريق بناء الحكم الدولتي الدستوري المدني، ثم تليها مرحلة البناء الديمقراطي تشريعاً ومؤسسات وسلوكيات.

بمعنى أدق: إن الانتقال الى الديمقراطية هي مرحلة أولى من مراحل التحول الديمقراطي. بكلمة أخرى ان الديمقراطية مسار تحولي بمراحل، المرحلة الاولى هي مرحلة الانتقال فإن فشلت هذه المرحلة ينقطع مسار هذا التحول وإن نجحت يستمر مسار هذا التحول. فأين نضع العراق اليوم في مسار التحول الديمقراطي؟

لقد شكلت قضية (الانتقال الديمقراطي) أو عملية (الدمقرطة) مبحثًا رئيسا في علم السياسة منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين. وعلى مدى العقود الثلاثة الماضية ظهر عدد كبير من الكتب والدراسات والتقارير التي تناولت هذه القضية على مستويات مختلفة: نظرية وتطبيقية، كمية وكيفية، دراسات حالة ودراسات مقارنة.

إذ يرى (صامويل هانتنجتون) أن موجة التحول الديمقراطي عبارة عن مجموعة من حركات الانتقال من النظام غير الديمقراطي الى النظام الديمقراطي، والتي تحصل في مدة زمنية محددة، وتفوق في عددها حركات الانتقال في الاتجاه المضاد خلال المدة الزمنية نفسها. وهي وفقاً لـ (أودونيل وشمبيتر) المرحلة الفاصلة بين نظام سياسي وآخر. وأثناء عملية الانتقال أو في أعقابها يتم تدعيم النظام الجديد، وتنتهي هذه العملية في اللحظة التي يجري فيها اكتمال تأسيس النظام الجديد. وعمليات الانتقال لا تحسم دائما الشكل النهائي لنظام الحكم. فهي قد تؤدي إلى تحلل النظام التسلطي، وإقامة شكل من أشكال الديمقراطية، وقد تتم العودة إلى بعض أشكال الحكم التسلطي، مثلما حدث في باكستان عام 1977 عندما أعلن (ضياء الحق) مرحلة انتقال مدتها ستة أشهر، ومع ذلك استمر في الحكم 11 عاما. وأيضاً في مصر الناصرية أعلن جمال عبد الناصر مرحلة انتقال مدتها عامان، لكن حكمه استمر 18 عاما منذ ذلك الإعلان.

ومثل مصر وباكستان دول كثيرة عرفت الانتقال، لكنها لم تعرف الديمقراطية. بينما أكد

(دانكورات روستو) أن التحول الديمقراطي عملية مستمرة لها ثلاثة أطوار: الطور التحضيري (لحظة الانفتاح)، والطور الحاسم (الانتقال الديمقراطي)، وطور التعود والتحصين (الديمقراطية الموطدة).

ويعتمد الانتقال الديمقراطي على طريقتين:

الطريقة الاولى تشير الى التحول من نمط التنظيم السياسي (غير الديمقراطي) التسلطي الى نمط آخر ديمقراطي، أو بشكل أدق، الى نمط في طريقه الى الدمقرطة.

والطريق الثاني للانتقال يمثل طوراً يؤشر على القطيعة مع نظام سلطوي لتبني قواعد نظام ينحو باتجاه الدمقرطة او الانتقال الديمقراطي.

إن التجارب في التحول الديمقراطي لا تتشابه. وإن البُناة او الفاعلين الذين صنعوا الانتقال تختلف مرجعياتهم وثقافتهم وأساليب تدخلهم في السياسة والمؤسسات. فعلى الرغم من أن هناك أشكالاً أو أنماطاً متعددة لنظم الحكم غير الديمقراطية (شمولية أو تسلطية مغلقة، مدنية او عسكرية، حكم فرد أو حكم قلة ... الخ)، إلا أن هناك حالات ومستويات للنظام الديمقراطي متعددة أيضا يتم الانتقال اليها. فقد ينتقل نظام تسلطي مغلق الى نظام شبه ديمقراطي يأخذ شكل ديمقراطية انتخابية.

ويمكن ان يتحول نظام شبه ديمقراطي الى نظام ديمقراطي ليبرالي او يكون قريبا منه. كما ان الانتقال الى النظام الديمقراطي يمكن ان يتم من أعلى، أي بمبادرة من النخبة الحاكمة في النظام غير الديمقراطي أو الجناح الإصلاحي فيها، او من أسفل بواسطة قوى المعارضة المدعومة بتأييد شعبي واسع، أو عبر تدخل عسكري خارجي. وكل ذلك يؤكد مدى التعدد والتنوع في تجارب وخبرات الانتقال الديمقراطي.

وبناءً على ما تقدم، فإن مفهوم (الانتقال الديمقراطي) يشير من الناحية النظرية الى مرحلة وسيطة تشهد في الاغلب الاعم مراحل فرعية يتم عبرها تفكيك النظام غير الديمقراطي القديم أو انهياره، وبناء نظام ديمقراطي جديد.

وعادة ما تشمل عملية الانتقال مختلف عناصر النظام السياسي، مثل البنية الدستورية والقانونية، والمؤسسات والعمليات السياسية، وأنماط مشاركة المواطنين في العملية السياسية.. الخ. فضلاً عن ذلك، فان مرحلة الانتقال الى الديمقراطية قد تشهد صراعاتٍ ومساومات وعمليات تفاوض بين الفاعلين السياسيين الرئيسيين. كما تتطلب عملية التحول الى الديمقراطية - وفقا لرؤية برهان غليون (تطوير ثقافة ديمقراطية جديدة، وموارد مادية ومعنوية جديدة، وبناء قطب ديمقراطي تعددي حي، وإصلاح المؤسسات الرسمية والاجتماعية، وبناء مقومات الإجماع الوطني).

وبالانتقال الى موضوع العراق نجد انه يقف في مرحلة (الانتقال الى مرحلة التحول الديمقراطي)، ولم يصل بعد الى مرحلة (التحول الديمقراطي)، وكذلك بالتأكيد انه لم يعش بعد (المرحلة الديمقراطية). فعلى العكس ما يتوهم البعض فإن الديمقراطية لا تؤدي الى نفسها بشكل أتوماتيكي. وإنّ تجربة بلدان العالم المتقدمة ديمقراطياً تثبت لنا أن النظام الدستوري المدني سبق النظام الديمقراطي الى الوجود بسنوات طويلة.

فلم تصبح انظمة أوربا الغربية ديمقراطية الا بعد مرحلة انتقال دستوري مدني، ثم مرحلة تحول ديمقراطي مدني، ثم مرحلة دول ديمقراطية مدنية. (لاحظ أن المدنية مرافقة لكل المراحل). فالأساس هو دولة الانتقال الدستوري المدني، أي دولة المؤسسات والقانون، دولة المواطنة، الدولة الدستورية، وهي دولة قوية مع المواطن، وليست دولة قوية ضد المواطن، ولا دولة هشّة تحت رحمة فرد او جماعات. إنها دولة المؤسسات. إنها الدولة المدنية الحديثة.

الثقافة الجديدة: يندر من لا يتفق في عراق اليوم على ان التغيير الشامل بات ضرورة ملحة، لا لأن الزمن قد عفا على تلك الأساليب المعتمدة في ادارة وتوجيه الصراع السياسي والاجتماعي فقط؛ بل لأن التغيير أساسا صار إمكانية. لكن، اذا كانت الأزمة المستفحلة في البلاد، والسياسات التي اتبعتها وتتبعها القوى المتنفذة القابضة على السلطة والثروة والنفوذ، قد تسببت في تنامي

الوعي السياسي والنضالي عند الجماهير؛ معززة فيها روح المطالبة بالحقوق ورفض الظلم والفساد؛ مؤدية الى انطلاق اشكال متنوعة ومتباينة من الحراك الاجتماعي والمطلبي، التي تفجرت لاحقا بانتفاضة تشرين 2019 المجيدة.
إن آليات الدفع باتجاه التغيير هذه هي في نهاية المطاف شكل من أشكال "الديمقراطية المباشرة".
فإننا من ناحية أخرى، لا نلحظ تتطورا موازيا في آليات الديمقراطية التمثيلية، او في تقاليد العمل السياسي الانتخابي/ "الديمقراطية غير المباشرة"، من قبل القوى السياسية التقليدية، كي يأخذ هذا الشكل من النضال دوره في إحداث التغيير.

من وجهة نظركم، كيف تنظرون لهذه القضية؟ اعني العلاقة غير المتناسبة بين تطور اشكال الديمقراطية المباشرة الشعبية والديمقراطية الانتخابية؟

د. عامر: عن الديمقراطية وأشكالها المتعددة مباشرة أو غير مباشرة شعبية أو تمثيلية كل منها لا يمكن استنساخها وتطبيقها. لأن العالم كان وما زال يعيش عملية تحول ديمقراطي والمعيار المعاصر لتصنيف النظم السياسية ما عاد يعتمد التصنيفات القديمة والأشكال التقليدية، بل يعتمد عملية تحول ديمقراطي من أنظمة شمولية إلى أنظمة تعددية تحت عنوان (التحولات الديمقراطية في عالمنا المعاصر).
وفي العراق، لا يستقيم وطن ولا تتشكل دولة دون السير في عجلة السياسات التي تنتقل بالعراق من كيان او كيانات سياسية ما قبل الدولة الى عراق الدولة الوطنية.. وكيما يتشكل عراق الدولة الصح فإن كل تحول ديمقراطي فيه ينبغي ألا يفسّر إلا بوصفه مسارا أدواته تعددية حزبية وتحالفات سياسية لان الديمقراطية من حيث المبدأ ليست عقيدة نناصرها مقابل من يناهضها، ولا هي مذهب نقدسه مقابل من يدنسه، ولا أيديولوجيا نتقاتل من أجلها ضد من يتقاتل ضدها، ولا هي آلية نتوسل أدواتها لنتسلق السلطة مرة ونتخلى عن أدواتها مرة أخرى، كي لا ننزل عن منصات التسلط. بمعنى آخر أن الديمقراطية منظومة فكر وممارسة متكاملة تضم وتؤطر التنوعات وتعمل ضمن حركة تحالفات ومسارات تحسن إدارة التنوعات، وعلى أساس ذلك فان تلك المنظومة الحركية لا يمكن أن تكون جزءاً من نشاط حزب سياسي ولا يمكن أن تجيّر باسم حزب، ولا يمكن أن تكون ملحقا بحزب ولا واجهة جانبية أو خلفية لحزب. وفي سياق استكمال مواصفات العراق الصح نقول ان العراق الصح هو عراق الدولة وليس عراق ما قبل الدولة.. وعراق المصلحة الوطنية وليس المحاصصة الجهوية.. وعراق الديمقراطية المؤطرة بالاستقلال الوطني وليس عراق الاستقلال الملون بالديمقراطية وليس عراق الديمقراطية المطعمة بالسيادة.. وعراق الاتحاد الصاعد للوحدة، وليس عراق الوحدة المعدومة الهابطة للاتحاد، وعراق المسؤول الباني التكميلي وليس عراق المسؤول الهدام التصفيري.. وعراق مأسسة المناصب لا تنصيب الاشخاص.. وعراق يخاف فيه الفاسد لا عراق يخاف من فاسد.. وعراق منخرط في قضايا العدالة والحرية لا عراق ينأى بنفسه عن قضايا العدالة والحرية لشعبه ولكل الشعوب.. وعراق نريد وطن، لا عراق نبيع وطن.. وعراق يستحضر الماضي للتذكير بحسناته ومغادرة سيئاته، لا عراق يسترجع الماضي ليعيش به ويعتاش منه.. عراق احياء يعمل لمستقبل احياء، لا عراق احياء يحكمهم اموات.. عراق يعرف حكامه ثقافة الاستقالة لا عراق تعشعش في عقول حكامه ثقافة الاستطالة.. وعراق يفهم التاريخ ويتفهم الحاضر ويعشق المستقبل لا عراق يعيش التاريخ، ويراوح في الحاضر ويكره المستقبل.. وعراق ينظر الى تنوعاته من ابواب العراق الواسعة، وليس عراق ينظر اليه من ثقوب تنوعاته الجهوية المذهبية والعرقية والمناطقية الضيقة..
وأخيرا، العراق الصح هو عراق التوأمة إن لم نقل عراق الزواج الكاثوليكي بين الاستقلال الوطني والديمقراطية على مستوى التعامل مع الخارج بعد أن يتطهر من وساخة الوجود العسكري الأجنبي بالرحيل عن ارضه عموديا والا سيكنس افقيا. على أن يتلازم تحقق هذا

الرحيل مع طلاق العراق الابدي من المحاصصة المقيتة والفساد الوسخ على مستوى التعامل في الداخل.

الثقافة الجديدة: هناك مفارقة تاريخية نود لفت الانتباه لها. لا ندعي أنها تعكس الحقيقة التاريخية الموضوعية. ولكنها تبقى نوعا من أنواع التشابه الخارجي.

دون أن نتغاضى عن الدور الشعبي الداخلي، يرتبط تأسيس الدول العراقية الحديثة في عشرينات القرن المنصرم الى حد كبير بالاحتلال البريطاني، شكلا ومضمونا. حيث كان للإنكليز الدور الأبرز في إنشاء مؤسسات الدولة، وفي تشكيل طبقات وفئات اجتماعية مختلفة، ودمج العراق في الاقتصاد العالمي آنذاك. لاحقا، برزت في بنية هذه الدولة تناقضات سياسية واجتماعية متشابكة توجت في الأخير بثورة تموز 1958 ونفس الشيء حدث بعد عقود، إذ ارتبطت عملية إعادة التأسيس او التأسيس الثاني للدولة عام 2003 بالاحتلال الأمريكي. حيث أعيد دمج العراق بالنسق الرأسمالي المعولم. وربط اقتصاده بالاقتصاد العالمي وفق رؤية سلطة الاحتلال، وخياراتها الاستراتيجية، ومشروعها الاقتصادي. وتحول العراق الى دولة ريعية بامتياز. وتشكلت فيه طبقات وفئات اجتماعية استند وجودها الى نشاطات اقتصادية تجارية وطفيلية كومبرادورية وهي كلها نشاطات معرقلة للتنمية، ولتطور العملية الاقتصادية السليمة. وإذا كان وجود هذه الطبقات والفئات الاجتماعية قد اعتمد على الاحتلال في البداية، فهي حاليا ترتبط في الغالب بالدول الخارجية. وقد عملت القوى السياسية التي أمسكت بزمان الأمور في ما بعد على ترسيخ وإدامة هذا الوضع، وتكييفه ليتلاءم مع مصالحها.

كيف تنظر إلى هذه المفارقة التاريخية؟ وما هو المطلوب من قوى التغيير كي تتجنب مصير انتكاسة 1958؟

د. عامر: المطلوب من قوى التغيير الانتباه إلى قضيتين الأولى عنوانها وحدة الحركة الوطنية. والثانية عنوانها أطروحة السيادة القائمة على التلازم ما بين الديمقراطية والاستقلال.

ففي زمن ارتفاع منسوب العدمية الوطنية لا يمكن ان تكون أطروحة الوطنية قمة عريضة غير ضيقة وواسعة غير مدببة تتسع للجميع من دون وحدة الحركة الوطنية. وفي العراق منذ سقوط الحكم الشمولي في 9/4/2003 وحتى يومنا هذا تتحكم في المشهد السياسي معادلة المراوحة بين التاريخ السيء (تاريخ الشمولية الدكتاتورية) والمستقبل الصعب (مستقبل انجاز الاستقلال التام والديمقراطية التي لم تستكمل بعد) وما بين هذا التاريخ السيء ونلك المستقبل الصعب تتمدد مجموعة ازمات ومشكلات وتشوهات لا يمكن مغادرتها ايجابيا الا بائتلاف قوى وشخصيات الحركة الوطنية في العراق. ان المطالبة بوحدتها تأتي دوما لتمثل امتدادا ومواصلة للمشاريع والجهود والمحاولات الوطنية الصادقة التي سبق ومازالت تبذل للنهوض بالفعاليات الائتلافية والتحالفية وتعميق مضامينها، وصولا الى صيغة تنظيمية تلتقي عندها جميع القوى والشخصيات الوطنية الحقة في سياق علاقات شراكة متكافئة.. صيغة تنظيمية خلاقة تعمل على دعم رؤى ومواقف خطاب وطني عراقي موحد. ان انجاز هذه المهمة في عراق المرحلة الانتقالية المعاشة ينبغي ان يدفع قوى وشخصيات الحركة الوطنية في العراق باتجاهاتها ومدارسها الفكرية والعقائدية كافة الى التحالف في سبيل المساهمة الفاعلة في معالجة الاشكاليات الملحة التي يعاني منها الوطن والمواطن وأبرزها: اشكاليات استكمال السيادة وصولا الى الاستقلال الناجز بعد تعجيل انسحاب بقايا القوات الاجنبية وقواعدها من العراق واقامة الحكم الصالح والنظام السياسي المستقر والعادل. وبناء علاقات ايجابية مع دول العالم كافة مبنية على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وعولمة مكافحة الارهاب ودحره.

- اشكاليات الارث الاستبدادي والدكتاتوري القديم وبقايا العنف والارهاب والنزعات الشمولية، وحماية منجزات التحول الدستوري

وصولا الى ترسيخ المسار الديمقراطي. ان معالجة هذه الاشكاليات والازمات تجعل من قوى وشخصيات الحركة الوطنية في العراق تقترب من بعضها وتحرص على العلاقات الايجابية مع القوى السياسية الوطنية الاخرى والتعاون معها من اجل الانتقال بالعراق من كيان سياسي هش الى دولة نظام سياسي مستقر وعادل قادرة على السير صعودا بالمرحلة الانتقالية، التي يعيشها عراق اليوم الى مرحلة التحول الديمقراطي.

ان مضمون وحدة الحركة الوطنية في العراق سيكون مفتوحا ومنفتحا على كل المشاريع الوطنية العراقية الحقة التي تريد للعراق الجديد ان يكون عراقا مستقلا.. عراق دولة مؤسسات وقانون.. عراق مجتمع مدني متنوع ومتجانس.. عراق نظام سياسي مستقر وعادل.. عراق حكومة وطنية خادمة تعمل لإيقاف التدهور من اجل انجاز التطور وتقدم كل ما يخدم الازدهار والتحسن المطرد لحياة المواطن والوطن. أما مفهوم السيادة كما هي حال غيرها من الاطاريح الفكرية السياسية كالديمقراطية والعدالة والمساواة والمصلحة الوطنية والاستقلال، فمفهوم لسؤال ثابت واجوبة متغيرة، وعلى المتغير الا يلغي او يكون بديلا لاغيا للثابت، كما على الثابت ألا يهمل او يكون بديلا لاغيا للمتغيرات. ان مفهوم السيادة يتمتع بالخاصية التاريخية وقد التصق ظهورا باسم القابلة المأذونة له (المحامي والمفكر الفرنسي جان يودان) في كتابه (كتب الجمهورية الست) الذي نشره عام 1576 ليبرر من خلاله الحكم المطلق غير المقيد للعاهل الملكي الفرنسي شارل التاسع ليفرض سيطرته المطلقة على ادارة الشأن السياسي العام في فرنسا الكاثوليكية على أثر مذبحة ضحيتها ثلاثين ألف بروتستانتي فرنسي. غير ان مفهوم السيادة تعرض لمجموعة متغيرات وصولا الى زمن الرأسمالية المتوحشة التي روّجت ثقافة الخجل من السيادة لان الاستقلال والتحرر الوطني أصبح جوهرة السيادة حتى جاءت العولمة الرأسمالية. وإذا تعاملنا اليوم مع السيادة وفق منهجية زمكانية يقتضي الحال ان نفرق ما بين السيادة البودانية (الواحدة والمطلقة وغير القابلة للتجزئة والتنازل) وبين السيادة المعولمة زمن الرأسمالية المتوحشة التي تبرر الهيمنة وعدم الخجل من التبعية للآخر الاجنبي المهيمن. بمعنى اخر ان السيادة البودانية جعلت الاستقلالية مثوبة بشرف وكرامة وطنية اخلاقيا، وجوهرها حكم تسلطي مطلق سياسيا. اما السيادة في زمن الرأسمالية المعولمة فأنها جعلت من الاستقلالية مثوبة بالديمقراطية وبمشروع ثقافة الخجل من السيادة اخلاقيا وجوهرها قبول التبعية وعدم الخجل من هيمنة الاجنبي سياسيا. عليه، فإن التفكير والعمل وفق الفهم البودانية للسيادة سيذهب بنا الى القبول بالاستبداد والحكم التسلطي الشمولي، وبالمقابل فأن التفكير والعمل وفق الفهم المعولم للسيادة سيذهب بنا الى التبعية للمهيمن الرأسمالي المتوحش.

وعلى اساس ما تقدم فأن الذهاب في الطريق البودانية سيكون خاطئا وكذلك الذهاب في الطريق المعولم لأنهما طريقان وعران فمن سيكون مع السيادة البودانية سيتهم بأنه مع الاستبداد والحكم الشمولي المطلق، ومن يناهضها سيتهم انه مع التبعية والقبول بالهيمنة للآخر الاجنبي الرأسمالي المتوحش.

عليه، فان التمسك بالسيادة البودانية اليوم خطأ (شرعنة الاستبداد) والتمسك بالسيادة المعولمة اليوم خطأ (شرعنة التبعية) فما العمل؟ الامر يحتاج الى معادلة صحيحة ينبغي ان تفهم وتطبق من خلالها السيادة انطلاقا من حقيقة تفيد ان السيادة حق للشعوب وواجب على الحكام. فلا سيادة بلا استقلال، ولا استقلال بدون ديمقراطية وبدون هذه الحقيقة فأن الخارج سيكون غير مسؤول عن استقلالية بلد، وداخله فارغ من مستلزمات السيادة الداخلية وبدون هذه الحقيقة ايضا كيف ستحترم قرارات الدولة من خوارجها إذا كانت قراراتها لا تسري على دواخلها. بمعنى ان مستلزمات السيادة داخليا تتطلب وجود دولة لا كيان ما قبل الدولة.. كما تتطلب وجود وحدة قرار سياسي داخلي وخارجي معا لهذه الدولة.

ومن هنا يأتي حرصنا على ضرورة التزامن ما بين الاستقلال والديمقراطية لكي نتلمس سيادة حقيقية ننشدها.. فلا سيادة مع الفساد.. ولا سيادة

مع المحاصصة الجهوية الضيّقة قوميا ودينيا ومذهبيا وحزبيا ومناطقيا.. ولا سيادة دون حصر السلاح بيد الدولة.. ولا سيادة دون تخوين وتجريم ونبذ المستقوي بلا خجل بالأجنبي.. ولا سيادة دون احترام الدستور والالتزام بأحكامه حتى من قبل واضعيه.. ولا سيادة دون العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروة.. ولا سيادة دون اقتصاد انتاجي.. ولا سيادة دون استقلال القضاء.. ولا سيادة لدولة دون رجال دولة.. ولا سيادة لدولة دون تشابك وتداخل مصالح وتدخل من الخارج.. ولا سيادة لدولة تنأى بنفسها عندما تتعرض مصالحها الوطنية العليا للضرر سواء من داخلها ام من خارجها. اخيرا، ولأن المصلحة الوطنية هي جوهرة السيادة ولأننا لا نريد وجع الرأس من السيادة البودانية، ولا نريد وجع التبعية من السيادة بالنهج الرأسمالي المتوحش، علينا ان نجعل من السيادة حصنا للمصلحة الوطنية ومشروع تحرر وطني من كل قيود الداخل والخارج على المواطن والوطن.

إذا اردنا ان نوجه رسالة انتباهات إلى متخذي القرار القابضين على السلطة بصدد مسألة السيادة نضع مسطرة معرفية لها صلة بعقلية وتفكير وسلوك لمن يريد ان يكون رجل دولة يجيد التعامل مع اطروحة السيادة فكراً وفعلاً وتلك الانتباهات تتمثل بما يأتي:

ضرورة فهم العلاقة بين الاستقلال السيادي والديمقراطية المدنية للدولة.

ضرورة فهم الترابط بين سيادة الداخل والخارج اي (انتزاع السيادة داخلياً) و (تكامل السيادة خارجياً).

ضرورة وحدة الخطاب السيادي واخراجه من دائرة الاستحقاقات الفرعية القابلة للخلاف والاختلاف، وادخاله في دائرة الاستحقاقات الوطنية غير القابلة للخلاف والاختلاف.

ضرورة إجادة استخدام الأجندة القائمة على التفضيل والأفضليات في تحديد الأولويات في التعامل مع المحيط الإقليمي والدولي.

التمييز ما بين التدويل والنأي بالنفس في التعامل مع دول المحيط الاقليمي والدولي انطلاقاً من مبدأ العراق اولاً.

اعتماد النهج الوظيفي لا العقيدي في السياسة الخارجية والعلاقات الدولية.

الانتباه الى ان الاعمال السيادية لا تحتاج لأزلام سياسة، وهم كثر، بل تحتاج لرجال دولة وهم قلة. لأن بالضرورة كل رجل دولة هو سياسي، ولكن ليس كل سياسي هو رجل دولة. ومن الضروري عدم اكتفاء رجل الدولة بالتصدي والانشغال والمعالجة للمشاكل القائمة فحسب بل للقادمة ايضاً.

وآخر الانتباهات تفيد بأن الدولة في العراق التي لا يكون لها سيادة ناجزة توفر اكتفاء ذاتيا بالغذاء والدواء والمعرفة، سوف لا يكون لها مكان تحت الشمس.

عندها سيكون الحريص على بيته الوطني منفتحاً لا منغلقا ولا مقاطعا وبالمقابل ستكون البيوت الوطنية الأخرى متعاونة معه لا مخاصمة لبيته. وهنا لا خشية على أسرار وهويات وحقوق بيوت العالم حتى لو أصبح العالم قرية كونية صغيرة يظل كل بيت فيها يتمتع بسيادة حرياته والعدالة الاجتماعية بين أبنائه.

ولا خشية على السيادة بعد ذلك طالما ان القرارات والخيارات (بالتنازل او بالتمسك بالحقوق) مقترنة بإرادة كل شعب قادر على التعبير عن خياراته بحرية مطلقة قائمة على المساواة والعدالة الاجتماعية. فالحرية المطلقة القائمة على العدالة الاجتماعية في كل وطن هي السيادة التي ينبغي ان تسود بدل السيادة البودانية المطلقة وسيادة العولمة المطلقة.

ونحن هنا نراهن على حركات الشعوب الاجتماعية غير المنفلتة، المنظمة بسلطات منتخبة ممثلة بالمؤسسات وسلطات شعوب موازية غير ممثلة بالمؤسسات ليصبح عالمنا عالم سيادة شعوب، لا عالم السيادة البودانية المطلقة (عالم شريعة الغاب)، لا عالم سيادة العولمة المطلقة (عالم غاب بلا شريعة)، لأن الشعوب لا تستاهل ماضيها في السيادة البودانية القومية العنصرية المتقاتلة، ولا تستأهل حاضرها في سيادة عولمة نيوليبرالية متوحشة.

أدب
وفن

ما كان وما نحن عليه

حسب الله يحيى

ما نحن عليه الآن.. هو نتيجة طبيعية لما كنا عليه.
وما كناه، لا يستحق الرثاء ولا أن نعلن الثأر ونرفع السلاح بوجهه.
السلاح وراء كل المصائب والمصائد معاً.
الحروب.. آفة ودمار وخراب اي مجتمع، ونكوص اي بلد.. فكيف الحال، والكوارث متلاحقة، والحروب متلازمة.. والأمان غائب والجوع قاتل والجهل في إعمام، والمرض في هواء لم يعد نقياً؟
منذ انقلاب 8 شباط 1963 المشؤوم، والعراقيون ينقلبون من أزمة لعقد أزمة لاحقة، ومن ترف الدم والدموع، صار الزي في سواد دائم، وقد نسي البياض، مثلما نسي النوم على همسات.
كل الشعوب اليقظة، خرجت من الحروب، بتجربة البناء، وطلاق الحروب الى الأبد.. إلا العراق، فقد أبى إلا ان يعد الحروب.. شجاعة وانتصاراً وتباهياً.. وسلاحاً نحتاج إليه في السراء والضراء، في أحزاننا الثقيلة وأفراحنا المنكسرة..
وحدنا، كما لو اننا في ضيعة طينية نادرة.. نعشق الموت المفروض علينا وقد استسلمنا له، وأرفقنا معه فساد المال والأخلاق والإدارة، حتى أصبح ثقل ما كان.. كما لو انه ينبغي أن يكون وأن يظل كائناً.
ولم يعد الطغيان فرداً، ولا الخراب مكاناً، ولا الفساد ثمرة فاسدة.
الطغيان والخراب والفساد اجتمعوا علينا، وشكلوا
وحدة لادامة هذا المخلوق العجيب!
و.. نقول: الحل في الثقافة.
فالجهل مرض، والمرض فناء.. ولكي لا نفنى، لا بد من للبصيرة ان تبوح بحكمتها.
الحكمة.. أن نكتفي بنزيف الدم، ونلغي من حياتنا قاموس الثأر والانتقام.
الحكمة.. أن نقضي بقضاء عادل.. ومعلم حكيم يعرف كيف يقود البلاد الى بر الامان والسلام.
الحكمة.. ان لا نقدم المزيد من التضحيات، فالضحايا امتلأت من حياتهم النبيلة كل المقابر، وآن للتراب أن يتنفس الحياة، بغد المعرفة، وغد العافية، وغد السنابل التي يلوح بها كل عراقي، فهي الخبز/ والاقتصاد، وهي السلم/ والبناء، وهي الورقة النقية البياض.. حتى نخط قوانين الحياة التي ننشدها.

الجالية العراقية في السويد وموضوعة الاندماج

د. محمد الكحط *

الهجرة ظاهرة عالمية، تقف وراءها أسباب عديدة حسب الزمان والمكان، فتارة الوضع الاقتصادي، وتارة أخرى الحروب أو الظروف السياسية والتمييز الطائفي وقد تكون لأسباب أخرى كأن تكون اجتماعية أو ثقافية. والهجرة العراقية إلى الخارج بدأت منذ القرن التاسع عشر بفعل الحكم العثماني الجائر والحروب الطائفية والظروف الاقتصادية، واستمرت عوامل الطرد إلى بلدان أخرى لتوفر عوامل جذب فيها، فكانت تلك البلدان في أمريكا اللاتينية وخصوصا البرازيل والأرجنتين، ومن ثم أوربا وأمريكا الشمالية في بداية القرن العشرين، لوجود ظروف وفرص حياة أفضل فيها لما لهذه البلدان من عوامل جذب توفر ظروفا اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وأمنية أفضل .إن هذا العدد الكبير نسبيا من المهاجرين والذي يزداد باستمرار بفعل استمرار الظروف التي تؤدي إلى الهجرة، وبينهم مهاجرون جدد، معظمهم من الشباب والأطفال، ما زالوا لم ينصهروا في المجتمع بشكل كبير بسبب هجرتهم الحديثة العهد.

المهاجرون وسياسة الاندماج:

ان سياسة الاندماج هي نوع من التفاعل الاجتماعي المطلوب لكلا الطرفين، الدولة المستقبلة للمهاجرين والمهاجرين أنفسهم، وعرفت منظمة الهجرة الدولية (IOM) الاندماج بأنه (يتعلق بعملية ذات اتجاهين للتكيف المتبادل بين المهاجرين والمجتمعات المستقبلة)، أي ان الاندماج يعني الابتعاد عن الانعزالية، والقيام بسلوكيات إيجابية ويساهم في الحياة العامة الاجتماعية والسياسية والثقافية في البلد الذي أختاره للعيش فيه(1). فالمواطن المهاجر في دول الاتحاد الأوربي والذي حصل على تصريح الإقامة أو حصل على الجنسية، يتمتع بالمساواة مع مواطني المجتمع أو البلد الجديد في الحقوق والواجبات، وتتعلق عملية الاندماج بالمستوى الثقافي للفرد والأسرة في عملية اندماج المغتربين، ويبرز اتجاه يؤكد على ضرورة محافظة المغتربين على خصوصيتهم الثقافية، لكن لهذا الاتجاه مخاطره، فقد يؤدي إلى الانطواء وعدم التفاعل مع المجتمع، كون الثقافة هي آلية من آليات التكيف مع المحيط البشري وتسهل عملية التنظيم الوظيفي للمجتمع، والتفاعل الثقافي مهم جدا للعيش في المجتمع الجديد، فيكون من الصعب على المغترب أن يتفاعل مع قيم مجتمع بلد الإقامة الجديد بدون التفاعل والمرونة في التعامل الثقافي ودون التعصب لثقافته، مما يسهل تكيفه مع الحياة

الجديدة بشكل أسهل ودون أن يفقد خصوصيته الثقافية، كما أن قدرة المغترب على الاندماج في المجتمع الجديد الذي أختاره هو بنفسه، تجعله يشعر بالارتياح النفسي. ففي دول الجذب، تلتقي عدة حضارات وثقافات في مكان واحد وتندمج وتتشكل علاقات مواطنة جديدة، وتتكون عبر السنين هويات ثقافية جديدة حتى لأبناء البلد الأصليين، هويات تتخطى الثقافات والحدود، فنراها دولا تحوي تنوعا ثقافيا وعرقيا حيث تسود المساواة بين الجميع بالحقوق والواجبات، وتشكلت ثقافات إنسانية جديدة مبنية على أسس مدنية وحضارية جديدة، تنبع من المواطنة حيث يحترم الجميع بعضهم البعض ولا يتم التفريق بين شخص وآخر، خصوصا في هذه البلدان التي اختارها المهاجرون للعيش، لتكون مبادئ الديمقراطية والحرية والمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء قد أخذت أبعادها الحقيقية وترسخت في قيم وحياة هذه المجتمعات، على الرغم من وجود ميل لدى المغتربين للاحتفاظ ببعض عاداتهم وتقاليدهم التي تربوا عليها، لكن الحالة تختلف مع جيل الشباب والمثقفين من جيل الكبار فنجدهم يندمجون بشكل أفضل من غيرهم، ان تشبث بعض المغتربين بقيم وعادات بلدهم الأصلي ربما يرتبط بتأكيد واحترام الذات والخصوصية التي نشأوا عليها وليس من السهل مغادرتها.

بدأت الهجرة إلى أوربا في القرن الماضي، فهناك مهاجرون ضمن موجات الهجرة التي عرفتها أوربا بعد الحرب العالمية الثانية، وتتوفر فرصة للمهاجرين للمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية، بسبب ترسخ قيّم الديمقراطية والقيّم الإنسانية في هذه الدول، وترسيخ عادات احترام الآخر، ما يساهم في المحافظة على الهوية الثقافية.

كما توجد أعداد كبيرة نسبيا من المهاجرين العرب في استراليا، وحسب الموسوعة العالمية(2)، فقد وصل أول المهاجرين العرب إلى أستراليا عام 1861م، وبعد ذلك توالت الهجرات العربية إلى أستراليا، أما في نيوزيلندا والتي يبلغ تعداد سكانها ما يقارب من 4.3 مليون نسمة، منهم حوالي 78% من المجموعات العرقية الأوروبية، وقليل من المهاجرين من قارة آسيا، فعهد الجالية العربية فيها قريب.

أوضاع المهاجرين:

اختلفت الأوضاع بالنسبة للمهاجرين في كل أنحاء العالم، وليست هناك أوضاع متشابهة أو ثابتة، ولكن هناك مؤشرات يمكن التوقف عندها منها: ميل المهاجرين إلى تنظيم أنفسهم في جمعيات ومؤسسات المجتمع المدني أو أي مؤسسات أخرى، من أجل تأطير وبلورة وجودهم وخصوصيتهم في كيانات مميزة، كما تشكلت العديد من الجمعيات الخيرية والتربوية، خاصة بهم. ويلاحظ ازدياد التفاعل والمشاركة أو المساهمة في العمل السياسي، وصعود البعض منهم في بعض الدول إلى المراكز العليا لصنع القرار كوصولهم إلى السلطات التشريعية، البرلمان أو وصولهم إلى مراكز المؤسسات التنفيذية، ومنهم من تبوأ مناصب أكاديمية وعلمية عليا لها ثقلها الدولي، ناهيك عن بروز أعداد كبيرة منهم في مجالات إبداعية مهمة كالأدب والفن التشكيلي والمسرح وغيرها من المجالات الإبداعية الأخرى .ويزداد الاعتراف بالمهاجرين كونهم مجموعة لها ثقلها وخصوصيتها الاجتماعية في بعض بلدان المهجر، فقد (أضحت قضية الهجرة والمهاجرين أو المهجرين العرب في أوربا، موضوعة على أجندة العلاقات العربية الأوربية بجانبيها الوطني والجماعي)(3).

ومن جانب آخر باتت الدول الأوربية المستقبلة تقليديا للمهاجرين تحذر من تدفقهم الواسع، وتحاول ان تغير في السياسات الاتحادية الخاصة بالهجرة والمهاجرين(4).

ومع ازدياد تطور وسائل الاتصال وتبادل المعلومات والخبرات، فقد تقلصت المسافات بين المهاجرين وبلدهم الأصلي على جميع الصعد، ما ساعد على تواصلهم وتفاعلهم مع قضاياه، وقد ساهمت الجالية العراقية في السويد في التصدي أو الوقوف عمليا مع القضايا الملتهبة لبلدهم ولم يفرطوا بانتمائهم وهويتهم، ومنهم من ساهم ويساهم بالدعم المتعدد الجوانب.

معلومات عن السويد(5): السويد من الدول الإسكندنافية التي تقع في أقصى شمال أوربا، تبلغ

مساحتها 450 ألف كيلو متر مربع، وتعد رابع أكبر دولة أوربية وتبلغ المسافة ما بين أقصى شمالها وأقصى جنوبها 1600 كم، يتميز فصل الشتاء فيها بالبرودة الشديدة وتصل إلى درجات متدنية جدا تحت درجة الصفر المئوي، تتساقط الثلوج والأمطار خلاله، وتقل ساعات النهار مما يقلص ساعات الضوء، عكس صيفها الذي يكون نهاره طويلا وتمتد ساعات شروق الشمس إلى ساعات طويلة، تكسو أراضي السويد الغابات وتكثر فيها البحيرات الطبيعية والموارد المائية المختلفة.

كانت السويد خلال القرن التاسع عشر عبارة عن مجتمع زراعي فقير، يتميز بالفوارق الطبقية الكبيرة، وهاجرت خلاله أعداد كبيرة إلى أمريكا الشمالية، فقد هاجر خلال الفترة ما بين 1820-1930 ما يقارب 1.3 مليون من السويديين، أي ما يعادل ثلث سكان البلاد آنذاك، إلى أمريكا الشمالية ومعظمهم إلى الولايات المتحدة، وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأ تأسيس الأحزاب السياسية بسبب النزاعات الموجودة وأيضا لتنامي التعليم والتثقيف في صفوف المجتمع، ونجح نضال الجماهير في ترسيخ أطر الديمقراطية في البلد خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، وحصلت النساء على حق التصويت العام سنة 1921م، وتساوت مع الرجل في الحقوق السياسية، لكن الفروق الأخرى استمرت.

يعيش حوالي 85% من السكان في المدن، أكبر المدن هي ستوكهولم، غوتنبرغ ومالمو، في إحصاء عام 2007، قُدر نسبة المولودين خارج البلاد بـ 13.4 % من إجمالي عدد السكان، أي تحولت السويد من دولة طاردة للسكان بعد الحرب العالمية الأولى إلى دولة جاذبة للسكان بعد الحرب العالمية الثانية.

الهجرة الى السويد ليست جديدة، فقد هاجر إليها على امتداد القرون المختلفة شعوب متعددة مثل المان هانزا، الفالونيون، الاسكتلنديون، وأعداد أخرى من شعوب مختلفة، أما الهجرة في العصر الحديث فقد بدأت مع نشوب الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب وبسبب الطلب المتزايد على الأيدي العاملة تمت تلبية ذلك من خلال هجرة أبناء الدول الإسكندنافية وخصوصا من فنلندا وكذلك من بعض الدول الأوربية الأخرى، وخلال العقود الأخيرة بدأت الهجرة من خارج دول الشمال وكانت تتألف بصورة أساسية من اللاجئين وأقارب المهاجرين، وفي العقد الأخير قدم معظم المهاجرين من العراق وسوريا وبولندا وتايلاند والصومال والصين.

وعهد الهجرة العراقية إلى السويد ليس قديما، بل إنه بدأ في العقود الأخيرة، فلم تكن السويد هدفا للهجرة سابقا، ولذلك عدة أسباب موضوعية، منها:

1- بعد السويد الجغرافي، كونها تقع في أقصى شمال أوربا مما يصعب الوصول إليها. ويفصلها عن أوربا بحر البلطيق.

2- طقس السويد القاسي شتاء، وكثرة تساقط الثلوج فيها، مما يصعب على المهاجر العربي القادم من الأماكن الدافئة على التكيف مع البيئة السويدية أو العيش فيها.

3- صعوبة اللغة السويدية، فهي قريبة من عدة لغات، كالإنكليزية والألمانية والفرنسية، مما يصعب دراستها والتفاهم بها، كما أنها ليست من اللغات المنتشرة عالميا، فالعراقيون يفضلون دولا تتكلم الإنكليزية كونهم لن يحتاجوا لفترة طويلة لإتقان لغة البلد، ومن ثم البدء بالعمل أو التعليم أو الاندماج مع المجتمع.

4- انغلاق المجتمع السويدي نوعا ما، فهو من المجتمعات التي تعد صعبة الاختلاط، وليس ذلك نابعا من طبيعة عنصرية أبدا، بل أن المجتمع هنا لا يميل إلى الاختلاط حتى بين أبناء البلد أنفسهم، لذا فالعراقيون لا يميلون لمثل هكذا مجتمعات، كونهم سيشعرون بالغربة بشكل أعمق

لكن يلاحظ في العقود الأخيرة، تفضيل البعض من العراقيين الهجرة إلى الدول الإسكندنافية وخصوصا السويد لعدة أسباب:

1- هذه البلدان تعد من البلدان التي وصلت إلى مرحلة مثالية من الرفاه والتطور الاجتماعي، وتتوفر فيها الضمانات المعيشية، وتضمن السكن والعيش الطبيعي، والضمان الاجتماعي والصحي للأسر، حتى لمن هم بدون عمل، مما يشجع العديد من الذين لديهم أطفال على الهجرة إلى هناك، حتى وأن لم يتوفر العمل.

2- كذلك تنعدم تقريبا الروح العنصرية بين أفراد

المجتمع السويدي، ولا توجد هناك تفرقة أو رفض للأجانب، والقـــوانين صارمة ضد التمييز أو التعصب بكل أنواعه، قياسا بدول أخرى.

3- تتوفر الفرص الكبـــيرة والمتاحـــة للجميع الدراســة والتعليم والإبـداع وممارســة الهوايات الثقـافية وغيرها، مما يشـجع المبدعين والمثقـفين ومن يرغب بالدراسة الهجرة إليها.

4- السـويد والدول الإسـكندنافية بشـكل عام من البـلدان التي يتوفر فيها الأمان والاستقـرار، فهي من البلدان المحايدة وتنبذ الحروب، ولها سياسـة واضحة، وتدافع عن قضايا شعوب العالم الثالث، ومنها القضايا العربية العادلة، وقـد تغير ذلك في الفترة الأخيرة خصوصا بـعد الحـرب الروسـية الأوكرانية، وطلب السـويد الانضمام إلى حـلف الناتو.

5- يمكن إضافة عوامل أخرى مثل التسـهيلات في منح الإقامة ومن ثم الجنسـية إلى فترة قريبـة، لكن الآن ازدادت التعقيدات بالنسبة لجميع المهاجرين.

أعداد العراقيين في السويد:

واجهتنا مشكلة تحديد أعداد العراقيين بدقـة، فدائرة الإحصاء المركزي تعطي أرقاماً عن المهاجرين من حـملة الجنسـيات الأجنبـية، وإحـصائية لمن ولدوا خارج السويد وإحصائيات لمن ولدوا داخل السويد من والدين أو أحدهما أجنبي، كذلك لدائرة الهجرة أرقـام مختلفة، وما زالت أعداد أخرى لم تسـجل في السـجلات المركزية كونهم من الذين رفضت طلبات إقامتهم أو لجوئهم، فيبقون مختفين عن أعين السـلطات، وهنالك من ينتظر لم الشـمل مع عوائلهم، لذا فأعدادهم تتصاعد باستمرار.

علما ان العديد منهم وصلوا إلى السـويد بـعد أن مزقوا جوازات سفرهم أو وصلوا بوثائق مزورة اضطروا لأتلافها قبـل وصولهم السـويد، وكذلك الحـال بالنسبـة لمن ولد في مكان مغاير لبـلده، فالسـويد لا يمكن أن تحـدد رسـميا أصولهم كون القوانين صارمة بهذا الخصوص، حيث يعد جواز السـفر الرسـمي هو الوسـيلة الأساسـية لاعتماد بـلدانهم وحـتى من يحـملون جنسـية مزدوجة أو ولدوا في بلد وهم من آباء بلد آخر، فالقانون ينص: (بالنسبـة إلى دولة الجنسـية، قـد يحـمل المسـافر جنسـية مزدوجة لكن لا يتم تسـجيل إلا الجنسـية الخاصة بجواز السفر الذي يقدمه المسافر). لم تكن أعداد العراقيين في السويد كبـيرة لكنها ازدادت خلال العقود الأخيرة، حيث شـهدت نزوح أعداد كبـيرة من العراق خلال الحـروب والأزمات وجاءوا كلاجئين وأصبحـوا أكثرية قياسـا بالمهاجرين العرب، وقسم منهم وصل إلى السويد ضمن حصة السويد المقررة من طلبـات اللجوء الخاصة بـمكاتب الأمم المتحدة، فالعراقيون اليوم يمثلون أكثر من 2% من المجتمع السـويدي وهي نسبـة كبـيرة، فهم الآن أكثر من 200000 عراقـي(6)، ولهم العديد من الجمعيات والنوادي وأماكن للعبادة لمختلف الأديان والطوائف، وتقوم بنشـاطات عديدة، منها الاجتماعية والثقـافية والسياسـية وغيرها، وهنالك العديد من الأطبـاء والأساتذة الجامعيين والمهندسين والخبراء ناهيك عن المبـدعين في المجالات العديدة في الفن التشـكيلي والمسرحـي وفي الأدب بشـكل عام وغيره. وتشـير إحـدى الدراسـات إلى افتقـار (الدراسات إلى استطلاع أسباب تفضيل البعض في السـنوات الأخيرة الهجرة إلى ألمانيا والدول الإسكندنافية)(7).

يعيش العراقيون في السـويد في ظروف معيشـية جيدة، فكل شـيء متاح للأطفال، وهنالك مغريات لزيادة الإنجاب، فجميع المقيمين مشمولون بـالدعم والضمان الاجتماعي، وتدعم الدولة بشـكل كبـير المهاجرين ليصبحـوا مسـاهمين في إدارة البـلد، حيث يحق لمن حصل على الإقامة الدائمية وحتى قبل أن يتجنس أن يشترك في التصويت بانتخابات البلدية، ومن تجنس يحق له التصويت للانتخابات البـرلمانية، والتجنيس يكون بـعد حـوالي خمس سـنوات من الوصول إلى السـويد، وهو سـهل الحـصول عليه إذا لم يرتكب الشـخص مخالفات يعاقب عليها القانون، ويحـق للمتجنس أن يعمل في السياسـة. وينتمي البـعض للأحـزاب ووصل بـعضهم إلى البرلمان السـويدي، منهم مراد آرتن عضو لجنة العلاقـات الخارجية في البـرلمان السويدي (وهو من أصل عراقي) من حزب اليسار السويدي، وعبير السهلاني من العراق (عن حزب الوسـط) التي فازت في انتخابـات 2010م، والآن هي عضو في البرلمان الأوربي، وآخرين.

وعلى الرغم من أنّ السـويد لا تضع عراقـيل أمام

الراغبين في العمل السياسي من الأجانب المقيمين إلاّ أنّ نسبة الأجانب الموجودين داخل المؤسسات السويدية قليلة للغاية، وقد يعود السبب إلى عدم اكتراث الأجانب بالهمّ السياسي السويدي.

يعاني البعض من صعوبة الحصول على العمل، وتزداد نسبة البطالة بينهم مما يعرقل اندماجهم في المجتمع السويدي، وحتى حملة الشهادات العليا يصعب توفر فرص العمل الملائمة لهم مما يضطرهم للعمل أو الدراسة للحصول على فرص عمل بعيدة عن اختصاصهم ورغبتهم.

ويقف حاجز اللغة عائقا لبعضهم كون اللغة السويدية ليست متداولة عالميا، كما أن الاندماج مع المجتمع ليس سهلا، ويرى خبراء الاندماج السويديون ان رهانهم على أبناء المهاجرين الذين يعيشون منذ طفولتهم مع السويديين ويتعلمون اللغة بشكل جيد.

هذا لا يعني أن الكبار جميعا لم يندمجوا مع المجتمع، فمنهم من ذاب في المجتمع الجديد، وآخرون ما زالوا متعلقين بكل القيم والعادات والتقاليد التي يحملونها على الرغم من الصعوبات لاستمرار هذا النهج، فالإنسان هنا مجبر أن يحترم ويطيع القوانين السويدية ويعاقب إذا ما تجاهلها، وهناك من يحاول الاندماج والانفتاح والمزج بين الحضارتين متجنبا السلبيات في المجتمع الجديد قدر الإمكان ويبتعد عن سلبيات الماضي، وهذه المسألة ليست بهذه السهولة، فهناك صراع داخلي يواجهه المرء.

ويفضل معظم الآباء مشاهدة البرامج العربية في الفضائيات العربية مما يزيد من تباعدهم عن اللغة السويدية وعدم إتقانها، فهم لا يشاهدون البرامج السويدية ولا يتابعون النشاطات السياسية والثقافية السويدية، ويكون معظم احتكاكهم الاجتماعي مع أبناء بلدهم، وفي أماكن السكن تتجمع الجاليات في مدن وأحياء معينة، مما يباعدها عن المجتمع أكثر، فيقل الاحتكاك والاندماج.

كذلك تقوم السويد كدولة بمساعدة الأجانب وتوفر لأولادهم فرصا لتعلم لغتهم الأم أي اللغة العربية وحتى الكردية، حيث تتوفر في كل المدارس من المرحلة الأولى إلى المرحلة التاسعة دروس تخصص للغة الأم.

لقد أسس العراقيون النوادي والجمعيات العربية، وتقوم هذه المؤسسات بنشاطات مختلفة اجتماعية ثقافية وغيرها، وهي عامل مهم في حياة العراقيين كونها تمثل مجالا جيدا لتواصلهم وتفاعلهم مع بلدهم العراق وعاملا للحفاظ على الخصوصية الثقافية وتوطيد اللحمة الوطنية، ويعمل في إدارتها العديد من المتطوعين، وهدفهم السعي لخلق أجواء من الترفيه والفرح والبهجة والتواصل مع بعضهم البعض.

* باحث وأكاديمي عراقي، مدرس في الاكاديمية العربية في الدنمارك.
أصدر كتاباً بعنوان (عادات التلقي لدى المهاجرين العرب للقنوات الفضائية/ المهاجرون العرب في السويد أنموذجاً - دراسة ميدانية) ط ١ / ٢٠١٦ - مطبعة شفيق / بغداد.

الهوامش:

1- منظمة العمل العربية، التقرير العربي الأول 2006، ص. 297

2- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B1%D8%A8#cite_note-7
تاريخ الدخول 18 مارس 2010م

3- مسعد، نيفين، وآخرون. 2005م، عرب المهجر، (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة). ص .102

4- المصدر السابق ص.18

5- Anika Agebjorn, trans. Nael Touqan, STATENS INVANDRARVERK, FIRST PUP. 1990, P6-P10.

6- www.scb.se

7- مسعد، نيفين، وآخرون. 2005م، عرب المهجر، (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة) ص113.

الوطن وحقيبة السفر

رحمن خضير عباس*

يبدو أن الغربة التي وجدنا أنفسنا مكبلين بسلاسلها الناعمة، تتحول تدريجيا إلى قدر يلازمنا، فمنذ اللحظات الأولى التي نرتب فيها حقيبة الهجرة أو السفر، نتناسى أننا نسعى إلى التخلص من واقع سياسي قاس كحد السكين، وذلك من أجل وجوه من غادرناهم، نظراتهم المتلهفة، مشاعرهم المتدفقة، لذلك تنوء حقائبنا بقسوة الظروف - وأغلبها سياسية - تلك التي حملتنا على الرحيل، أو الهروب، وقسوة النأي عن وطن يجري في عروقنا. ثم نجد أنفسنا في متاهة شاسعة، متأرجحين ما بين الوجع الذي جعلنا كيانات مطرودة، وبين مجهول نسعى إليه بخطى مرتبكة. لذلك يبقى الوطن كامنا في حقيبة السفر، لا يغادرها، يدعونا أحيانا للولوج بين طياته، تستنشق عطر غباره، ونشرب قطرات من عذوبة مائه، نلوّث جلودنا بطينه الحرّي، نستنشق عطر عذوق النخل في بساتينه، حتى يتحوّل إلى تعويذة تجعلنا نعيش قلق اللحظة الراهنة التي نعيشها في بلدان أخرى، وقلق الأمكنة الجديدة التي أوتنا وترفقت بنا، وعلّمت أبناءنا، ومنحتهم حياة هانئة، ولكننا مع ذلك نشعر بأن هذه البلدان مجرد محطات أو مستودعات موقتة لحقيبة قلقنا التي نحملها معنا دائما، كي نجمع ما تبقى من شتاتها لعودة مستحيلة، إلى وطن غيّرت المحنُ ملامحه، فأصبحنا غرباء عنه، وكأننا تلك الغصون التي تساقطت من شجرته، فمهما هدأت العاصفة فإن الغصن لا يعود إلى طبيعته الأولى. أقول ذلك لما ينتابني من الشعور بالغربة حينما أزور الوطن أحيانا، وذلك لأن سنوات النأي قد حفرت فجوة من الصعوبة أن تندمل. وقد تمثل ذلك من خلال تلاشي الصورة النمطية العالقة في الذاكرة عن الوطن، بكلّ أبعاده، من الإنسان إلى البيئة التي تحتضنه، مرورا بالمدن التي توسعت بشكل عشوائي، والشوارع التي تشوّهت، والمؤسسات الخدمية التي اندثرت، إضافة إلى نشوء عادات غريبة وطقوس أكثر غرابة، ناهيك عن موت وانعدام السمة التي تربينا عليها لجيلنا الذي نعتزّ به، جيل التسامح الديني والحرية الشخصية، جيل الوعي الذي يتمثل بانتشار المكتبات، والتي تتجلى في شيوع ظاهرة الكتاب الذي يرافقنا في المقهى والبيت والشارع، انتشار النوادي الاجتماعية، ونهضة المرأة والتي تمثّل في إقبالها على الدراسة في الجامعات والمعاهد.

كل هذه الصور قد تبخرت، فصورة الوطن تختلف عما تركته، لذلك لجأت إلى حقيبة السفر الأولى، أحاول من خلالها بناء الوطن من خلال الذاكرة، تماما كما تركته في لحظة معجونة بالألم والدموع. أغمضتُ عيني وفتحتُ صندوق الذاكرة، لأقتنص منه حكاية مدينة قد عشتها في طفولتي، لأستلّ منه طعم الوطن بعد أن نفضتُ عنه غبارَ السنين، كي ألج هذه المتاهة من خلال (التحديق في بئر الطفولة) لمدينة غيرت اسمها من سويج الدجة إلى الغراف،

جمعتُ هذه الحكايات المشتتة، ونفضتُ عنها غبار السنين، وجمعتها في كتاب صدر لي في العام الماضي تحت عنوان (سويج الدچة)، ويتحدث عن طفولة مدينة وحكاياتها .مهما يكن قحط المكان الأول، فله شاعريته وبهجته، ولنا في الموروث حكايات لا تنتهي عن سحر الطلل وغربته، المكان يعني التكوينات الأولى التي لها الفضل في نحت شخصية المرء، فهي تتشكل وتتفاعل لتقوم بعملية بناء منظومته الشعورية والنفسية والسلوكية، والتي ترافقه إلى الأبد. وحينما نغادر المكان، وننأى عنه بعيدا، تبقى صورته ملتصقة في الذاكرة، تلك الصورة الأولى التي لم يطرأ عليها أي تغيير، وكأننا نقوم بتحنيط الأشياء، كما تركناها. وهذا الكتاب هو محاولة للتحديق في هذه الصورة التي تركتها منذ نصف قرن، وأستطيع أن أقول بأنه ليس سيرة ذاتية أو مذكرات، بل حكايات مدينة غادرتها بكامل وعيي ورغبتي، ولكنني عدتُ إليها من جديد، من خلال الكتابة عنها.

سويج الدچة ناحية منسية. أشبه بالقرية الكبيرة، تناثرت حولها رياح كثيرة، وغاب عنها الكثير من ناسها الأولين، حاولت أن أعيد صياغتها من جديد وكأني أعيد عقارب الزمن إلى تلك اللحظات الزمنية التي عفا عليها الزمن. حاولتُ أن أعيد الناس الراحلين من مقابرهم، أو المهاجرين من منافيهم، ومن شاخوا وهرموا إلى نظارة شبابهم أو إلى طفولتهم. حاولت تأثيث المكان بعطر الماضي، متناسيا كل التغيرات التي طرأت على جسد المدينة في هذه اللحظة، حيث الاختلال في المعايير العامة للنشوء المعماري، والفوضى في السلوك المعيشي اليومي . تحدثت فيها عن بيوتنا التي احتضنت خطواتنا الأولى، وشكلت طبيعة أمزجتنا وأخيلتنا وطبيعة شخصيتنا، تلك البيوت التي عبّر عنها الفيلسوف الفرنسي باشلر: "فالبيتُ هو ظاهرة نفسية، مكاننا الذي ينطق بالألفة والحماية، وهو الوسيلة التي نرسي بها جذورنا يوما بعد يوم في هذا العالم". فيتحول البيت إلى قرية وبلدة، بل يتجاوز ذلك فيتحول إلى رمز للوطن.

ومن خلال هذا البحث المضنى عن ذاكرة الوطن، جعلتُ من هذه المدينة الصغيرة جذرا لوطن لا تنقطع حكاياته القديمة كي تُفصح عن سرّ العلاقة التي تربط بين الإنسان وبين المكان الذي ينتمي إليه. تحدثتُ عن الإنسان الذي يعيش في المدينة، ولكن الريف المحيط به يستغرقه، من خلال تقاليد الضيافة، والحكايات المتواترة عن السلف التي تتحول إلى وسيلة السمر بين الناس، فهم يلوكون أحداثها ويعيدون صياغاتها حسب عواطفهم وأمزجتهم. كما تناولتُ سلطة القانون رغم الانفلاتات التي تحدث في النزاعات العشائرية، لأسباب مختلفة، منها التقاليد والأرض والكلأ، ومهمة الشرطة في فضّ هذه النزاعات لفرض القانون الذي يمثله مركز الشرطة رغم بساطته، ولكنه يسعى إلى الهيمنة على أفعال الناس ومراقبتها، وقد زخر الكتاب بإيراد الكثير من الحوادث العرضية بين أبناء المدينة، وكيفية تشكيل أمزجتهم وطبيعة تفكيرهم. يتحدث الكتاب أيضا عن دور المدرسة في تلك المدينة، في كونها نقطة الضوء الوحيدة في محيط من العتمة، وذلك من خلال استعراض الكثير من الانطباعات عن المعلمين في طريقة تعليمهم وعلاقاتهم مع الأحداث التي طرأت، سواء في التاريخ المنظور أو القديم، كذلك طبيعة الإدارة المدرسية وقسوتها وسلوك بعض الموظفين، ولاسيما فراش المدرسة الذي تقمص دور الأب الذي يأمر وينهى، كما تحدثتُ عن الأنشطة الفنية التي خلقت مسرحا، وقد ذكرتُ أول مسرحية جعلتني أتعلق بالسينما والمسرح، إضافة إلى الأنشطة الرياضية وما يرافقها من جد أحيانا، وطرافة في أحيان أخرى .لقد كان للمعلمين أثرٌ كبير في تشبع الطلبة بالأفكار الجديدة التي تلمسناها من خلال الخنادق الفكرية والميول الحزبية والتي انعكست علينا، حيث أن المعلم الذي يغرز أفكاره، كان يمتلك المواهب الكبيرة التي تستقطب التلامذة حوله، ومن ثم كسب ثقتهم باعتباره يتحول إلى قدوة، ومنذ تلك اللحظة تحزبنا وتصارعنا، وأصبحنا نرطن بمصطلحات لا نفقه معانيها. تناولت أيضا، انتقال هذه المدينة الصغيرة من الإضاءة البدائية بواسطة الفانوس إلى مجيء الكهرباء لأول مرة، وكيف انعكس ذلك على مجمل الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وظهور التلفزيون في المقاهي والحصول على بعض وسائل الرفاهية. رصدتُ من خلال عيون طفل في المرحلة الابتدائية عملية الانتقال من العهد الملكي إلى الجمهوري وردود الفعل لدى العائلة، والشعور بمجهولية المستقبل ، مما رافق التحول من حالات لتشظي المجتمع إلى تنظيمات سياسية من قوميين وشيوعيين وبعثيين، وكان خط البعث هو المهيمن على شباب تلك المدينة، وذلك بفعل تأثير بعض المعلمين الذين صودف أن بعضهم يعتنق الفكر القومي، وقد تمخض ذلك

التحزب عن تناحر حقيقي بين مدينة سويج الدچة، وبين شقيقتها مدينة الشطرة التي اعتنق جلّ أبنائها الفكر الشيوعي، مما خلق شكلا من أشكال الكراهية، رغم أن المدينتين لا تبعدان عن بعضهما إلا بضع كيلومترات. وقد أوردت حادثة السيارة التي كانت تحمل شبابا من الشطرة وكيف تعرضت إلى اعتداء بالحجارة، لأسباب عقائدية، حينما مرت على الغراف وهي في طريقها إلى الناصرية، وما تركه ذلك من كراهية متبادلة بين مدينتين متجاورتين. النهر الصغير الذي يجفّ أحيانا، فيجبر الناس على استخدام الآبار، ورغم أن النهر هو عصب الحياة للمدينة ولكنه يصل إلى أقصى درجات القحط في شحة أسماكه ونضوب مائه، فيتحول إلى نهر ميّت لا حياة فيه، وكيف كانت هذه الحالات تنعكس على الناس الذين يلجئون إلى حفر الآبار للحصول على ما يسد الرمق. لقد شغلتني إعادة صياغة الناس، هؤلاء الذين غادرتهم قبل نصف قرن، فحاولت أن أكون أكثر موضوعية، فلم أرسمهم وفق تصوراتي المسبقة عنهم حينما كنت أعيش بينهم، بل أخضعتهم لعملية غربلة، نظرا لأني أنظر إليهم من شرفة زمنية هائلة البعد، مما جعلني أغفر لهفواتهم وأخطائهم، وأحاول أن أصنع نوعا من الشخوص الأكثر إيجابية، حيث نحتُّ منهم أبطالا لحكايات يومية، قد يمتزج فيها الخيال مع الواقع، وكل ذلك بسبب اللهفة نحو لحظات من العمر تلاشت في غمرة هذا اللهاث الزمني الذي لم ينقطع. تناولتُ المهمشين من الناس، كسبة وفلاحين وباعة خضروات وغرباء، وجدوا أنفسهم يلتحمون مع تلك الفئات المجتمعية، كما تحدثت عن البطالة بين الشباب، لندرة فرص العمل، وعن العلاقة بين أبناء الريف والمدن ولاسيما مسألة البيع والشراء التي تُشبه المقايضة، فالفلاحون يبيعون منتجاتهم الزراعية كالقمح والشعير، والحيوانية كاللبن والروبة والقيمر، للتزود بالسكر والشاي والتبغ، وكيفية التنقل بين القرية والمدينة على ظهور الحيوانات، مما خلق نوعا من التراتبية في السلم الاجتماعي الذي هو نتاج لطبيعة الزراعة ونوعها. فالفلاحون الذين يزرعون الخضروات، نطلق عليهم الحساوية، وهم أقل أهمية من فلاحي القمح والشعير والرز، حيث يشكلون أهمية في السلم العشائري.

كما أوردت الكثير من الطرائف التي اشتهر بها أبناء المدينة، حيث لا يمتلكون من وسائل اللهو شيئا، مما يدفعهم إلى التنمر على بعضهم البعض، مما أشاع روح الفكاهة والطرافة. تحدثتُ عن حكايات العشق وطرائفه، بين الناس المحرومين من كل وسائل الرفاهية، حيث يجعلون من كلّ رائحة أنثوية مجالا لهذيانات العشق، في ظل ظروف اجتماعية متحجرة. أوردت ذكر الكثير من الأسماء الذين أعدموا من قبل الأنظمة، سواء كانوا من أحزاب دينية أو من أحزاب يسارية في ظل إلغاء للقياس الزمني، فبعضهم لقي حتفه في أزمان مختلفة، كما حدث لاغتيال أحد أبناء المدينة اليساريين، والذي قضى حياته في معتقلات الأنظمة الدكتاتورية، وشهد التعذيب في قصر النهاية وسجن الحلة، وعاش محنة قطار الموت، ولكنّ النظام لم يكتف بذلك، بل عمد إلى اغتياله، وقذف جثته في صحراء الرميلة في بداية السبعينات، كما تحدثت عن ضحايا من الأحزاب الإسلامية أعدموا في نهاية السبعينات، وفي كلّ ذلك، كنت أنظر بشكل يشوبه الحسرة والألم على كل هؤلاء بغض النظر عن انتماءاتهم الفكرية، فهم. أبناء وطن " ظلّ ينزفُ أبناءه".

لقد حاولتُ أن أربط بين الإنسان والمكان الذي شهد ضحكته الأولى، والذي يتحوّل مع الوقت إلى عشّه الدافئ الذي لا يرى في العالم بديلا عنه، بحيث أن أفعاله وعواطفه وأمزجته تبقى مرتبطة بذلك المكان بغض النظر عن غنى المكان أو فقره، بشاعته أو جماله، فتنشأ بين المكان والإنسان وشائج متبادلة تجعلهما متلاصقين، ومن هنا يتكون ما يسمى بالهوية التي تلازمه حتى في منفاه أو مهجره، إنه الكينونة التي تشكل طبيعة شخصيته.

ليس ثمة انفصام بين المدينة وأهلها، فثمة تأثيرات متبادلة بينهما، فتقوم المدينة بعملية نحتٍ لشخصية الناس، ويقوم الناس أيضاً برسم ملامح هذه المدينة وطبيعة مزاجها. لقد تحدثت عن سويج الدچة (الغراف) حينما كانت في وقت نموّها الأول، بعيون طفل يتعايش معها، وتبهره الأحداث الصغيرة والمشاهد العابرة، التي تكوّن التراكم المعرفي. الكتابة عن مدينة صغيرة منسية بالنسبة لي، تُشبه حفريات في الذاكرة عن الوطن الذي غادرته منذ سنين طويلة، ولكنه مازال يجري في عروقي، فأعايشه ويعايشني في أحلامي ويقظتي. لذلك مهما هاجرنا وابتعدنا، فيبقى الوطن محفوظا في حقيبة السفر.

* كاتب عراقي مقيم في كندا

حكاية وطن في وطن اخر !

فارس حيدر مهدي *

عند التفكير بـــالهجرة خارج الوطن ومنذ الوهلة الاولى بـــاتخاذ هذا القـــرار تنبـــثق الافكار والطموحـــــات، والتي تطورت خلال فترات الدراسة ومن المشاهدة والمتابعة العامة للحركة الســـينمائية والتلفزيونية خارج العراق والذي لا يخفى على احـد مدى تأثير تلك الصناعة في دول العالم وإمكانياتها التقنية والفلسفية في التعبير، فكنا عشـاق الصورة والصوت نسـعى دائماً لصناعة فيلم يسرد حكايات جميلة من بلد دمرته الحروب والازمات الاقتصادية و نحاول التعبير عن امالنا الخجولة في اقرب فرصة لمغامرة ما لتطبيق كل ما شـاهدناه وتعلمناه من افلام عالمية صدحـت بـأفكار فلسـفية وتبـنت اراء سياسـية واجتماعية لمخرجين كبـــار، فبالنسبـــة لي كان فيلم "إمبراطورية الشمس" لستيفن سبيلبرغ والمأخوذ عن رواية بنفس الاسم هو اللبنة الاولى للخوض في المغامرات وكنت لا أتجاوز العاشـــرة، ثم شـاهدته مرة اخرى بـعين المحـترف فكان اكثر تأثيراً لما يحمل من مفاهيم عن الحرب والغربة والتي وثقـــها الفيلم من خلال نظرات ذلك الطفل الذي عاش الجزء الأكبـر من حـياته وحـيداً في احداث الحـرب العالمية الثانية، حـيث كان الفيلم يعتبـر الهاجس الاول بالنسبـة لي لتجربـة العيش بعيداً عن الوطن والاهل.

بـعد الوصول الى بلد المهجر حـاملاً ملفاً لأحـلام مؤجلة وتسـاؤلات كثيرة عن كيفية التعبـير عن رؤية مهاجر شـرق اوسـطي في اقـصى شـمال امريكا، يتبـادر لذهني سؤال كمهاجر هل بـإمكان المجتمـع الكنـدي أن يتفاعـل مـع افكـار ومفاهيـم شرق أوسطية في طرحها الصوري والفلسفي؟

بلا شك، كندا تمتاز بتعدد ثقافات مجتمعها ومزيج من المهاجرين من جميع انحاء العالم والذي يسهل البحـــث عن صانعي افلام واعلاميين مهاجرين لديهم اجابة لتساؤلات عن سبل النجاح في تسليط الضوء على قـضايا الوطن الام بـــصورة عامة والمغتربـين وافكارهم بـــصورة خاصة، اغلب المهاجرين من الاعلاميين والفنانين وصانعي الافلام القـصيرة والوثائقـية في كندا ومن خلال تجاربهم الفنية دائماً ما تكون ثيمة قصصهم قضايا الوطن الام والهجرة والاغتراب فالفنـان الـذي يعيش فترات عزلة يبحث دائما عن فسحة صغيرة تصله بالوطن الذي لا يستطيع الاستغناء عنه ولا العودة اليه، ليصبـح تركيبـة فريدة من عادات وتقاليد يسـعى دائما للحـفاظ عليها وبـين مجتمع جديد يحـاول ان يكون جزءا منه بأسلوب حـياتي معين او التعايش مع مفاهيم اجتماعيـة مختلفـة والتي تستطيع الاحساس بهذه التركيبة بـمجرد

مشـاهدة عرض معين لفيلم مخرجه او كاتبـه من المهاجرين، فهناك من نجح في انتاج افلام قصيرة ووثائقية تسرد حكايات تساهم في تعزيز الانتماء للوطن الام ومنهم من يحـاول ومنهم من نجح في وسائل التواصل الاجتماعي! فكل تلك المحاولات كان الهدف منها ايصال هموم المهاجر وقضاياه بطريقة تلامس ثقافة وذائقة المجتمع الكندي دون فرض مفاهيم وعقائد وفلسفة شرق اوسطية - فالعمل المقبول جماهيرياً في الشرق الاوسط لا يعني انه قد يكون مقنعاً لجمهور كندي ربما لم يسمع حتى بأسماء بعض الدول العربية.

قبل احداث الربيع العربي وبروز التنظيمات الارهابية وتوافد المهاجرين بحثاً عن وطن جديد، كان اتجاه اغلب صانعي الأفلام المهاجرين البحث عن قصص من المجتمع الكندي ابطالها من المهاجرين، تهتم لقضايا محلية تهم القادمين الجدد وتطرح مفاهيم اجتماعية عامة قد يراها المهاجر الجديد اساسية للاندماج في المجتمع، لكن الفيلم يبقى محلياً، وقد لا يعني الكنديين أنفسهم ولا حتى المهاجرين القدامى، فكانت اغلب القصص والحكايات تسعى لإعادة بناء المهاجرين الجدد بما يناسب مفاهيم الوطن الجديد، وبعد حملات الهجرة الكبيرة التي حدثت في السنوات الاخيرة وتحديدا من سوريا والعراق كانت فسحة الوصل بالوطن تكبر حتى اتجهت افلام المغتربين الى منحى سياسي رافض، وصارت صوت كل من لا صوت له في ارض الوطن الام، وقد تم اعتماد بعض الافلام رغم قلتها من منظمات شبه حكومية تعنى بحقوق الانسان ومنهم من اعتبرها وثيقة وشهادات تساعد في بناء ما تدمر.

في حديث لي مع احد صانعي الافلام من المغرب العربي والذي كان يشكو من قلة انتاج الافلام السينمائية العربية في كندا رغم القصص والحكايات من الوطن الام والتي من الممكن ان ينتج منها الكثير من الافلام، بالإضافة الى وجود بعض المهرجانات السينمائية التي تتلقى الدعم من الحكومة الكندية، والتي تعتبر منصة مفتوحة للتعبير في داخل المجتمع الكندي، والكثير من برامج المنح المالية الحكومية الا ان هناك الكثير من التعقيدات التي ترافق خطوات الحصول على تلك المميزات فأغلب المشاريع الفلمية تخضع لشروط برامج معينة تقررها الحكومة ضمن خطة هدفها الاندماج والتقارب بين ابناء الجاليات في كندا. فليس هناك حرية كاملة في انتاج قصة ما الا إذا كانت الاقرب لتنفيذ رؤيتها في هذا البرنامج، لذلك نرى انا والصديق المغربي ان عملية انتاج فيلم قصير يحكي قصة وطن وشجون اغتراب يجب ان يتحقق بين من يؤمن ان الدور الحقيقي لصانع الفيلم في دول الاغتراب هو ان يشير الى وطنه الام بأفكاره وقلمه رغم اختلاف البيئة المكانية في كندا والتي قد تكون عامل تأخير لإنتاج اي فيلم يروي قصة وطن في وطن اخر!، كما حصل معي في فيلمي القصير 2:30 min فبعد انفجار الكرادة الشهير عام 2016 في مجمع الليث التجاري، حاولت ان أقدم فكرة فيلم قصير يسرد احداث هذه المأساة دون اي حوار، معتمدا على التكوينات البصرية في المشهد الواحد وسيميائية اللقطات، كنت ارى انه سيكون رسالة مرئية للمجتمع الكندي بأن العراق والعراقيين ضحايا ارهاب سياسي - ديني وعبث وترهل امني حكومي، وان كل من ستصله تلك الرسالة في اي بلد من العالم ربما سيكون الضحية التالية.

الفيلم تبنت انتاجه منظمة عراقية كندية غير ربحية في كندا (الجمعية العراقية الكندية)، والتي كانت تدور احداثه في الكرادة نفسها قبل دقيقتين ونصف الدقيقة من وقوع الانفجار وهذه كانت المهمة الاصعب والتي كان علينا ايجاد او خلق بيئة مكانية تشبه مدينة الكرادة ونجحنا في ذلك في مدينة "سكاربرو" القريبة من مدينة "تورونتو الكبرى" والتي غالبية سكانها واسواقها التجارية من الجاليات العربية المختلفة، تم تصوير الفيلم بنجاح وبمشاركة ابناء الجالية العراقية وبعض الفنانين المهاجرين الذين ما ان سمعوا ان فيلما عراقيا يتحدث عن قصة مأساة من العراق حتى توافدوا للمشاركة كطقس وطني للتعبير عن الانتماء لهذا الوطن الذي غادروه جسدا، كان لهم الفضل بنجاح الفيلم وحصوله على جائزة افضل فيلم تجريبي اجنبي في مهرجان كندا الدولي للأفلام المستقلة 2018

*** مخرج عراقي - كندا**

حكاية مهاجر

أروى السامرائي *

قطعوا من يدي الوريدَ
سحبوني من أرضي
ليعطوني دماً جديد
يَضخُ قطراتٍ
على قلبي المستفز العنيد
فكلُ قطرةٍ أتجرعها
تنزلُ بالغل مثقلة
على حمضي النووي
تحاولُ خرقَ سواتري
وفكَ طلاسمي
لكنها تعجزُ لشدةِ التعقيد
فلا انا دمية من أرض الثلج
ولا عيني زجاجٌ يلمعُ
ولا أصلي من عرقٍ بليد
تتكتلُ القطراتُ
لتبني في أحشائي مستعمرة
تسيطرُ على الاعصابِ في الانسجة
ليبدأ التجديد
بانفجارٍ و انشطار
وحشودٍ من خلايا مسرطنة
تحاول خرقَ عظمي
و غزوَ كل شريانٍ ووريد
تبثُ رسائلَ منظمة
بفكِ قيودي المكبلة
أحملها في دمي
مخزونَ ماضٍ بعيد
الطيبة فلتُمحَ
لا جدوى لها مع الوجوهِ المتعبة
و الرحمة حتى في الدين مفتعلة
أما الحبُ فهو ضعفٌ
يا لها من عاطفةٍ، ساذجةٍ، متقلبة
دققوا بالفرز و التجديد
أولها حريةٌ
مبرمجةٌ على اللهو و المرح
و ممارسةِ الحبِ في الحدائق
و إذا كبرت بالعمر
فبالخبرةِ تصبحُ إلهاً
تشرعُ.... تأمرُ..... وتنهي...
و تصنفُ العبيد
إذا ماملت أو أخطأت
فلا يهم....
من يسألُ رباً عما يفعلُ
أو ما يريد؟؟؟
نصفي الاخرُ يتقدُ
سعيرَ دمٍ يتدفقُ
ليُحرقَ لهيبُها جسداً
كان حدَ الموت يعاني و يضطربُ
و يئدُ في أعتاب الفكرِ كلَ شائبةٍ
كانت من الماضي تنتقصُ
لتنقيَ روحاً مست سنا الله
وهي تدعو له وتتضرعُ
هذي أنا و إن غرستُ بغير أرضي
فأنا موصولة بالأرحام
بقلبِ امي ... لقلبِ أبنتي
لقلبِ أي أنثى منا تلدُ

* شاعرة عراقية مقيمة في كندا

الغريبُ

جنينة كوركيس*

أيُّها الغريبُ ...
موطنُ الأحباب موطنُكَ
والشوقُ والحنينُ يسكنُكَ
يمضي الزمانُ ويلي زمانٌ
وأنتَ كنشيدِ بلادي حزين
تَعُدُّ الخطواتِ وتمضي
لتُفتشَ في الطرقاتِ عنكَ
فترى فيكَ أحباءً يأتونَ ويمضونَ سائرين
ترمي وراءهم قبلة وذكرى ومواعيد
وفي كلِّ بردٍ وشتاءٍ
تلعنُ العبءَ الذي
يجرحُ الصمتَ حتى البكاء
كما يشقى الحلمُ في نومِ الغريب
تشُمُّ روائحَ الأهل والحبيب
من حبٍّ طريٍّ
ومن نبعٍ سخيٍّ
من أعراس الفصول
ومن وطنٍ أمين
أستبَدّت فيهِ حكاياتٌ جميلة
في كتابِ العشق والانتظار
فتشتاقُ وتحنُّ وتشتهي
ثمَّ يُدميكَ ولا تنتهي
شاحباً أنتَ كشمس الغروبِ
تهبُ ذراعيكَ للرياح
تعانِقُ نفسَكَ اليتيمة وتُكمِلُ
ومن منفى إلى منفى
يطويكَ العمرُ والذكرى
ولا تذكرُ من عيون الحبيبةِ
إلاّ مدناً ضائِعةً تأتي وتغيب
ولم تسألْ سوى عن صراعاتِ الشعوبِ
ومن أيِّ إلهٍ كافرٍ جاءنا هذا الخراب؟

ذاكَ أنتَ أيُّها الغريب
لا تعبأ بطرقاتٍ وترحال
تحملُ عبءَ وطنِكَ والفقراءَ وبؤسَكَ
ويقتادُكَ هذا النزيفُ
إلى مآسي الزمن البخيل
هكذا نحنُ، يا صاحبي
نعيشُ في مرارةِ ال(ما بين)
لا أرضَ لنا
ولم نعثرْ على وطن
لنا فيهِ سماء
هكذا علينا حكمَ الأوغادُ
والذينَ سرقوا منّا أوطاننا
وخبزَنا، وأرضَنا، وأيامَنا
لم يكترثوا عندما قتلونا
لكنّهم لن يفلتوا من العقابِ
ما بينَ كلِّ حشرجةِ الحنين
وزفرةِ الشوق والآهِ
ما زالَ الوطنُ شامخاً فينا
والشمسُ فيهِ تولدُ ويتجدَّدُ
نقبّلُ ترابَهُ ونُمجّدُهُ
فالوطنُ أبداً لا يموتُ
من أول التأريخ
حتى آخر التّمني...
جُنينة گوركيس

* شاعرة مقيمة في كندا

تمثال وحرية

كولالة نوري*

(1)
هنا أمريكا
بعلمين يرفرفان من بعيد
يطلّان على شرف
الحرية ترقص في مخي
في أدراج ملابسي
في الصور المعلّقة على حائط ولا جدار في عيني
في تأملي على دكة على دكة المنزل
بلا طفيليات.
حرية في قهقهاتي في العمل
دون ان يختموني بالشمع الاحمر
حرية من قلق العجز
حرية ان افتح الباب لموظف البريد
وانا شعثاء بملابس النوم
دون ان يراني إمرأة سيئة السمعة.
حرية المشي وحيدة دون ان القب بمجنونة الحيّ
أنا أغرق في الحرية وأتنفس بلا حسابات
فقط, أصبحتُ تمثالا
لا ألوّح حتى بمنديل.
(2)
(رصاصة غير طائشة)
إنني احتضر "كانت رصاصة طائشة
أنتَ وضعت السلاح على قلبي
" قلبكِ الطائش إذن "
الشمس تشرق من رأسي
وبقيّتي تغرق في الظلام.
أستكين هكذا
لا الرأس محكوم بالنجاة
ولا بجذعي يسبقه بالموت.
(3)
(تشريح الإنتظار)
الانتظار شجرة متسلّقة حول الروح
كلما نمت غطّت مقبض الفؤاد
*
الندى انتظار بُخار ليلٍ أهمل
لكنّه يعيد الرقة لوردة
على وشك الجفاف
*
الانتظار هيكلُ مُرّ
من حلم أو وهم
قيلولة في صيف شارع بغدادي

أذرع شرودٍ
وغيبوبةٌ منطق
*
وحدها تحتضن صوتك
وركضك وقلقك
تلك الشوارع الخالية
والسماء الكالحة
أنه اليوم الخطأ لتنتظري قلبا
*
تتوه في دجلة
وأنتَ تحدّثه عني على الضفاف
وانا أتوه في أنفاق جسدي
أتمزق بلا نهر
*
في الانتظار نكونُ خارج المواسم
فصلنا الوحيد
الحنين الفائض
***
الانتظار
عطبٌ في التاريخ
ووقت ينزلق ببساطة
كمنديل في ليلة شتاء باردة
***
الانتظار نكوصٌ ثقيل
من صخب رقصة حُبّ
***
ذاكرة الانتظار شرسة
قتال محموم بين محطة وأخرى
وقتاصون لا يميتونك دفعة واحدة.
***
لا تنتظر
الذين تركوك وحيدا
أصبحوا خلفك جدارا بلا باب
دموعك بحر، إيّاك ان تجففها
واجعل المناديل شراعا

* شاعرة عراقية/ كردية - تقيم في أمريكا

نصان

عقيل منقوش *

ساحل الوقت

تعبث الريح بخصلات شعرها
وتعبث الأقدار بموطنها
قلبها تفاحة يقضمها العمر
وسكاكين المارّة
وبقايا حرب تتخفى في الجوار
عيناها ترقبان صخب البحر
صعود الموجة
دورانها نحو التلاشي
ثم سقوطها الوشيك

سؤال أخير

هل تأخرتُ عن حياتي؟
أم تأخر المعنى؟
لم أكن غافلا عن السعادة
حتى يتسلل الرماد إلى جمرتي
كنتُ لاهيًا في الحقول
حتى رأيت نجمة الحرب
دخانها يلمع في السماء
أنا والعشب
ركضنا مثل
فراشات لا ترى
حول فزّاعة يحرّكها صفير الريح
ما أحزن أن تكون بلا حيلة
ما أقسى أن تكون بلا نار
في ليل الذئاب

* كاتب وشاعر عراقي / يقيم في ملبورن - استراليا.

قصص قصيرة جداً

هيثم بهنام بردى*

السؤال

ضغط على الزر الأحمر فانطلقت الموسيقا، إهتزّ بدنه متساوقاً مع الإيقاع البرقي لصدى الآلات المصطخبة ثم أنشأت أنامله تتراقص على المقود مشكلة رقصة سريعة لا هوية لها، وصارت الأشجار تتسابق راكضة نحو الخلف في توازٍ رهيف مع أسلاك الهاتف من الجهة الأخرى... لاح الجسر الحديدي الذي يشكلّ فم المدينة، انتفض جسده بغتة مستجيباً للصعقة الكهربائية المتواترة المتولدة من الجهة اليسرى لصدره، حاول أن يُنهض جسده، أن يضغط على الكابح، أن يمسك بالمقود بقوة لكن الصعقة كانت تنتشر في الملايين من حجيرات دمه وأنسجته لتحيلها إلى مخلوقات محتضرة، تصاعد خدر لذيذ إلى رأسه، اضمحلت أشياء الشارع أمامه: الجسر، الأشجار، أعمدة الهاتف، الغيوم الربابية، شدو البلابل على أفنان الأشجار... إلخ، والآن من يستطيع أن يوقف سيارة تقودها... جثة؟

مراثون

كان يلاحقه قبل أن تشيخ الساعات، يركض بأقصى طاقته، والآخر ينأى عنه، طوى الهضاب الجرداء، والأنهر الغرينية المتلبدة، والمدن المغبرة العتيقة، والصحاري المحتطة، ولكن عبثاً... فهو لا يزال في سكونه يعجز عن اللحاق به، ولم يخبره أحد من الذين صادفهم، أنه يلاحق ظله..

القرد

هم بقايا قرن مضى، عتيقون جداً يضاهون عتق الأسرّة والمناضد والدرفات المحطمة للنوافذ الخشبية المتآكلة، حتى الشمس التي دخلت تواً من خصاص النوافذ تبدو منهكة بها حاجة إلى رمس يثوي مفاصلها المائتة، كانوا يفترشون البلاط القديم المرشوش تواً، يضحكون بصمت أخرس وهم يحدّقون في دمية على هيئة قرد يرقص من دون كلل ويدور حول محوره واضعاً يديه، إحداهما على قمة الرأس والأخرى في الدبر الدامي، يضحكون بلا توقف متجاهلين النداءات اليائسة لزميلهم الذي يحمل قرناً وبضع سنين على كاهله لكي يغني لهم الأغنية الأخيرة.

كتاب

كل يوم عندما يغلق الباب ويستدير مواجها الكتب المتراصة في المكتبة تصطدم عيناه بالكتاب المتهرئ الذي وجده فجأة ذات صباح مطير في مكانه هذا بَيْد أنه لم يفكر منذئذٍ في فتحه... هذا الصباح وجده ينظر إليه باستفزاز جعله ينقاد اليه ويخرجه، نفض عنه الغبار ثم جلس إلى المكتب وبدأ قراءته... لما دخلت عليه زوجته في الضحى صرخت ذاهلة حين عاينت مكتبة آيلة للتداعي

وسجادة عتيقة قضقضها العث، وجرذان رمادية عملاقة منهمكة في إحالة الكتب النفيسة إلى بقايا سليلوز حائل، وشيخاً يشبه زوجها قد ألصق عينيه الغائرتين خلف حاجبين أشيبين في ثنايا الصفحات الصفر النارية.

الليلة الثانية بعد الألف

يجرجر خطاه مشحوناً بريبته وخيبته القديمة متمنطقاً حساماً خشبياً، يصدح في الفضاء عزف ناي حزين وصوت موجع.

- إنه أسير نفسه، كائن أصفاده، شك وأنوثة.

ويختض جسدها فرقاً، تغطي عينيها النجلاويين بكفها الزاخرة بالأنوثة والرعب الأبدي، وتتقصى عبر أصابع كفها تلافيف الفجر الأعجف الرمادي وشكل الجلاد الأقرع العضل وهو يسحلها إلى عالم.. الفراغ والعدم والضباب... الثالوث المهيمن على فضائه.

يشبك ذراعيه حول صدره العاري المشعر، ويرفع وجهه الأسمر الشائخ، ينتشر الحزن في قسماته ثم يلهج.

- من يعتقني من سحر الحكايا، ومن يطلقني من أصفادي الأبدية..؟

... وفي الليلة الثانية بعد الألف: نامت الحكاية.

الصمت الفارغ

أدار الأكرة ونقل الخطوة الأولى، انفتح المكان أمام مقلتيه هلامياً يغرق في عالم ضبابي، إحتواه الفراغ الرصاصي لهواء القاعة، استدار حول محوره وصار يتملى الأرجاء. كل شيء في اتون صمت فارغ، مشى نحو البيانو، جلس على الكرسي الباذخ، رفع كفيه المتصالبين فوق الصف المتراص الملون ثم داعبه بحنو أبوي فأنشأ البيانو يئن بنبرة لبوة ملتاعة ثكلى، فأخذ الرجل يشارك الكراسي والستائر المعدنية واللوحات وتماثيل الأبواب الموصدة بكائها المرير..

حين

حين أخرج الصياد الحسون من الشبكة وأعطاني إياه كانت الفرحة في عيني قطعة سكاكر لذيذة، وحين كنت أتنكب الأزقة الظليلة في طريقي من السوق إلى البيت كنت أفكر في شكل البيت الصغير الذي أبنيه لحسوني الجميل، وحين وصلت إلى فم الزقاق الذي يفضي إلى دارنا نقرني الحسون نقرات متتالية مؤلمة في ظاهر كفي اللدن، أرخيتها من شدة الألم فطارت أحلامي كلها.

الأعجوبة

هي بقايا أطلال وسط المدينة العتيقة، بعصاه المعقوفة يضرب الحجارة الخرسانية ويحدق عبر عينيه الكامدتين، لم يبق من هذا العالم إلاّ... يشقل أكوام الحجارة الصمّاء التي كانت في تصالبها وتكاتفها فيما مضى تشكل بنيان داره العامرة التي عصفتها الأيام، فكّر وهو يمسّد لحيته البيضاء.

- سراب... كل شيء سراب.

تدور العينان الحجريتان، يراه في تفرده متهالكاً كأرملة في مقبرة مقفرة... آه... أيها الشيخ يا من ولدتني من رحم أصابعك، يا من زرعتني في أحشاء التبن والطين الحري الصلصالي، هلم إليّ ...

يقترب من الحائط الأرمل، يلمسه بأصابعه، أحجار على أحجار بينها وسائد رقيقة من طين متقشر، يمد ساعداً مليئاً بالحبال الزرق ويفتت طبقة طينية فينسلّ التراب متساقطاً من بين أصابع ناصلة بأظافر خضراء مصفرة.

- هلم، يا أبي ضعني في حضنك الدافئ.

ويتهالك عليه، يشعر الشيخ براحة جسدية مفاجئة، يتحسس الحائط بالأحضان الدافئة، والأنفاس اللائبة للأب/ الأم/ الشيخ... والناس الذين حاولوا إخراج الشيخ من تحت الأنقاض عبثاً كانوا يفعلون، فقد صارا كياناً واحداً: الحائط والشيخ.

عشبة كلكامش

جبل شاهق يناطح المطلق، يحنو.. أو يجثم على أنفاس نبع رأسه يغفو على أحجار هذا المبارك الحالق، وقدماه تنبسطان، تجريان، تغسلان الحقب والتضاريس، وتنتهي قدماه المعفرتان بالبقايا الإسيانة لأوساخ الساعات والحسك القديمة في أديم يصب في تيه أصفر رمادي... وقرية ذات بيوت متشابهة متواضعة، ترسم الليالي والنهارات. الأصياف والشواتي، الغيوم وجدائل الشمس، على كلسها العتيق حكايات سرية معبأة في صدور رملية صلدة لرجال ونساء مصلوبين منذ أزل الكون في الأفياء والأفنية، وفي الظلام الصائل للغرف السرية وتأبى الشفاه المرمرية الباردة أن تسرد البقية الباقية بعد أن وصلت في آخر سهرة إلى سؤال حاسم هو:

- لماذا لم يأكل العشبة حال خروجه من الماء...؟

ثم يهتفون بأسى:

- آه... يا كلكامش.

* قاص عراقي يقيم في ملبورن / استراليا

ملحمية برتولت برشت في المسرح

بهاء محمود علوان *

يُعدّ المسرح الملحمي من المسارح التي أثارت جدلاً كبيراً في الأوساط المسرحية العربية، لِمـــا لهذا المسرح من تأثير كبير في الساحة الثقافية العربية عموماً والحركة المسرحية وتفاعلاتها على وجه الخصوص. أن المسرح الملحمي الذي أسسه الكاتب المسرحي المعروف برتولت برشت يُعدّ مسرحاً ذا خصائص ديالكتيكية وتعليمية هادفة، يفتقرُ إليها المسرحُ التقليدي الموروث في عالمِنا العربي. وجاء المسرح الملحمي بنظرية التغريب على خشبة المسرح، والتي هي على النقيضُ مما جاء بهِ المسرح التقليدي من هيكلية وأنماطٍ ثابتة كانت تشكل ركائز المسرح التقليدي والتي لا يُمكنُ المساس بها، ومن أهمها الوحدات الثلاث: (الزمان، المكان، الحدث).

وقد احتل المسرح الملحمي مكانة كبيرة في تاريخ المسرح الحديث لِما له من تأثير مباشر على حركة المسرح عموماً والمسرح الحديث على وجه الخصوص. ويعتمدُ المسرحُ الملحمي بشكلٍ جلي على إبراز وإظهار الدور الكبير الذي يلعبه المسرح في الحياة الاجتماعية، ويعكسُ كذلك مدى تطور الشعوب أو اضمحلالها؟ ويحملُ هذا المسرح على عاتقهِ تطوير وإثراء الحركة الأدبية، على وجه العموم، والمسرحية على وجه الخصوص. إذْ يعدُّ المسرح الانعكاس الطبيعي والحقيقي لحركة المجتمعات وتطورها على الأصعدة كافة. ويمكن من خلال حركة المسرح قياس مدى تطور ونمو الشعوب أو مدى التخلف

الذي يصيب تلك المجتمعات. وقد شهدت المانيا في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي (وهي ذات الفترة التي ظهر بها المسرح الملحمي) نشاطاً محموماً في الحركة المسرحية وبالأخص منها الحركة اليسارية والتقدمية التي تبنتْ سبل الارتقاء بالحركة المسرحية والطروحات التي تتماهى مع هذا النهج. وكانت اللبنة الأولى للحركة الملحمية ودور المسرح في الحياة اليومية والسياسية قد وضعها الكاتب المسرحي الكبير آرون بسكاتور. ذلك الكاتب الذي انشغل في ما بعد بالحركة اليسارية العمالية.

ولقد انشغلَ بيسكاتور فيما بعد بتأسيس المسرح العمالي، وهو مسرحٌ سياسي يحملُ بين ثناياه هموم الطبقة العاملة والأسس الكفيلة التي تؤسس لدعم هذهِ الحركة النضالية. ولم تتبلور فكرة تأسيس المسرح الملحمي بشكلهِ المعروف والنظم التي

بُنيتْ عليها النظرية الملحـــمية والأدوات التي يتم استخدامها لتحقيق الهدف المنشود مثل الاستخدام الأمثل للديكور والسينوغرافيا والموروث الشعبي من أغاني وتراتيل شعبية وكذلك استخدام عنصر التغريب في المســـرح كوســـيلة وأداة من أدوات المسرح الملحـمي إلا بـعد مجيء الكاتب الألماني والمخرج المسرحي بـرتولت برشـت، عندها يُمكنُ للمتتبع أنْ يلحظ نشوء وتبلور المسرح الملحمي في شكلهِ الذي عرفه العالمُ بهِ. أنَّ النظرية الملحمية في المســـرح قـد ظهرت وتبـلورت على يد الكاتب والمسرحـــي الألماني برشـــت الذي يعد مؤســـس المسرح الملحـمي. وقـد أحـدثَ ظهور المسـرح الملحـمي في النصف الأول من القـــرن الماضي صدىً واســـعاً ليس على نطاق الساحـــة الألمانية فحسب وإنما ســرعان ما انتشـرَ في جميع أنحـاء العالم، ولقـيت المسرحـيات التي كتبـها مؤســس المسرح الملحـمي برشـت صدىً كبيراً وواسـعاً إذ تُرجمت تلك الأعمال إلى العديدِ من اللغات العالمية ومنها اللغة العربـــية؛ ومُثلت كذلك في العديد من الدول. ولم تكن الحـركة المسرحـية العربية بـعيدة عن حـركة التغيير هذهِ، بـل كانت تلاحـظ وتراقـب بـاهتمام بـالغ حـركة المسرح الملحـمي والانتشـار السريع الذي حـظيت بـه هذهِ الحـركة المسرحـية الواعدة. وكانت الحـركة المسرحـية العراقـية من أكثر الحـركات المسرحـية نضوجاً على مسـتوى الحركة المسرحية العربية، ويعود الفضل في ذلك للرعيل الأول من مسرحـيي العراق ومؤسســيه أمثال: ابـــراهيم جلال ويوســـف العاني وجعفر السـعدي وكذلك د.الرائد المسرحـي الكبير سـامي عبد الحـميد. ومن الجدير بـالذكر في هذا الجانب أنَّ الساحة العراقية في حقبة الخمسينات والستينات من القرن الماضي كانت متعطشـة لظهور مسرح جاد وملتزم يأخذ على عاتقـه هموم وتطلعات الشـعب، ويعود الفضل في ذلك إلى ظهور حـركة الاستقـلال في عموم الوطن العربـــي بـــما فيها العراق. وقـــد انشغل المسـرح الملحـمي بـوصفهِ مسرحـاً سياسـياً يأخذ على عاتقهِ هموم وتطلعات المجتمع؛ والسـعي الحـــثيث للوصول إلى الأهداف التي تنشـــدها تلك المجتمعات. ولتحقـــيق هذهِ الأهداف الكبـــيرة والسامية يتوجب وجود وسائل وتقنيات في المسرح تحـدث انقلابـاً كبـيراً بـما هو ســائد ومألوف في الحركة المسرحية التقليدية التي كانت تتبنى أنماطاً

برشت

ثابـتة ونظماً صارمة وتقـاليد مسرحـية لا يُمكنُ الخروجُ عنها أو كسرهـا والتي عُرف عن طريقها المسـرح التقـليدي. وقـد جاز تسـمية المسـرح بالتقليدي لأنه كان سائراً على وتيرة واحدة وتقنيات محددة وضوابط صارمة تحدد الحركة المسرحية منذ تأسيسه على يد الفلاسفة الإغريق بما يقارب ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد منذُ عهد سوفوكليس. وأفلاطون، وكذلك أرسـطوطاليس؛ حـيثُ يمكنُ تسمية المسرح التقليدي أيضاً بالمسرح الأرسطي أو الأرسطوطاليسي نسبة للفيلسوف الإغريقي أرسـطو طاليس، والذي يعد مؤسساً للمسـرح بمفهومهِ الحديث وواضعاً المعالم الرئيسة لشكل المســرح (القـائمة على الاندماج بـدل التغريب والجدل). وقد اتسم المسـرح التقـليدي أو الأصح القول قد ضُبطتْ حركة المسرح بالوحدات الثلاث وهي: (الزمان، المكان، الحدث).

وهذهِ الوحـــدات الثلاث هي التي كانت بمثابـــة السـمات والمميزات الأساسـية التي بُنيَّ المسـرح على أسـاسها منذ نشـأته ولحـين ظهور المسـرح الملحـمي الذي أضاف بـعداً رابـعاً أو وحدةً رابـعة للمسرح وهي الجمهور والتي تعد من أهم الوحدات في المسرح أو أهم سمات المسرح الملحمي. إذْ أنَّ للجمهور أو المتلقـــي دورا مهما في المســـرح الملحمي الذي يأخذ على عاتقه إنضاج فكر المتلقي وتطوير قـدراته وقـناعاتهِ للوصول بـــه من متلقٍ (مندمج: على عكس نظرية ستانسلافســـكي التي تقوم على الاندماج) مع سياق الحركة المسرحية

التقليدية للوصول بهِ إلى ناقدٍ ومحللٍ للأحداث وينظر إليها بوعي الناقد ذي النظرة المتفتحة التي تؤهله لوضع الحلول المناسبة وانتقاد الخاطئ منها والثناء على ما هو صائب وصحيح بعيداً عن الاندماج مع الأحداث التي تدور على خشبة المسرح وغير متفاعل مع ما يدور على المسرح، إذ يسمى هذا الاندماج والتقمصُ في المسرح بالإيهام المسرحي.

- والايهام تفاعل المشاهد مع ما يدور على خشبة المسرح والاندماج الكامل مع الاحداث.

ولتحقيق هذا الهدف توجب ظهور أو اعتماد أدوات تُمكن المخرج والمؤلف المسرحي من الوصول إلى ما يصبو إليه. ومن أهم تلك الأدوات التي اعتمدها المسرح الملحمي هو تقنية التغريب على المسرح، وهي على النقيض من الإيهام على خشبة المسرح. والتغريب كما حاولَ برشت إيصاله إلينا هو الابتعاد الكلي للممثل من الانغماس أو الاندماج والتقمص للدور الذي يلعبه ذلك الممثل، بل يتوجب عليه إشعار المتلقي بأنه ممثلاً يؤدي دوراً معيناً يحمل فكرةً ذات أهداف محددة وليس ممثلا متقمصا للدور، مُحاولاً بكل القدرات الفنية التي يمتلكها للوصول إلى حالة الاندماج الكلي مع النص والوصول به إلى حالة الإيهام. وهذا هو الاختلاف الجوهري بين المسرح الملحمي والمسرح التقليدي. ومن التقنيات الأخرى التي اعتمدها المسرح الملحمي هي (السرد)، أي أنَّ بإمكاننا أنْ تعد المسرح الملحمي مسرحاً سردياً بامتياز بل يعتمدُ ويفعلُ سرد الأحداث عن طريق الراوي، والذي يقوم بعملية القص أو السرد للأحداث، وهذا بحد ذاته يبعد المتلقي عن الاندماج والتفاعل مع العرض المسرحي، وكذلك فأنَّ صيغة النص الذي يرويه الراوي تكون بصيغة الزمن الماضي لكي يقول للمشاهد بأنَّ ما يراه هو حدث مجرد قد حدث في الزمن الماضي ولا حاجة للغوص والاندماج والتفاعل الحثيث معه. ويتضحُ هنا أنَّ أية مُحاولة للتعرف الصحيح والدقيق على المسرحي برشت، لا تتم إلا بدراسة وفهم نصوص مسرحياتهِ أو مؤلفاتهِ النثرية والشعرية على حدٍ سواء، كما يتطلبُ من الباحثِ أيضاً الفهم العميق والمتجذر للفترة الزمنية التي عاشها هذا الكاتب، والتناقضات الجمة التي شهدتها المانيا في تلك الحقبة الزمنية على الأصعدةِ السياسية والاقتصادية وحتى الأمنية كافة، وأهمها ظهور النازية في المانيا وملاحقتها للحركات التقدمية واليسارية الفتية التي كانت نشطة وفاعلة في ذلك الوقت.

كان مفهوم الفن لدى الجماهير التي عاشت حقبة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي مختلفة تماماً عما جاء بهِ برشت. فقد أحدثت طروحاتهِ الأدبية سيَّما على الصعيد المسرحي ثورةً فكرية تستحق التأمل والدراسة لِما لها من تأثير كبير على المستوى الاجتماعي وكذلك الاهتمام الكبير الذي حظيت بهِ تلك الطروحات ليس على صعيد ألمانيا حسب، بل على صعيد أوربا والعالم وقد وصل ذلك التأثير إلى الوطن العربي وبالأخص أولئك المسرحيين الذين تأثروا بالمسرح السردي أو بدايات طروحات برشت عن المسرح الملحمي، وتجدر الإشارة هنا إلى الكاتب الألماني اليساري آرون بسكاتور الذي سبق برشت في هذهِ الطروحات المسرحية وأنَّ لم تلقَ صداها كما هو الحال عند برشت. إنَّ برشت ورغم حداثة تجربته وعلى الرغم من صغر سنّه في تلك الحقبة الزمنية؛ استطاع أنَّ يُنشئ له اسماً كبيراً في عالم الحداثة في المسرح. إذ لم تزل أعماله إلى يومنا هذا محط دراسةٍ ونقدٍ وتحليل ولها الكثير من الانعكاسات على الصعيد المسرحي. لقد أعطى برشت دوراً هاماً للمرأة في أعمالهِ جميعا وكانت أغلب مسرحياته تحمل ذلك الطابع، حيث تكون المرأة هي محور الأحداث في أعمالهِ، ومن تلك الأعمال:

- مسرحيات: (الأم الشجاعة وأبناؤها، مسرحية الأم، مسرحية بندق الأم كارار) وكان لهذهِ المسرحيات الثلاث صدى كبير لِما تحملُه بين طياتِها من مدلولاتٍ كبيرة أسهمتْ في إعادة بناء المجتمع الألماني بعد الحروب الكبيرة والانكسارات التي مرّ بها المجتمع الألماني.

*** الأستاذ المساعد بهاء محمود علوان**
رئيس قسم اللغة الألمانية الأسبق، كلية اللغات - جامعة بغداد
أستاذ الأدب والمسرح الألماني الحديث، باحث ومترجم

قصة لم تنشر من قبل للشاعر الراحل يوسف الصائغ

امرأة الليل الأعمى*

- قل! ألن تتحدث بكل هذا الى أصدقائك ذات يوم؟
- لا.. والله !
- ثم ماذا؟ تحدث! لن يضيرني ذلك.
- لا وحياتكِ
الصمت.. والصحف الصباحية، والتهاب في بلاعيمي، ومنذ ساعات وأنا أقول لنفسي: إنها قصة تافهة... واحدة من ملايين التفاهات التي ترتكب في كل يوم.. واكثر من هذا، إنها قصة حب...
- لا يا تافه! مزّق أوراقك، واخرج الى الشارع !
- واذا ضللت الطريق؟ واذا اقترفت جريمة جديدة؟.. فكيف تعود بنعشي الى البيت؟ وبايما لسان تبرر لهم موتي؟
الناس يموتون دونما مبرر.. هذا المرض يسلك اليوم طريقاً لا قدرياً ...
" تك..." وتموت !!
- هش.. إنها قصة حب !
- يا ابله! ومن الذي يقرأ قصص الحب في هذه الأيام؟
أصنع لهم على خدها شامة.. هكذا: نقطة صغيرة من خمر، انساها فتجف. وأقول لهم: انها كانت واحدة من ملايين الصبايا اللواتي يملأن البيوت !
- قل! ألن تتحدث عني إلى أصدقائك ذات يوم؟
- لا... وحياة عينيك !
- كذاب. ثم ماذا؟ تحدّث!.. لن يضيرني ذلك ... يضيرها، ويضير أجدادها.. وغداً، حين تقرأ هذه البلهاء، حروفي، ستلتفت الى صديقاتها وتقول لهن بكل خبث:
- انظرن الفتاة التي يحبها...
- سألوني عن اسمك يا حبيبة أمها. أصدقائي، الف مرة سألوني عن اسمك، وتطلعوا إلي بخطورة:
- قل اول حرف من اسمها...
- انها سعاد.. لا ريب !
- لا والله!
وابتسم...
- هه.. سعاد! ليس ثمة سواها !
وأتمنى لو كنتِ سعاد! بالبيت !
لسعاد نهدان يساويان ارث أبيك كله.. نهدان ما رأتهما مرّة، إلا واحسستَ انهما ينزّان من شدهما صمغاً وحليباً، فاروح ابحث عند وقع الحلمتين منهما على الثوب المنمنم - هكذا: عن اثر ... بقايا.. أقول لهم - لاصحابي.. الرجال المراهقين.
- ولماذا تسألون عن اسمها؟ هل يعني الاسم شيئاً؟
- أشياء !!
ان اسم "خيرية" مثلاً، لا يمكن أن يوحي الي الا بمنظر قحبة، او بزوجة تبلغ الأربعين في حي من الاحياء الوسخة التي تقع خارج المدينة...
- اسمعوا. هل يستطيع احدكم أن يصل بعد غروب

الشمس الى حيّ خارج المدينة؟ أن يزور المقبرة ويدق فيها وتداً؟
يحكي ابي- ولعلها قصة واقعية - أن بعض الرجال، وضعوا رهاناً لمن يستطيع منهم أن يذهب الى مقبرة المدينة بعد منتصف الليل، ويدق فيها وتداً. وقد رضي أحدهم أن يفعل، فذهب الى المقبرة، ودق الوتد، ولكنه لما أراد الحركة... العودة، وجد أنه لا يستطيع. كان ثمة ما يشده الى ارض المقبرة، فاغمي عليه. وفي الصباح، وجدوه، ووجدوا أنه لفرط ارتباكه قد دق الوتد على جانب من ثيابه، فتعلق بالأرض.
" انظر جيداً قبل أن تدق الوتد... اننا نعرف الكثير من الأرواح في مقبرة المدينة"...
ما علينا..
نثار اسمك الصغير على منضدتي.. كنت قبل أعوام، اخط الحرف الأول منه بالإنكليزية على كتبي ودفاتري، وارسم حوله قلباً، ثم استحي، فأروح اهشّم ما فعلت..
" سمّها لخاطري اسماً جميلاً.. اسماً فيه الكبرياء والأناقة..
- يا ابله! لا تقل أشياء غامضة. ثمة من يراقب فمك كيف يتحرك !
- حسناً يا سيدي. لا تكن سخيفاً. اكتب في تقريرك إنني امصّ اسم حبيبتي...
- لن يصدقك.
- يطبّك مرض...
كم تبلغين من العمر الآن؟ لعلكِ قاربت الثلاثين؟..
قالت لي مرة:
- ما كان أن تخبرني انك أصغر مني سناً... أوه... ما كان لك أن تفعل !!
- حسناً. ولكن من يراني يحسبني أباك !
- حقاً؟
ثم أردفت بصوت حالم :
- لقد مات ابي منذ زمن بعيد!
كما يموت الناس؟
فضحكتْ بشهوة وقالت لي: استح
ومن تحت المنضدة، كانت تدوس قدمي... وكان النادي باسره كل الطالبات يحشرن سيقانهن تحت المناضد، وكن يتصنعن الدراسة، ولم يكن سوى اللهاث.. ودخان السكائر.. وعبق لطيف...
أنا اذكر جيداً.. كان على الجدار صورة "لفان كوخ".. صورة فيها الشمس والارض... وفي

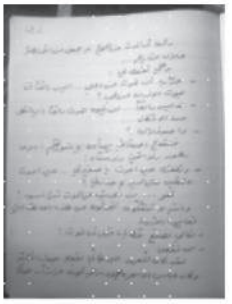

الزاوية، مذياع عتيق، كتبوا عليه "لا يسمح بفتح الراديو الا للطالب المسؤول".. ونافذة هكذا: وسخة يطل منها محمود بالشاي حلواً الى حد التقزز، وبالقهوة ..
- بكم تبيع النستلة للعشاق هذه الأيام يا محمود؟
الجو غائم، وليس في النافذة سوى الوان من رماد..
لقد قرأت الصحف خبراً خبراً.. وثمة على احدى المجلات صورة انثى يقشعر العري على منابت الشعر فوق فخذيها.
مرة واحدة فقط رأيت فخذيكِ، ومن بعدها لم نعد نلتق..
- احلف أنها وجدت سواك!
أصبحت تغلق التليفون، وهي تقول بكل بساطة :
- اخي غلطان !
فاود! لو أقول لها :
- ابداً. لقد أريتني فخذيك ذات يوم !
وتيك التليفون على اذني هكذا :
" تك..." وتموت !
- ذاك شيء يحدث كثيراً ...
- ما الذي يحدث كثيراً أيها الأبله.
- انقطاع الخيط !
ويضحك... انهم يضحكون بتشفٍ.. ايتها الحمقاء، ضحكة كأنها اجهاشة جرح !
- اخي غلطان..
والشارع من حولي يغمى عليه، ويختلط صخب الكازينو الذي أتكلم منه.. وانسى، حتى أن أضع قطعة العشرة فلوس في يد صاحب الكازينو الكهل..
نسيتُ والله !
- لا بأس ..
تلك نهاية القصة الا ترون؟ انني ابدأ بداية سيئة، والديكة في هذا الحي تصيح ظهراً... وقريباً، يصدر أمر بإعدام جميع الديكة.. انه لفأل سيّء أن يصيح الديك قبل أوانه.. أن يتم الشيء قبل أوانه.

ومع ذلك، فكثير من الناس يلذون اكل التفاح وهو بعدُ لما ينضج...
وثمنة.. من الاجنّة ما يولد في الشهر السابع..
- ويعيش؟
- اجل يعيش...
ألم يكن من سوء حظي، انني لم اترك لنفسي جنيناً، حتى اليوم، في رحم أنثى؟ في رحمك أنت بالذات؟
ألف مرة توسلت بي:
- دعني احمل منك !
- ولكن.. ألا تخافين؟
الخوف.. الخوف شيء أفظع من الموت...
انه إنسان لا ينفك يخرى في ملابسه الداخلية.. إنسان وسخ.. مشلول
وحين كنا صغاراً، كانوا يلقنوننا الخوف، كما يعلم الطائر صغاره على الطيران.. يتوارثون اساطير من الحكايات، لا يفتأون يثرثرون بها، فمن تحدّى أساطيرهم، قالوا عنه:
- ادب سز. اما تخاف؟
وكان في بيتنا الكثير مما يجب أن نخافه..
الله قبل كل شيء..
انهم لم يتركوا لي أن اعرف الله، بالطريقة البريئة التي اريد ، حتى لقد خيل الي أن الله يلاحقني ابداً باصرار، مفتح العينين، يترقبني أن ازلّ.. أعثر.
- ولك.. هي. الا تنام، الا تتعب؟
النوم والموت سيان، هه! لقد قالوا هذا منذ آلاف السنين. أمس، قرأت شيئاً شبيهاً به في ملحمة "كلكامش".
- تعرّف الملحمة بانها ...
وصوت مدرس النقد في الكلية أخنّ الى حدّ ما. وهي تجلس ابداً في الدروس الى جانبي، وتمسّ يدها يدي احياناً، فيحمرّ وجه الأستاذ، ولا يعود يجيد الحديث في النقد..
- لشد ما يطيل النظر إلي ..
- انه يحبك ..
- اوه.. لا تكن سخيفاً يا حبيبي..
بنت الكلب. ألم تقل لي مرة أن معاون العميد قد خطبها الى أبيها؟
- ولكن أباها مات منذ زمن بعيد..
- ومع هذا.. لا بد أن يخطبها الى أحد ما... وكنت أقول لنفسي إنها تكذب..
- وبعد؟
- لم يوافق اهلي.
- لماذا؟
- اوه نحن من عائلة...
تفو عليك وعلى العائلة...
وتردفين بحياء خبيث ..
- لن اتزوج احداً... لن اتزوج !
- حتى أنا؟
- يا حبيبي. ان الأمر يختلف معك. أنت تعرف جيداً أننا لا يمكن أن نتزوج.. لماذا لم تولد على دين اهلي؟
وافكر في نفسي: لعلها الفتاة الوحيدة التي تحب، دون أن تفكر في الزواج.. دون أن تقول لك بعد كل قبلة "حسناً.. متى تخطبني؟ ".
وكان يطيب لي بعد هذا أن أتخابث..
- تعالي نهرب، ونتزوج !
- محال.. لن ينفك اهلي حتى يقتلوك..
لا يا بنت الكلب.. اتحسبني جرادة فيقتلني أهلها أهلها...
- يا حبيبي نحن عشائر !
وأروح اتخيلها، في ملابس شمالية.. عند سفح مليء بالتبغ والجوز والبلوط.. يقوم على يمينها أبوها، وبندقية سوداء على كتفه..
" تك.." وتموت..
- اسمعي يا حبيبتي، يلوح لي أحياناً أن الناس يموتون في هذه الأيام دون مبرر.. فمن الخير لي، ان كان لا بد من الموت. أن أموت من الحب.. ان ذلك كفيل بأن يجعلها قصة تستحق النشر...
- أخي غلطان..
يطبّك مرض!
سأحكي كل شيء... حتى عن لون عرق كان ينبض على شفتيك.. عن الشعر المحلوق تحت ابطيك، عن كل الهذيان الذي كنت تبصقينه حتى يشتد عليك الجنون...
يومها لم تكوني تصبغين شفتيك !
كنت فتاة "عاقلة ".
وكان لك عينان جميلتان. وكنت أقول لك تعالي، فتجيئين كجارية في حرم عبدالحميد، حتى لقد اوشكتِ يوماً أن تقبلي قدمي..
- أنا؟
- اجل أنت!
يومها لم يكن عملك ليبدو نابياً، كان الفندق عظيماً، وكنت قبل هنيهة قد تلذذت بدفع لسانك باسره في فمي، حتى لقد اوشكت أن اقيء..
لو فهمتُ حسب سرّ ولعك بأن تبصقي لسانك في

فمي ونحن نعتنق، وسرّ شربك للعابي. آه. لا بد أن احداً عوّدك هذه الدعارات..
تريدين الحق؟
لم تكن شفتاك صالحتين للقبل...
عندي، انهما كانتا شحيحتين لا تكادان تملآن قبلة.. فلتملأ شفتيها
تعجبني الشفتان في حجم قبلة كبيرة !
اما شفتاك، فكانتا كمنقار عصفور !
لو كان للعصفور أن يعيش سنوات طويلة، لما اخترت أن أكون سوى عصفور في حديقة منزلنا، أعيش على شجرة التوت الكبيرة وابني لي عشّاً، واتزوج عصفورة بنت عصافير...
اليوم.. وأمس.. وقبل أمس هجرت المنزل الذي ولدت فيه، ودلفت مع القافلة المهاجرة في صمت الصباح، وتركت في زاوية من غرفتك، صورك ورسائلك وكتبي واوراقي ورسائل الاصدقاء لكي أكون عصفوراً، يجب ان لا تهاجر العصافير.. وأن أبقى ابداً على شجرة في حديقة منزلنا، مشدوداً الى العش..
ولكنني لست عصفوراً، ولا هراً، ولا كلباً. المشكلة: انني جعلت انساناً، يجب ان لا يهاجر لكي لا يموت.. لكي لا يجعلوا من عشه الصغير سجناً وقضباناً..
لن يكون السجن شيئاً كريهاً، اذا كان ثمة حبيبة تزورك فيه كل ضحى، وتضع على راحتك عينيها، وطعاماً معلباً، وقصاصات من صحف اليوم، ثم تجتهد ان لا تبكي وهي تنظر الى قيودك.. اما هي فلم تكن تزوره في سجنه.. لم تكن تدري حتى انه سجين..
لم يزرني احد سوى امي، ولم يكن لها ما تحمله سوى شعرها المشتعل، وعينيها الخزفيتين.. ودموعها.. وحسرة كل من يراها في الطريق..
كثيراً ما خيل اليه انها هي واقفة عند الباب تتوسل بالسجان ثم تدخل اليه، تحمل سلة ملونة وتهمس له بنعومة يا حبيبي اف ..
لقد تعبت من خيالي، ومن خلال ذلك بصقت عليك حتى جفّ ريقي.. وندمت لأنني قلت ذات يوم: احبك.
خذها نصيحة..
لا تقل لفتاة احبك. قل لها كل شيء الا هذه الكلمة، والا ستكون تافهاً كحذاء!!
كانت تعيب عليّ انني لا اصبغ حذائي، وانني بشكل ما اعتني بملابسي، وكانت ونحن في النادي لا تتردد ان تصيح بالصباغ:
سليم اصبغ له حذاءه.
وينظر اليّ الصباغ بخبث، ويتطلع اليّ من تحت، عبر ساقيها، ثم يقبل على الحذاء فيصبغه ببراعة واتقان..
اما الآن، مذ فارقتك/ فلم يعد في الدنيا من يفكر في ان يعتني بي.. ان حذائي ليتهرأ في هذه الأيام، دون ان افكر بصبغه.. وان اسبوعاً ليمضي دون ان احلق لحيتي..
سنلتقي مرة في الطريق..
ما أزال احلم بهذا.. التقيه مرة وانا سائر في الطريق، وما ان تتبينني حتى يشحب خداها وتختلج شفتاها:
- انت؟
- اجل انا !
الامل في ان القاك هو عين الخوف من ان القى ذات مرة اعدائي، كلاكما على موعد معي في الطريق..
اوه.. فليكن ذلك في وضح الشمس..
قبل سنوات، كنت اجرجر قدمي الى بيتها في الضواحي، فأصل اليه، وقد مالت الشمس لتغيب، وأمر على الباب، وأقول لنفسي: ها.. ستخرج الآن.. ويثقل خطوي.. و .. اعبر.. ثم لا انفك ببعد ذلك، اتلفت، واحدق في النوافذ، ولكن.. حتى النوافذ في داركم لا تستطيع ان تتحرك، ولا بنصف شبح.. بما يوهم انه شبح
وأعود..
- تعود فاشلاً؟
- لا يا ابن الكلب.. ان الفشل شيء كبير !!
يبقى في نفسي ان اراها غداً ..
- أين؟
- أين؟ في الباص مثلاً !
تفتش عيناي بين الوجوه، وانا أقول لنفسي لا بد انها تبدلت الآن.. ملامحها.. شعرها. لقد كنت قبلا ترسلين شعرك ببساطة.. عجباً انا لا اذكر عنك اكثر من هذا. ربما اذكر انه كان لك معطف ذو لون فاتح لا اتبينه الآن بالضبط.
واتوهم احياناً.. ان واحدة تشبهك، ربما لأن شعرها كان مثل شعرك مسترسلاً.. فأتبعها كالمجنون..
- كالمجنون؟
- اجل، كالمجنون..
- مسكين..
- اخي غلطان..

***

الوحدة في الدار اخبث من الشيطان..
قرأت "عاصفة على السكر" وتسمعت الى اخبار الدنيا، وتخيلت لنفسي لحية كلحية كاسترو..
- ترى كيف المناخ في كوبا الآن؟
- بارد..
- حار..
لا عليكِ سأزور العالم ذات يوم، احمل حقيبة على ظهري كما يفعل الجنود، وأسير حتى ادرك نهاية الدنيا..
- من اين ينتهي العالم يا عم؟
ونظر الي بعينين حزينتين. كان شيخاً مكسيكياً. وكانت قبعته تنفتح على ملامحه كالمظلة، وأشار اليّ بيد معروقة وقال:
- من هناك يا بني...
حقول من السكر.. وغابات صنوبر سوداء، وشلالات عظيمة.. ومزارع الرز.
انا اخوض في مزارع الرز، عاري القدمين..
- مصاب بالبلهارزيا، ودمي شديد الشحوب من الجوع.. والتعب.. والخوف..
يا حبيبتي من الجوع والتعب والخوف..
اعرف ان ليس للخوف سقف أتقي به.. ليس له بيت.. ولا مدفأة..
أما أنا وأنت، فكنا ذات يوم نرسم على الورقة بيتاً جميلاً.. كانت غرفة واسعة، ونوافذه كبيرة، وكانت الشمس تتجه من الشمال الى الجنوب.. كنا نتعاطى بالاحلام، اربع سنوات مليئات..
- اربع سنوات؟
- اجل يا سيدي. اربع سنوات!
- متى حدث ذلك؟
- حدث؟ اسمع يا عم: في اية سنة نحن الآن؟
- الف وتسعمائة و..
وبعد أيام تجري الانتخابات
- لو كنت عاقلاً. أغلقت الباب على نفسك، وأخرجت لسانك للجميع.
- واذا تلمسني أصدقائي، واذا بحثوا عن موضع المعركة من جسمي، فلم يجدوه، افتقف لتقول عني دون حياء، كلمة ذات حدود؟
تعلمت ان حبيبتي حين تفقد بين ذراعي الحياء والخوف، تستطيع ان تكون اشد عهراً من العاهرات..
كنت تنسين انك من عائلة: وان أخاك وأباك وامك..
وجميعهم تحدروا من عشيرة عريقة. وكنت، وأنت تلفين ذراعيك حول جذعي وتتضورين كأيما كلبة، ادركتها طبيعة الحيوان.. كنت..
ألف مرة قلت لي "يا حبيبي"
كانت تلفظ نداءها من خلال ثنايا العناق المتلاصق، فتنفذ الحروب اليّ رطبة.. ذات رائحة..
وذات يوم، حين ادركها العياء، قالت لي من بين نعاسها:
- شكراً
أنتِ ترين يا حمقاء انني لا استطيع النسيان، يومها ان المطر يتساقط على زجاج السيارة، وكانت الدور في ضواحي المدينة تتدثر..
كئيبة هي أيام المطر.. اكاد احسّ كأن الرطوبة تسيل على عظام رخامية، هكذا كثيفة ذات قوام هلامي، فكأن الدنيا بأسرها تعاني مخاضاً يوشك ان يدلق رحمها من بين فخذيها
دع الشمس تشرق من اجلي.. من اجل حبيبتي التي تخاف من المطر..
أواه..
لكنت ولدت لي اجمل الابناء..
ولكنا قصصنا عليهم حكاية الحب التافهة التي عشنا.. ولكنا اطلقنا عليهم، على أولادنا، أسماء ذات جرس جميل - اجمل الأسماء
- أنت تستطيع ان تطلق اجمل الأسماء على اقبح الأشياء.
- لا يا ابن الـ.. تلك ليست صناعتي..

****

كان اسمها نثارا من حروف أليفة، حتى كنت اتوهمه احياناً اسم ابنة عمي.
كان لصورته وقع على عيني، فاذا ما قرأته، أينما كان، وقفت حدقتاي على ضفة، كأنما تتخوفان الغرق..
- أيكون اسمها سهام؟
- شيء يشبه هذا.. وماذا يعني اسمها لديك؟
- لا شيء؟!
اسمع! هل جربت مرّة ان توطّن نفسك على حب فتاة معينة.. زميلة لك في العمل.. جارة.. او بنت جار؟
- هلو
- العفو اخي.. غلطان!
- ما الغلط؟
غلط.. اخي غلط.. انت ما تفهم؟
كنت اعرف انها حينذاك تمسك قلبها اشفاقاً وانها

لكي تستطيع الكذب، الكذب عليّ انا بالذات، كانت تسبل جفنيها لأن عينيها كانتا تشفان بسرعة عن الكذب. فأحس كأنها تود ان تضيف "فدوة لعينك" بلهجة بغدادية ذات جرس انثوي..
- غلط يا حبيبي.. لست انا التي تتكلم..
يومذاك، لم يكن التلفون يتكئ على مسمعي، كان ينام على مسنده بنعومة، وكنت افهم ان ثمة من يصغي او يمكن ان يصغي الينا..
- من؟
- امي..
- امك؟ ولكنها لا تفهم العربية..
- اوه.. انها تفهمها جيداً كالشياطين.
- لقد سمعت صوت امك مرة:
- هلو
وخيل اليّ ان في نبراتها صوت بلوطة تتكسر..
- منو تريدين؟
وألقيت وانا اضحك في اذنها شتيمة فاحشة، وأغلقت التلفون..
- يا حبيبي. لماذا فعلت ذلك؟
- بشرفك ألم تكوني واقفة؟
ونضحك بعذوبة
يا الله! انهن يستطعن ان يجعلن لكل شيء عذوبة وجمالاً:
- هش. ثمة من يصغي الينا!
الف اذن فضولية أصبحت تندسّ منذ سنوات على مخدتي، كأنما تتوقع ان أقول شيئاً من خلف نعاسي.
اشترِ لك احداً يهتم بك.. احداً .. احداً، حتى وان كان مخبراً، يلازمك من الصباح الى المساء، وتفكه بأن تدور به في الشوارع في الأيام الممطرة.
عيناه تتقبان ظهري.
وسيكارته تنفث الدخان في عيني.
- كم يدفعون لك ايها الأبله؟
- خذا هذا، وراقب دار حبيبتي.. افعل هذا من اجلي، فتغفر لك كل ذنوبك!
بيتها يقوم موحشاً عند ضاحية العاصمة.. نوافذه معتمة ابداً لا تستطيع ان توحي اليك، حتى ولا بخيال يتحرك..
انا اذكر عتمة الدهاليز في الجامعة، وألوان تنانيرهن المزركشة اقوى من الظلال.. والقاعة رقم (22) وجلستها الى جانبي..
- هناك زنزانة رقم..
- يا ابله. انا اتحدث عن القاعة رقم (22) كانت جالسة الى جانبي وكان الأستاذ اصلع بشكل قطبي، وكان يقول أشياء اعدّها جيداً قبل بدء المحاضرة. وللدروس الأولى في الجامعة نكهة غريبة.
اما انت فكنت تصغين بانتباه، وانا اتحايل على مدى الرؤية في عيني.. لأراك دون ان التفت اليك..
لكم ثرثرنا بعدئذ عن الدرس الأول، تماماً كالمقامرين الذين يستذكرون بعد انتهاء مقامرتهم لـ دقائق اللعب.
- ألم نكن نصنع التاريخ؟
- احمق! أبهذه التفاهة يُصنع التاريخ؟
ولكنني واثق من انه لا بد للتاريخ من تصنيعة:
لم يسبق للتاريخ ان صنع نفسه بنفسه يا أصدقائي..
حتى من خلال قصة حب..
اشتدت عتمة الليل.. فكأن قطة سوداء تقف عند نافذتي..
لشد ما يبدو الليل وقوراً دونما نجوم
- أطفئوا المصابيح ليمر الموكب الى المقبرة..
انا اعرف في المقابر عدداً من أصدقائي.
استطيع دونما حياء ان أخطّ أسماءهم على ضوء القمر أسماء عادية، ولكنها ذات شدّ عظيم..
اما انت، فلن يدفنونك معهم حين تموتين. ان لك مقبرة مسوّرة، وسيصنعون لك نصباً من الرخام، ويقولون: "لقد ماتت في عز شبابها.." هه! من العار ان يموت الشباب. تلك حكمة ربيعية.. رأيتها مكتوبة على سور المدينة، كتبتها سواعد في الظلال، وفجأة صبغتها أشعة الصبح الذهبية.
انظر هكذا مباشرة في عينيها.
أضع على نظرة مؤدبة ولكنها متماسكة، وابتسم..
كنت ذات يوم استطيع ان افعل ذلك.. النظر الى عينيكِ حتى اجفانك ترتعشان بوضوح..
اوه.. أي زمن امتد بين عينيك وبين اليوم الأول الذي التف به ذراعك حول عنقي.
احلف: لقد كان اصغر الأيام!
لم نكن نحس في عظامنا صليل الخوف، لم تكن تتحرك في ضمائرنا ايما دورة من الشعور بالاثم..
كنا نفعل الخطيئة كما يفعلها الأطفال.. كما يعذب صبي وقح عصفوراً وهو يضحك..
كانت الدنيا .. سعيدة .. سعيدة.. سعيدة!
*****
انهم يضيئون المصابيح في شوارع روما، ويكللون قوس النصر بالزهور.. وينثرون الاوراد الصناعية تحت اقدام تمثال الحرية الحديدي، ويصبغون

الضباب بلون الشفق الوردي.
وفي جميع البلاد يمسح العمال سخام المعامل من على زجاج النوافذ.. ويصبغون احذيتهم، ويرتدون للمهرجان أجمل الملابس.
اذكر... أن تتوّرتها كانت حاشدة بالورود.. تتناثر هكذا على ساقيها، وتتحرك.. وانها كانت ترتدي قميصاً ابيض، تتقره بدعابة حلمتها.. وكانت الاجراس تدقّ في العالم باسره.. أجراس ذات حناجر ذهبية.
وفي ذلك اليوم فقط.. قالت لي
- حسناً فلنهرب !
وفجأة رأيت المهرجان يتداعى كما يحترق بيت من ورق.
- ولكن الى أين؟
الهرب!... هذا الجري المبهور، الذي يجبرك ابداً أن تتلفت وراءك.. أن تخاف النظر الى "سادوم" وهي تحترق لئلا تصبح أنت فجأة عموداً من رماد.
- تعال نهرب يا حبيبي...
وقلت في نفسي "يا للحمقاء! هل أبقت لنا مكاناً نهرب اليه؟ "..
- واهلك؟ اهلك المتحدرون من جبل العشائر؟
- دعنا نهرب يا مليكي ...
- واذا تعقّبنا حرس الحدود؟ واطلقوا علينا النار عند الجدار الذي يقسم برلين؟
- دعنا نهرب يا صغيري ...
- حسناً. فلينزل الليل على الخيام، ومن ثم امتطي فرسي، واخطفك في غفلة من الليل الى جبل بعيد ..
- ولكنهم سيقتلونك... سيفقأون عينيك الجميلتين.. وستتركني ارملة من بعدك:
كل شيء الا الهرب...
فلتكوني اشدّ ترمّلاً من امي. ان لي اماً ترملت ببساطة يوم مات ابي، وهي لن تمزّق حدادها- حلفتْ. لن تمزق حدادها الا يوم زفافي...
" ساز غرد لك يا ولدي.. وامزق الحداد الذي التحفته عشرين عاماً... وارقص امام الناس ".
- أسمعتِ؟ سترقص امي امام الناس !
لا ريب أن الرقص يتعب عجوزاً في الستين.. وتنبهر أنفاسها ويسيل العرق على جبينها الشاحب.
- حلفتْ: سارقص يوم زفافك يا ولدي...
فتلك عادة قديمة... قديمة.. قِدم الارحام والاجنة!
مرّةً :
تحايلت أن أجس موضع الرحم منها، ورحت أمسّد على الموضع الدافئ منه. فقالت من بين نفسها:
- انظر لقد ملأت ثديي حليباً ...
يا لبركة الام التي تنتظر جنيناً... وحسرة العاقر التي لا "يعضّ بطنها الزنبور". انهم هكذا يقولون في مدينتنا: لا يعض بطنها الزنبور...
تراب للدار التي لا تنبت اطفالاً.. وللرحم الذي لا يستطيع أن يلد سوى الخطيئة...
كانت تحبّ المرح، حبها للفاكهة والعناق... وكان الضحك يحرّرها من الشعور بانها مقبلة على خطيئة:
- ابتسم يا صديقي، أعطيك أجمل موقع من شفتيّ ..
- شفتاك لا تسعان قبلة.. فنمنمتان .. اصغر من شفتي حمامة !
- ومع هذا، ابتسم لي يا حبيبي. فقد تعلمتُ القناعة!
كانت قد حفظت هذه الجملة. لا أشك في انها قد وجدتها في محلّ ما..
- اسمعي! لا بد انكِ قد وجدت هذا في كتاب ما... كتاب يعلم رسائل الحب!
- لا وحياتك يا حبيبي
الا ترون؟
لقد كنت حبيبها ذات يوم! شيئاً يملأ صدرها بالدماء حتى تتصلب في ثدييها الشرايين!
كنت آنذاك مرحاً كالفاكهة قبل القطاف.. اما اليوم، فعلى اعتاب كثيرة مسحت مرحي، لم اعد اطيق التنفس الا من رئتيّ.. حتى لقد بات يخيّل الي انني قد خلقت ورئتاي تحتكراني لجسمي الحياة...
وفي سنة ما ميلادية، قال المسيح "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان"...
- حسناً. اعطني شيئاً آخر احيا عليه! فهناك الكثيرون في حيّنا يموتون من الجوع - هكذا - ببساطة دونما أن يعطوا الفرصة لان يموتوا ابطالاً!
ذاك أن الموت من الجوع لم يجعل من أحد بطلاً خلال التاريخ...
وهي تقول لي:
- جرّب أن تموت من اجلي... أليس رائعاً أن يموت الانسان من الحب؟
- لا ليس رائعاً... لن يكون الموت رائعاً باي شكل من الاشكال...
- واصدقاؤك؟
فلندع أصدقائي يهدأون في قبورهم، دونما زهور ولا شموع ولا حنّاء !
- ولكنكِ حين اموت يا صغيرتي.. حين اموت لا

تملكين حتى السير في جنازتي؟
تفو... ان الحديث عن الموت شيء اسود! وانتم لا تنفكوّن تتحدثون عن هذه العاهة التي تعانيها البشرية.
- تعالي نصنع خطايانا قبل أن نموت!
- لن نفعل
لقد كان "المعهد البريطاني يقوم جوار الكلية وكان عباس الاسمر يحمل - رغم كونه فرّاشاً - خبث رجل البورصة. ومرة واحدة. مرة واحدة خلال عمر: فتح لنا "الغرفة".
- كم اعطيته؟
- دينارين!
آه، لو كنت مرة في حياتي فراشاً في المعهد البريطاني. أنا لا استحي.
- أنت ادب سز
اذكر: إنني سرقت مرة من المكتبة كتاباً بالإنكليزية اعجبني غلافه. كان ذلك كمن يختطف من عاهرة خطيئة دونما مقابل.
- ما كان أن تفعل ذلك يا سيدي!
ونظرت الى غرفته. واليه.. السكرتير الذي يجيد اللغة الإنكليزية:
- فلتحدثني بالإنكليزية يا سيدي، ربما كان ذلك أدعى الى التفاهم ...
ما كان أن تفعل ذلك يا سيدي
خادمكم المطيع
ونستون تشرشل
لندن 1943
ونظرت، كانت ثمة عينان تتلصصان من فوق، عينان زرقاوان لا تفرحان بخطيئتنا فرحا باللواط..
لقد قرأت عن تشرشل وعن قيس ابن الملوح.
- اسمعي: احسب أن قيس هذا كان مجنوناً.
- حسناً، فلتجن من اجلي.
يا للحمقاء! اخبروها انني قد فقدت المرح الذي يمكن الإنسان من الجنون، وما عاد أحد يستطيع أن يقنعني بصبغ حذائي..
- سليم. اصبغ له حذاءه.
- حذار يا سليم والا حطمت رأسك.
"تك..." وتوت!
أمس رأيت كلباً يموت في الشارع، صدمته سيارة على رأسه وعنقه. فدار الحيوان على قائمتيه الخلفيتين وترنح كما يفعل السكارى، وقلت في نفسي.
- ليس الموت عملية سهلة...
- اخي.. سد التلفون!
يبست شفتاي من التدخين. انهم يحشرون البردي والحصران في تبغنا العراقي الأصفر.
وهذا التدخين...
- انه كفيل بان يورثك مرضاً في القلب او المفاصل..
اعطني عشرين ديناراً، اقطع لك حنجرتك!!
- يا احمق. ثمة من يشتهي أن يفعل ذلك لوجه الله!
هكذا، دونما مقابل!
ليس ثمة شيء في الحياة دون مقابل. تلك قاعدة فيزيائية: "لكل فعلٍ ردّ فعل"...
لم أرَ في حياتي إنساناً اذكى من مدرس الفيزياء كنت آنذاك في السادسة عشرة، وكنت اكثر من التوسل الى الله أن يكتب لي النجاح في الامتحان...
وبعد ثلاثة أيام من الامتحان، مات ابي. وترك قرب سريره، ساعته، ونظارتيه الذهبيتان، وطقم اسنانه عارياً.
قلت لهم:
- انتم تكذبون. هذا ليس ابي!
ومع هذا، مع اقتناعي بأن هذا الذي يحملونه في النعش مثقلاً بالاكاليل والزهور - ليس ابي، مع ذلك، فقد سرت وراء جنازته، وحاولت أن ابكي...
- انظروا.. انه لا يبكي حتى في جنازة ابيه!
- ها؟ ألم اقل لكم؟ لقد فقدت عادة المرح!
بقي على الانتخاب يومان...
وللقصة؟ أيام وتنتهي...
ولقد كنت أقول لكم انني وطنت نفسي أن أضع نظرتي بين عينيها بعناء، جعل جفونها ترتعش بعذوبة..
كانت نزوة..
وأنا احب النزوات.. ذلك كفيل بأن يجعلني احس نفسي اشد جبروتاً..
- ومن ثم؟
- ظللت ألاحقها بعيني سنة كاملة.. ولكنها.. بنت الكلب.. كانت اشد صبراً من سنة برمتها...
وظلت صلعة الأستاذ القطبية تتدحرج على المنصّة، وتقول أشياء تافهة، وأنا امارس نزوتي دونما هدف...
- كيف؟
- انظر هكذا الى عينيها
- ومن بعد؟
- لا شيء!

- اوه.. أنت مجنون...
- العفو.. شكراً .
رباه! لقد فقدت مرحي...
يا حبيبتي، فقدته منذ ودعتك على أبواب الفندق تنزّ منك اصباغك و عطورك...
يومها عدتِ ذليلة... كسيرة.. تحملين في ملابسك الخيبة.. والحقد.. والخوف...
سألتها وأنا اسويّ ملابسي:
- متى نلتقي؟
فردت من بين شفتين طينيتين: لست ادري!
ولو عرفتُ آنذاك اننا لن نلتقي ابداً بعد، اذن لتبعتها وركعت بين ساقيها وتوسلت اليها:
- لا... لا تهجريني!
خلّفتْ لي على السرير خطيئة ناقصة، وبقايا من عطور، وأغلقت الباب دوني، وسمعت وقع اقدامها في الدهليز..
"طق... طق... طق "..
- خبرني متى نلتقي؟
- غلطان اخي..
- ولكن...
- الا تستحي.. سد التليفون!
"تك..." وتموت !
الموت في الشارع بالسكتة القلبية شيء شائع، لا بد أن اسأل طبيباً حاذقاً عن اعراض هذا الضرب من الموت... لن أموت قبل أن اسير في جنازتك يا حبيبتي... ومن ثم فلتأتِ الحرب العالمية الثالثة ...
- اسمعي ناظم حكمت (1). طردوني من تركيا، ومنذ ذاك اليوم والعالم يعيش في سكني...
- قل لحبيبتي يا سيدي أن تعود إلي... وسأصبغ لك طول عمري حذاءك.
- أستغفر الله.
احلى القصائد ايتها الحمقاء... لكنتُ كتبت لك أجمل الاشعار، وجمعتها في كتاب...
- اسمي "توم بين"(2) توفي في الثامن من حزيران سنة 1809
- ما وطنك أيها العم؟
- حيث لا حرية فهناك وطني...
- حسناً تعال الى بيتنا يا سيدي، واصنع لنا ما تريد... اصنع لنا حتى المشدّات...(3).
كان ذلك بعد سنتين:
تلصصته سبابتي ورفعت المشد عن نهدها الايسر..
وبعد ذلك، تمزق كل شيء... كما يتمزق الخريف على الاغصان...
وسألتك، وفي ثيابك وحام من لحم نيء.
- متى نلتقي؟
- أخي سد التليفون!
- غلطان... غلطان... غلطان !!
وتمضي سنة..
كانت الشمس شمساً حقيقية.. وكنت جالسة مع صديقاتك، هكذا: تنانير مزركشة تشرئب منها ارانبكن..
ومررتُ
- صباح الخير..
ورفعت اليّ دفتراً كنت استعرته مني أمس، وهمهمت في اذني شيئاً، احمد له وجه أستاذ النقد، احمد، حتى غدا شبيهاً بالشوندر وبدا لي، انني لا أسع رجولتي.. كان ثمة سرّ حلو.. اطوي عليه كمراهقة صغيرة.. خيّل اليّ كأنني اقبل الانضمام الى حزب سري.
- هش.. لا تنس ان تختار لك اسماً مستعاراً ..
وقرأت خطك العجيب ذا الزوايا الحادة..
- انظر، لقد كتبت لي
وفتح صديقي عينيه كأنني قلت له لقد سقط القمر ..
****
اسمع:
اذا وقعت فتاة ما في حبك، فأنظر الى وجهك في المرآة..
- ان لك ملامح حصان!
- حصان.. فرس.. ثور..
- لاحقاً. ان لك ملامح حصان، بعد نهار طويل في جر عربة ملكية.
لقد فرّ لويس السادس عشر في عربة ملكية، ويقال ان المقصلة اكلت رجلها.. الثورة.. الفرنسية اكلت بنيها.
حكيت لها مرّة: ان ماري انطوانيت ولدت ولي العهد على مرأى من جميع رجال البلاط.. ففتحت عينيها على سعتهما، وهتفت:
- جميعهم رأوها وهي تلد؟
- اجل يا حبيبتي، وهي تلد..
- هكذا؟ - وأشارت بيديها - وهي تلد؟
- هكذا بالضبط..
فضحكت بحياء رائع، وقالت:
- اوه. أليس ذلك فظيعاً ..
- ثم قطعوا رأسها الجميل بالمقصلة. ها؟ الا ترين

في ذلك شيئاً فظيعاً؟
- اجل. ولكن هل قطعوا رأسها بعد ان ولدت؟
- طبعاً. بعد ان ولدت، هل تحسبين انهم فعلوا ذلك قبل ان تلد؟
- اوه.. لا .. احكِ جاداً
سأجعلك حين تصبحين ملكتي تلدين امام جميع الناس. وسأقول لهم: انظروا هي ذي ماري انطوانيت تلد للمرة الألف ولي عهد بلا خصيتين!
- أتدري؟ لقد أصبحت ألفاظك بذيئة..
بنت الكلب!
كانت تحمل لي نكتاً أشد بذاءة.. وتبصق لسانها في فمي.. وتتصفح من المجون أفانين. وتسألني:
- قل. ألن تتحدث بهذا الى أصدقائك ذات يوم؟
ها انتِ ذي ترين! انا اتحدث بكل شيء كأنني انفض الغبار عن قدمي.
- سليم اصبغ له حذاءه !
- حذار يا سليم.. سأشكوك الى الشرطة.
استعدي عليك القوانين. ليس ثمة قانون يبيح لك ان تصبغ حذائي دونما رغبتي..
هه!
الحب.. والسياسة. والأنظمة والقوانين، مظاهر لحاجاتنا.. مظاهر نراها في الصحف، قصصاً وأخباراً وحكايات وفضائح..
لقد قرأت اسمك مرة في صحيفة صباحية مرة واحدة فقط. كان ذلك سنة تخرجنا من الجامعة.. لشد ما بدا لي اسمك آنذاك صغيراً عارياً ..
وقرأ الناس الصحيفة مثلي، ولكن احداً سواي، لم يقف عند اسمك، لم يعبر الضفاف التي تفصل بين ثناياه وحروفه..
مضى على ذلك.. كم مضى؟!
- غداً.. اجل غداً تجري الانتخابات. وتستطيع بكل بساطة ان لا تدلي بصوتك !
- كلا.. لا استطيع. ولكن يا للعجب ما شأنك بي انت؟
- اخي انت غلطان ..
- هلو .. هلو..
- سد التلفون..
" تك ..." وتموت !!
ليس للموتى وجوه جميلة.. ليس لهم حتى ولا وجوه قبيحة. المشكلة انه ليس لهم وجوه. وفي الليل تنطلق ارواحهم متقمصة معطف "گوگول".
معطف عارٍ يرتدي جثة..
ماذا فعلتِ بمعطفك الوردي؟

لقد ظللت ترتدينه قرابة ثلاث سنوات..
- اسمعي. يجب ان لا تفرّطي بذلك المعطف.
انني اذكر:
كان له ياقة عريضة. رباه لكم كنت تبدين بشعة فيه.
- ألا تراه جميلاً؟
- جميل فقط.. اجمل المعاطف!
لا بأس بكذبة صغيرة، تجعل قلب الانسان يعمر بالسعادة. مثلاً: تبرّع لفتاة قبيحة بكلمة "احبك" واترك لها ان تنام ليلة واحدة سعيدة.. سعيدة بلا نهاية..
- أنت غلطان!
-اسمعي..
- لن اسمع شيئاً. سد التلفون!
ويملأني الحقد: وأود لو اغرق الشارع بطوفان من الخيبة والمرارة.
قالت مرة.
- اذا تزوجت.. و .. فسأخون زوجي معك !
- ها؟ .. أنت تحتقرني !
- كلا..
في أيما بلد لا تختفي الخيانة يا حمقاء. انهم يحتقرون الخونة حتى في جهنم.. الشياطين انفسهم يكرهون من يخونهم..
- ولكنك لا تؤمن بالشياطين..
- عجباً. من قال لك هذا؟
ويضيع صوتي في صخب الجماهير التي تكره الخيانة، التي تجعل بيوتها على قارعة الطريق، وتبعث غاندي من قبره، يرتدي معطفاً، ويسافر بالدرجة الثالثة:
- ألا تحبين غاندي يا عزيزتي؟
- كلا.. لا احب احداً سواك!
- ولكن.. اسمعي. عليك ان تحبي أحدا ما !
- لا.. لا احب احداً سواك.
ذاك والله حب يقتل الثيران.. حب يمتصك حتى العظام. فكان سجناً يضيق بك حد الاختناق. سجنت مرة مع عشرين جزائرياً، كانوا يحملون جروحاً فريدة، وكان لهم فتيات جميلات قرويات من وهران.. يزرنهم في الظهيرة، ويلقين اليهم بالنذور، من شمع وورد وحناء..
اما انتِ، فلم تشعري حتى بسجني..
لم تتعلمي مساومة السجانين، ولم تجسي بيدك وقع القيد الحديدي، ولم تجربي ان تشعري بالفخر لكون رجلك سجيناً..

كنت سجيناً مع عشرين من الجزائريين، عشرين انتحاريين كيف استطاعوا ان يتحملوا في رجولتهم كل هذا القدر من البطولة.. وانت: لو لم تكوني متحدرة من حبل عاصٍ تسكنه العشائر.. لو لم تكوني فرنسية كالفرنسيين لقلتِ: احمل لحبيبي كعكة، وازوره في سجنه!
لكنتِ رأيت رفاقي.. ولكان لومومبا اول من يعمّد وليدنا الصغير:
- ماذا لو اسميناه لومومبا؟
عيناه كبيرتان، ووجه اسود.. شديد السواد كبئر من قار.. وشعر متشابك كغابة استوائية وثمة حفنة من النجوم على موضع من صدره..
*****
يومها كنا وحيدين: لم يكن يربط بيننا سوى رسالتين تافهتين. وأغلقت صديقتك الباب.. انا اذكر جيداً كان على السبورة ابيات شعرية، وعلى المساند كتب مبعثرة، وكنت تخطّين في كتابك حروفاً لا طعم لها. ثم تطلعت اليّ.. ونظرت اليك: تماماً كما يفعل قط وقطة، وبدونما تصميم، دونما إرادة، وضعت شفاهنا على بعضها في مسّة مؤدبة..
ثم..
فتحت صديقتك الباب ثانية.. ومدت من خلال انفها بطريقة فضولية، كما يفعل القوادون في دور البغاء.. ولقد قالت لك بعد ذلك، انت أخبرتني بهذا..
يا الله. لشد ما كان وجهاكما محتقنين!
بنت الجرو . أتحسب العناق لعباً !
ما علينا! كانت تلك اول قبلة فعلناها، تماماً كما يجترئ الطفل على الخطيئة الأولى.. كما اكل آدم التفاحة في الجنة..
حتى في الجنة قوانين!!
- أخي أنت غلطان. سد التلفون !
أصوات في الشارع:
" انتخبوا.. لا تنتخبوا "..
وأطلّت حبيبتي من النافذة، وصاحت بهم:
- اذهبوا. لن ينتخب..
فصحت من سريري:
- لا تصدقوها. سأنتخب..
وضاع صوت الباب في صياح المارّة الملصق على الجدران: "انتخبوا .. لا تنتخبوا.." وامام كل لافتة.. امام كل قطعة مكتوبة على الجدران كانت امي وعمتي وحفنة من صبيات محلتنا يقفن كمن يؤدي صلاة، ونتلو بصوت واحد:
- لن ينتخب!
- ولكنني سافعل أيها الحمقى:
- واذا ما ادركك الفشل يا صديقي.. الفشل المر كالملح الإنكليزي..
- غلطان اخي..
- هل أسد التلفون؟
فضحكت وقالت لي:
- تعال اشتري لك "نستلة" من النادي. كان ذلك كمن يرضي طفلاً صغيراً يبكي لغياب امه:
- هل قرأت مرّة قصة اوديب
- لا... لم أقرأ شيئاً "انعل أبو اوديب"!
- سترسبين في الامتحان، وستضربك امك على قفاك بالعصا.
وضحكت لي ضحكة ممغوصة.. كنا نسير في الطريق، وكانت الشوارع المشجرة خالية في ظهيرة من صيف العاصمة الحامي، وتلفتنا حولنا بحذر، قبل ان نعمل قبلة: والى الأعلى: في سطح الدار الذي القى ظله علينا، كان ثمة فتاة في السابعة عشرة تنظر الينا بشراهة..
وتطلعنا اليها.. وضحكنا. ضحكنا ثلاثتنا، وابتلعنا الطريق
- اسمعي.. دعينا نقِل من لقاءاتنا. ان الجميع يتحدثون عنا
- كما تشاء..
وشممت لأنفاسها رائحة حافرة
- هل غضبتِ؟
- لا...
واخذت تسرع في سيرها، كعبها العالي على الطريق:
طق.. طق.. طق.. طق
- اسمعي. دعيني اشرح لك.
- وماذا تشرح لي؟ لقد فهمت جيداً: ان الجميع يتحدثون عنا. وعلينا ان نقل من اجتماعاتنا..
- في الجامعة على الأقل.. من اجلك يا حبيبتي.. انني احرص على سمعتك
- لقد جاء حرصك متأخراً. لم تبق لي سمعة. ثم التفت اليّ. هل تذكرين؟ مثل كلبة مسعورة في امعائها:
- لم تعد تهمني سمعتي قيد شعرة. لقد بقي لنا من حبنا بضعة اشهر. لا تفسد علينا صفاءها !
واخذت كفّها بيدي. وسرنا صامتين. خفت أن أقول لها: ان يدك رطبة.. واصابعك طريّة كالعجين.

- ماذا قالوا عني؟
- لا شيء..
- لا تكن بليداً. هيا خبّرني. ماذا قالوا عني..
واردت أن أقول لها: لقد قالوا عنك انك قحبة لا تستحين...
ولكنني لم افعل
صوت حذائها ذي الكعب العالي:
طق.. طق... طق...
وصوت آخر كان يقول لي قبل ساعات:
- ذاك لا يليق بانسان ملتزم..
وسكت، رغم اني آنذاك لم اكن ملتزماً. فلقد اشعرني ذلك بالخطورة..
- يجب أن تعطي مثلاً جيداً
- ولكن..
ولم يعطني صاحبي ذو الوجه الخطير أن أتكلم لقد أخذ يتحدث بمهارة عن المناخ... والكتب الجديدة، وانتهى مني...
- اخي غلطان
ولم يعد في الكازينو أحد سواي. يدي على سماعة التليفون، والناس اشباح قميئة.. والفشل... والحقد... والكراهية..
ذاك اننا لم نعد نتعاطى الحب... ثمة داء يجوب الشوارع، يرتدي الكراهية.. داء سقط له الكثير من أصدقائي.. وباءٌ، له وقع اقدام على سطوح الدور بعد منتصف الليل
اعرف بطلاً تسقط على جروحه النجوم... كالملح تتساقط النجوم على جروحه
- ما اسمك يا عم؟
- باتريس لومومبا.. توفي عام 1961
- هكذا كما يموت الناس؟
- بل كما يموت الابطال..
من اجلي.. "لخاطري"، كان عليك أن تكني شيئاً من الاحترام لباتريس لومومبا!
- سد التليفون. ادب سز !!
مزّقت اسمك المرسوم على ورقة في جيبي، واضعت عنوان الدار.. ولم يبق منك في محفظتي الا بقايا عطر، سينتهي بعد أيام.
الا ترين؟
كل شيء سينتهي. كما تفعل الأيام الغائمة، كما ينقطع المطر عن السقوط.. كالايام السود.. كالجوع.. كالقحط.. كالوباء...
لكل شيء نهاية، الا الطريق.. هذه الطريق، فلم يرَ أحد نهايتها حتى هذه الساعة...
صوت اقدامهم على سطح الدار... دبدبة احذيتهم، وصوت ابي يهمس الى امي
- هل احكمت، وضع المزلاج؟
- لست ادري. لست متأكدة...
اما نحن الصغار فنتجمع على بعضنا في فراشنا الصغير، ونشعر لخوفنا بحاجة شديدة الى التبول
- اريد أن ابول
- اسكت. ابن الكلاب. الم يصدف بولك الا في هذه اللحظة؟
آه. لو علموني احتقار الحرامية!
عبثاً...
- انصتي جيداً... انني اسمع وقع اقدام...
وانظر الى شفتيها الشاحبتين...
- هش...
وتلفّ عنقها على ذراعي عن خوف.. لا عن شهوة... وارى الى وقع اقدامهم تتجاوز الغرفة رقم 19 في قسم اللغات الأجنبية..
وفجأة تطل من خلال الباب عينان اجنبيتان
- باردون!
واحس أنها تكاد تتغوط في ملابسها..
اوه. باردون عليك، وعلى اجدادك
- هيا...
- لا. لقد فقدتُ شهيتي
- جبانة !
- أنا؟ انظر الى وجهك، لقد غدا شاحباً كشمس الميتين...
كل شيء الا هذا... أن تظن فتاتي انني جبان.
- ولك هي مستر... ابتعد وإلا فقأت عينيك!
وتضحك... ويعود اللون الى عينيها من جديد...
- تعالي !
شربنا قهوة في النادي، ونحن نعاني عياءً.
المجد للرجل الذي لا يبلغه في معركته العياء..
للرجل الذي لا يتخلف في الطريق...
للذي لا يتوكأ على عجزه كالحيوان!...
منذ سنوات تهدّم النادي حَجَرة حجرة، ولست ادري ما الذي جرى للشمس في صورة "فان كوخ"..
واستعاضوا عن الكراسي القديمة التي كنا ننحشر عليها يا صديقي باخرى جديدة... ومسحوا المرح الذي احببناه من على جميع الجدران... قطفوا أوراقه عن الأشجار...
ذلك أن المرح قد فقد قابليته على الاضحاك..

- اضحك!
هئ هئ هئ..
- شر المصائب ما يضحك
لو...
لو استعدت رسائلك من مدينة المهاجرين... لو حملتها معي في علبة مزركشة وبادلت بها لدى الهنود الحمر بالدرّ والياقوت..
ثم صاح احدهم بالرحيل. فمدّت القافلة عنقها كالناقة، وتجاوزت الدار الذي ولدت فيه.. وسرت بلا اوراقي..
وغداً... غداً يفتشون منزلنا، فتنال منك على مكتبي عيون الغجر...
أو..
لعلك غجرية أنت ايضاً... غجرية حتى عروق أناملك!
مرّة: رقصت لي. فعلت ذلك كما يحرك طير جناحيه... بكبرياء.. ورشاقة
رباه: ان كل الغجر يجيدون الرقص..
كلهم يجيدون السرقة...
كلهم يتقنون الخيانة...
- حلفت أن اخون زوجي معك!
لو كانت الخيانة جسم انثى... لما ابقيت شيئاً منها على السرير... لتركها جوربا ينزّ صمغاً وبصاقاً!
انتنَ المساء... خمّ!
- انزع جوربيك... واغسل قدميك جيداً.. هذه الجيفة تقتل الحمير!
- ولكنك لست حماراً!
- تفو... انت قذر بن قذر..
- العفو أنت تجاملني كثيراً...
- هئ هئ هئ...
شر المصائب ما يضحك!!
اعمى هذا الليل... شيء اسود اعمى، يشبه الى حد ما وجهاً للجريمة...
قبل حفنة من الشهور كانت منتصف الليل يعبر معي في ضاحية العاصمة... وكان المطر. نفس هذا المطر الرطب ينث بعناء على هامتي. وعلى الشارع، وقع اقدامي:
لقد قالوا لي مرة.. نصحوني:
- لا تسرْ وحدك ليلاً..
طب... طب... طب
وكان الليل شديد العمى، يتوكأ في سيره على منكبي...
- اسمعوا. أنا لا أؤمن بالعفاريت!
وكانت تنام في احد البيوت عجوز في الستين، قميص نومها.. شعرها.. ملامحها، شاحبة شحوب القمر. والليل يسير معي، يلقني من جميع الجهات، والسماء زنجية الى حد كريه...
- لا تسرْ ليلا.. أيها الاحمق!
- أنا لا أخاف
طب... طب... طب
وقفت سيارة على مبعدة مني.
- اركض. لقد جاءوا!
- ولكن العفاريت لا تركب السيارات
فتحت أبواب السيارة على عجل
- التفت وانظر أيها الغبي. اركض قبل فوات الأوان
- هش!
كان الليل اعمى لا يرى... وكنت أغذ السير..
طب... طب... طب
- يا ولد!
- اركض انهم ينادون عليك!
- يا ابن الكلاب! أنا لست ولداً.. لقد بلغت الثلاثين!
طب... طب... طب
- يا ولد
- اركض يا احمق... اركض اركض.. اوه!
يد خشنة على كتفي
- حسناً. والان ماذا تريدون؟
- اركبوه في السيارة!
- ولكن. ماذا تريدون؟
-ابن القحبة! اين كنت؟
والليل اعمى. سألني هامساً!
- هل لطمك أحد على وجهك!
وسمعت امي في قبرها صوت طلق ناري
- هلو... هلو
- اخي غلطان!
- ولكن وجهه واضح.
- اجل وجهه لا يعجبني...

---

(1) ناظم حكمت: شاعر تركي تقدمي.
(2) توم بين. كتاب لهوارد فاست.
(3) كان توم بين في اول حياته صانع مشدّات.

*** خصنا مشكوراً الروائي الأستاذ سلام أمان بهذه القصة وهي مكتوبة بخط الشاعر " يوسف الصائغ " خالية من العنوان وقد اخترناه من قبلنا.**

محرر أدب وفن

أفجعتها المصيبةُ

سهيل الزهاوي

ما زلت أذكر تلك اللحظة حين التقيت بها في المرة الاخيرة من ذلك الصباح الخريفي، ضباب يتجه نحو الأفق، يحجب الرؤية رويداً رويداً. وكنت غارقا في تأملاتي في واقع الحياة وقلبتُ الأوراق المبعثرة على المنضدة في مكتبي وكانت النافذة الوحيدة في الغرفة مغلقة في الطابق الثاني من البناية، وتردد وقع اقدام خفيفة وهي تصعد الدرج ويقترب الصوت رويداً رويداً من الغرفة، فجأة انفتح الباب، ترددتُ في وقفته قبل الدخول ثم خطوت الى الداخل ووقفتُ قرب الباب الخارجي للغرفة كانت تبدو عليها الحيرة. ولم يكن على وجهها مرحها المألوف، وكانت صورة وجهها تلوح بسر ترتبط به أغوار نفسها وكانت هذه النفس كأنها مرعوبة او مهمومه. لم أكن انتظر مجيئها، وقد شعرت بفرح ممزوج بقلق لمجرد دخولها الى غرفة المكتب.

في البداية بدا عليَّ التردد وعدت اهز رأسي بقلق، أمطتُ اللثام عن مخاوفي

وقفتُ خلف المنضدة واحدى يديَ في جيب السروال والثاني مرفوعة لأحيها بحرارة وهي لم تستجيب، ظلت واقفة، ويدها اليسرى على خصرها المشبوب

- قلتُ : تفضلي اجلسي

بقيت صامتة وتحدق فيَّ، استمريتُ في النظر اليها بهدوء وهي في حالة عصبية حادة، تركتها حتى تقرر بنفسها. بعد برهة، جلستُ على الأريكة القريبة من الباب واتكأتُ بظهرها على المقعد بعد أن أخذتُ نفساً طويلاً من دون أن تنبس ببنت شفة إضمت ساقيها وعيناها محددتان في السقف، كانت تضع شالاً من الحرير على كتفها.

سيطر عليَّ في هذه اللحظة شعور بحزن عميق، وأنين الظلمة ووحشتها تتسرب الى قلبي وكياني. لم تكن على عادتها، بعد فترة من الصمت، رددت كلمات لم أفهمها فقد كانت مبهمة وغامضة وهي ترتعش كما ترتعش نبتة وضعت في الماء، وبدا الانفعال واضحا على وجهها. وملامحها أقل صفاء مما كانت منذ أعوام.

قالت جوهرة:

- لم أتِ وحدي اخي طاهر معي وهو جالس مع الاستاذ علي في غرفة الانتظار.

اردفتْ :

- انك تسيئ لي عند اصدقائك.

وقد تعجبت من كلامها، وهي تعرفني وتعرف طباعي جيداً، لم اقل شيئا يسيئ إليها، وكانت تحكي بطريقة تود ان تسمعها وتشعرك بأنها ضائعة الحق في الحياة..

كدت اسمع دقات قلبها لعنفها، كانت كئيبة تلفها هالة من الحزن وتبدو متعبة ومرهقة بسبب مرض غريب ألمّ بها. كان الموقف صعباً ماذا اقول لهذه الانسانة التي عرفتها مناضلة صلبة مثقفة لا تستكين وتضج بالحيوية والتألق وتستقطب الاهتمام. كنت حائرا لم اتفوه بكلمة.

في تلك اللحظة، نظرت إليها بدهشة، وكأنني رأيتها لأول مرة. يطاردها الحزن في كل مكان، ويحيط بها، ويدور حولها، من دون أن يدمرها بضربة من مخالبه، أخذتُ أراقبها مراقبة المكتشف الذي يحاول معرفة الحقيقة.

- حاولتُ ان اغير مسار اللقاء وتفكيري لا زال مضطرباً منذ اللحظة الأولى من لقائي بها، سحبت نفسا عميقا بعدما فكرت أن أغير مجرى الكلام عساني أستطيع التغلب على حالتي وتقليل مساحة الحزن الذي تلبسني كقوة خارقة.

ركنت الى الهدوء وزال عني التوتر، ولكن الأفكار والذكريات ظلت تتوالى عليَّ. كنت أفكر فيما إذا مصارحتي لها بما يجول في خاطري تخفف من حدة توترها.

قلت لها بأعصاب هادئة:

- عندما تتوترين يتراءى لي انك أكثر جمالا !
يبدو إنني عندما نطقت هذه العبارة بدت كما لو كانت مغازلة أكثر مما كانت ملاطفة الجو.
لقد شعرتُ أن مشاعرها تغيرت ورسمت على وجهها علامات الرضا لأول مرة في هذا اللقاء ربما شعرتْ بالسعادة. شعرتُ بهدوء داخلي عميق يسري في جسمها. ونقطة البدء في تعارفنا معا، كانت صباح ذلك اليوم من الأيام، حين دخلتُ بيت أم سلام وكنت على موعد اللقاء بها في مهمة حزبية. كانت جوهرة تجلس في الغرفة التي تطل نافذتها على الباب وقد لمحتْ وجهي وعرفتْ بتجربتها الحزبية على أنني شخص غير عادي، هكذا قالت لي، بعد أن تسلمتُ منها رسالة تطلبُ تنظيم عملها مع المنظمة.
كانت جوهرة زهرة جميلة، فاتنة، بشرتها ناعمة بلون بياض السكر ممشوقة القوام، وشعرها الاشقر مسدل على كتفيها، كانت تتميز ببراعة مشيتها المتناسقة واناقة ازيائها، صحيح انها امرأة حادة المزاج، ولكنها انسانة طيب القلب وكريمة النفس، شخصية ذكية وشديدة الحضور.. كانت تتمتع بثقة في النفس، وهي سيدة مشهورة على نطاق مدينتها. ويبدو للمرء منذ الوهلة الأولى عندما يقع بصره عليها أنها ليست بها حاجة إلى أحد، وظلت محبة للناس، قريبة منهم، تحاول أن تقدم لهم ما تستطيع وهي تسعى لمساعدة المحتاجين.
هذه المناضلة التي لم تنقطع عن المعرفة وعن النضال السياسي خلال المراحل الصعبة والخطرة التي يعجز القلم عن وصفها. كانت تدخل الى غرفتها تقضي ساعات عديدة منكبة على الكتب. وكانت لها مكتبة عامرة بمختلف الكتب الادبية، والفلسفية، والاقتصادية، وغيرها. صقلت جوهرة فكرها وشحذت مواهبها وانارت بصيرتها، فلم تعد مجرد انسان عادي تساق في خضم الحياة من دون ارادة ووعي وإنما كانت في مجمل حياتها السابقة تتناول المسائل بالتفكير والتحليل والتدقيق والتأمل وقد قابلتها أيام عصيبة وواجهت ظروفاً شديدة التعقيد بعد حملات الاعتقالات التي شنت على رفاقها. فظن البعض أنها لا تقدر الصمود أمام هذه المصاعب، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل تخطت كل هذه الصعوبات والعقبات التي اعترضت طريقها وخرجت من المأزق كافة بطريقة ذكية. ولكن في الحملة الاخيرة قبل ثلاثة عقود ونيف أصيبت بصدمة كبيرة بعد أن تعرضت الى التهديد والوعيد والتعذيب النفسي والبدني من قبل أجهزة الأمن والمخابرات للسلطة العراقية اثناء اعتقالها في بغداد في نهاية الثمانينات من القرن العشرين. حولت حياتها الى تعاسة، ومرهقة للغاية.
لقد كانت على مدى الأعوام الماضية تأخذها يومياً حمم من الحزن وتنتابها نوبات الخوف واليأس وخيبة الأمل وهي غير مقتنعة بما يقال لها، وهي تصر على ما تتخيلها .. كانت واقعية وهذا ليس مرض كما يشاع عنها. ولا تشعر بالرضا والسعادة وتحولت حياتها ومن حولها الى جحيم منذ فترة طويلة وفي بعض الاحيان يساعدها الحظ ينمو ببطء وتعود إلى حالتها الطبيعية، في هذه اللحظات الجميلة تظل خيالاتها من عقلها الباطن ويهيمن الخوف مرة اخرى.
تسبب تخيلاتها التي تتكلم عنها ضيقاً لمن حولها وفي بعض الأحيان ما يثير سخريّة أبنائها.
يصفها ابنها الأكبر بأنها متعبة بسبب توترها وخيالاتها.
خلال هذه السنوات ها هي تعيش الحالة نفسها وفي عينيها جفت الدموع، لا تزال تعاني من الخوف القديم الجديد، فقد خارت قواها وامتلأ رأسها بأفكار من نسج خيالها. وغالباً ينقبض قلبها وتدخل غرفتها وتغلق الباب والشبابيك على نفسها من شدة القلق. إن القلق ظلت ينهشها طوال هذه الفترة.كما هو معروف أن الرأس يفرز عند التوتر الشديد دهوناً ومواد أخرى، وتساعد الدموع على إخراجها بعدها يشعر المرء بالهدوء، أما جوهرة فكانت تحتقن الدموع في عينيها وتزداد التوتر.
في بعض الليالي، تستولي عليها كآبة غريبة. تأخَذُها عَلى حين غرَّةٍ، ويستبد بها خوف، تشعر أنها الوحيدة، قد هجرتها صديقاتها واصدقاءها جميعا معانية من اضطراب عميق من دون أن تعرف لماذا يحدث هذا لها. ومن دون أن تدرك أنها ابتعدت عن العالم من شدة الخوف بعد مرضها. تتحدث مع نفسها وتقول:
- لا أحد يزورني، كما لو كانوا نسوني، كما كنت، حقا، غريب عنهم!
- نعم الجميع هجروني، بقيت وحيدة اصارع هؤلاء الحيتان، وحتى في بيتي لا أشعر بالراحة.
يُعدّ اضطراب الوهم من الأمراض النفسية المصنّفة تحت اضطرابات الذهان، وهو مرض يعاني فيه الشخص من مشكلة في إدراك الحقيقة، لا تدرك جوهرة سبب هذا الأسى الذي يزحف الى داخلها، وأن ما تعاني منه ليس مرضًا بحدّ ذاته، والاصعب من حولها لا يفهمونها وقد رفضت العلاج النفسي، مما اضطر أحد أقاربها طرح مرضها على طبيب الأمراض النفسية وكتب لها العلاج، واخيراً أبدت استعدادها للعلاج الدوائي، وبعد أن تناولت الأقراص، بدأت تقوم بتنظيم ما تدور في رأسها في فترة بسيطة وقد ساعدها على التهدئة في السنة الماضية، وأقلعت عن التخيلات والاوهام وبدأت تمارس حياتها بشكل طبيعي.

الشكلانية الروسية
قراءة تحليلية جمالية

د. نجم حيدر*

نحاول برغبة أبستمولوجية ان ندخل الى زمن الحداثة في قراءة التجمعات الفلسفية لأهمية المتحول الكبير بين الحداثة وما قبلها، ويمكن ان نبدأ مع الشكلانية الروسية التي نضجت بعد مخاضات جدلية لامست بدايات القرن العشرين في موسكو عن طريق تجمعات لغوية ادبية عملت على اعادة الفهم والمعنى لماهية النتاج الابداعي في الادب والفن.

ان هذه التجمعات المسماة بـ (الشكلانية الروسية) تمثل مجموعة حركات فكرية فلسفية نقدية، بدأت رؤيتها تتلاقح وتتداخل وتتشابه في احيان كثر وفي تفاصيلها:

1- حلقة موسكو او مدرسة تارتو السيميائية (1).
2- حلقة ابراغ اللغوية (2).
3- جماعة سان بتروسبورغ او جماعة (ابوياز)
4- هذه الجماعات يمكن ان تتفرد في خصوصيات جزئية، الا انها بأجمعها تمثل تقاربا في ماهية انطلاقاتها ومنطلقاتها في كليات افكار هاز.

فهذه الشكلانية التي يؤشر بداياتها مع عام 1915 ومتسلسل في نهاية انتشارها من عام 1930 الى ستينيات القرن العشرين، مرت خلال هذه الفترة بثلاث مراحل:

أ- النشوء والارتقاء 1915- 1922
ب - الذروة والانتشار 1922- 1930
ت- الانحلال والتراجع 1930- وما بعدها

بينما انتشرت افكارها بعد ان استلهمته الحلقات الادبية والنقدية ذات البعد الفلسفي في اوربا الغربية، حتى ان البعض من الكتاب والنقاد تفاعلوا مع ارائها بالدعم والتطوير، كما هو حال ما اشتغل عليه (باختين(3) وتودورف غريماس(4) و وجيرار جينيت(5)).

وفي قراءتنا لهذه الحركة نجد ان نشأتها تناغم مع المخاض الابستمولوجي المعرفي الذي اجتاح الفن والادب، بدءاً من تحولات الانطباعية وصولا الى تلك الصراعات الكبرى التي تلاقح

بها النسيج المعرفي بين الفلسفة والادب والفن والعلم مع اطلالة القرن العشرين، والذي في فحواه ومنطلقاته حالة رفض لثوابت ايقونية اسستها الراديكالية الرومانتيكية وقبلها الكلاسيكية، هذا الرفض ومحاولة التبديل والانتقال الى عوالم جديدة اسس لموضوع اعتمدتها الشكلانية الروسية ويتلخص في ان الشكل وتقنيات اظهاره واليته وصورة تلمسه والتفاعل معه في لحظة الاندماج بين النص(6) ومتلقيه، هو في حقيقته المركز الاهم والاقوى من كل المرجعيات والاسس النسقية التي تسبق النص وتحاول الهيمنة عليه، اي بمعنى ابسط ان قيمة الشكل في مباشرة الوعي للاشياء والاشكال والظواهر اذ تعد الاهم من المضامين الفكرية العميقة التي توجهها، اذ اشتغل الفنانون والادباء بطاقة عالية لتقويض الايقونات الرومانتيكية المتداولة والسائبة ففي فن التشكيل نجد تحول واضحا في اعلى مراحل القصدية عمل عليه الشباب المبدع المشاكس ابتداءً من (فان كوخ وماتيس وسيزان وبيكاسو وبراك)، بعد تقويضهم لفكرة التعالي الدراماتيكي في ما يصدره النص التشكيلي من معاني وافكار سامية، تمثل جل البناء الرومانتيكي كما هو حال لوحة قسم الاخوة هوراس وغرق الميدوزة وطوف دانتي وغيرها.

اذ حقق فان كوخ وسيزان وماتيس نتاج اسلوبي مشاكس بقصدية تقوض سلطة المعنى في النص التشكيلي، كما في زوج من الاحذية لفان كوخ والساعة السوداء لسيزان وامرأة امام شباك لماتيس وهكذا الامر يستمر بتسارع هدفه تعظيم قيمة الشكل وتقويض قيمة المعنى، ان هذا النتاج المكثف اسس لاساليب جمالية كما اسست حركات أسلوبية جديدة كالتكعيبية والسريالية والتجريدية.

ان مخاضات الجدل الفكري الذي اجتاح اوربا كان متنوعا بين العلم والفلسفة والادب وفنون المسرح والتشكيل ، اجمعها اشتغلت على تقويض وتفكيك قيم سائدة هيمنت على العقل البشري ابتدأ بها فيلسوف الحداثة وما بعدها (فريدريك نيتشه) المتوفى عام 1900 اذ كانت مشاكساته ساعة سوداء /سيزان الكبرى ولا سيما في نتاجاته الفكرية عام 1883-1900 المسماة بفترة الجنون لديه والمؤسسة الاهم في جماليات التقويض ، والامر يتناغم مع انتشار نظرية (جارلس دارون) عن طريق كتابه (اصل الانواع) ومن ثم انتشار اراء (سيجموند فرويد) المثيرة للجدل والجريئة في المساس بأيقونات تعد اخلاقية ، ولا سيما في الامراض الجنسية المحتوى ومراحل نمو الشخصية ، فضلا عن جرأة الادب في الشعر الذي قدم له (كريستيان تازارا(7) وارثر رامبو(8) واندريه بريتون(9))، اثر مهم في تحفيز واشاعة التحول نحو الحداثة، التي اعتمدت فكرة مباشرة الشكل للوعي من دون معنى مبالغ فيه قبل الحداثة. انه مدخل الزمن التحول يؤسس لقيم جمالية وادائية مختلفة، والامر يعني ان الشكل المباشر بوعي المتلقي هو

المركز الذي لابد ان نعمل عليه ونكشف طاقته، هذا الذي تنبه اليه الشكلانيون الروس عن طريق مدرستي موسكو وبطروس براغ. في موسكو كان (رومان جاكوبسون(10)) المؤسس لفكرة (الوظيفية)التي تتصف بها كل منظومة إبداعية، والمسماة بالوظيفة الجمالية، اما في جامعة (بتروس براغ) فكان (شكلوفسكي)(11) موقف يؤكد ضرورة التوجه نحو الشكل وإظهار قيمة النص على نحو أوسع كثيراً من فكرة المضمون والمعنى والمفهوم.

ان القراءتين الشكلانيتين التي قدم لهما (جاكوبسن وشكلوفسكي). تؤمن ان الشكل يمثل القيمة العليا، بل انه يسقط الثنائية التي هيمنت على عقولنا والفاصلة بين الشكل والمضمون، اذ وصفو ان الشكل بالمؤسسة الأوسع التي يتبعها المعنى والمفهوم.

ان اشتغالات هذه الحركة الفنية الجمالية تؤسس الضرورة (الفونولوجية)(12) التي تعمل بآلية بناء الصورة وتلقيها وتقبلها عن طريق رصد مستويات او طبقات الدلالة وتركيبها في الصورة ذاتها، الامر اسس لإخفاء المرجع او مجموعة المراجع المكبلة للقراءات الجمالية و للأداء الفني الابداعي، واهمها:

أ- اقصاء المرجع التاريخي (الآركولوجي)

ب- اقصاء المرجع النفسي (السيكولوجي)

ت - اقصاء المرجع الاجتماعي (السيسيولوجي)

ث- اقصاء المرجع العقائدي (الايدلوجي)

هذه التي اثرت على نحو واسع في الدراسات البنيوية اللاحقة المنطلقة من ارضية ألسنية اسس لها (فرديناند دي سوسير (13).واعتمدها (رومان جاكبسون) وحقق لها منطلقات مهمة تلقفتها البنوية ولاسيما ثلاثينيات واربعينيات القرن العشرين.

ان الشكلانية الروسية ان كانت على مبدأ (رومان جاكوبسن او شكلوفسكي) فقد اعتمدت:

أ: مبدئي التحوير والابدال، انها محاولة الى التجديد وتأسيس بمنطق الاختلاف الذي يتخطى الضاغط الاجتماعي والتاريخي والنفسي والعقائدي.

ب: الامر الذي قدم لصورة مفاهيمية جديدة للفن اساسها: ان الفن ليس بالضرورة اسير نسخ الواقع والوجود كما نتلقاه فيزيائياً بصفاته الحسية ، بل ضرورته التي تكمن في رؤية جديدة لما نسميه في الواقع والوجود المادي، رؤية نفترضها على أمل ان يكون هذا الوجود اجمل وانقى وافضل.

وعليه فأن الفنان المبدع هو القادر على التحوير والابدال، يعمل على تحول في قراءة للوجود السائد المتداول الى وجود يتخيله، يتخطى الواقع ليبني واقعا جديداً مفترضا، فمهمة الفنان ليس إعادة صورة الموجودات كما هي بل في صناعة موجودات اخرى ليؤسس لشكل جديد لها او مجموعة اشكال مغايرة، فليس مهمة الفن ان يكون ناسخاً، بل مهمته ان يكون صانعا وبانياً للجديد.

ج: ان رؤيتهم للجمال تكمن في حركة الافتراض المتحركة له، انهم (الشكلانيون) يؤمنون باللاواقع الجمالي، واللامادي الثابت المنطلق من الحس المباشر للمادة، هذا الذي نجده عند كازمير مالفج وفاسيلي كاندنسكي وبيت موندريان والكثير من فنانين الحداثة.

د: وعليه فأن الشكلانيون يدعون الى التغريب بفعل معرفة قصدية عن الواقع المعاش، رافضين لقوانين الوجود المادية الفيزيائية، مفترضين قوانين اخرى تتخطى هذا الوجود المادي الذي يؤسر ذواتنا.

ان التجديد ضرورة، واستمرارية التجديد في نفي الاول للانتقال الى الثاني يعد ضروة في الوعي الجمالي وتحطيم الواقع المتاح امام النظر.

هـ: ان قراءات جاكوبسن تعد استمرارية متلاقحة مع قراءات اخرى متوازية معه في بدايات القرن العشرين، نتلمسها في كل الحركات الفنية التي ظهرت مع التكعيبية والسريالية والتجريدية والمستقبلية وصولا الى التعبيرية التجريدية التي فتحت ابواب زمن نسميه بـ ما بعد الحداثة.

و: ان فكرة الشكلانيين تؤمن بطاقة الفعل الابداعي الذي يؤسس فناً لابد ان يمتلك وظيفة جمالية تتخطى كل الضواغط الاخلاقية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والعقائدية، وعدو الفن علم يمكن تسميته بعلم الفن والجمال ينطلق من خصوصيته المتجددة في طاقة فنية ترفض ان تهيمن عليها القيم المجاورة التي ذكرناها آنفا.

ز: هذا بأجمعه الذي قدم له(جاكوبسن) يعد استمرارية تاثير (الفينومينولوجيا) (الظاهراتية) لـ(ادموند هوسرل) التي دعت الى قراءة الفلسفة وصناعتها بذات الطاقة والأسلوب والنظم العلمية، اي بمحاولة ان تكون الفلسفة ذات مؤسسات علمية كالرياضيات والكيمياء والهندسة واثر (هوسرل) على (جاكوبسن) واضح عن طريق استدعاء المباشرة للحس في ادراك الصورة او الشكل (القصدية وهي فكرة محوريّة في فلسفته الظاهراتيّة، إذ لم يقصرها على مجال الأحكام المنطقية، بل عمّمها لتشمل مجالات الإدراك والعواطف والانفعالات والقيم، وهو يعرّفها بأنّها خاصيّة كلّ شعور أن يكون شعوراً بشيء"، ممّا يتيح وصفه مباشرة. ووفق المنهج الظاهراتي حسب هوسرل يتوجب الكشف عن "الأحوال النموذجيّة للوجود المعطى، أو ظهور الموضوع: الموضوع كما يُدرك، والموضوع كما يُتخيّل، والموضوع كما يُراد، والموضوع كما يُحكم عليه(13)".

لقد انتشرت الشكلانية ودعمت من دعاة التجديد في بنية النتاج الإبداعي، الا انها ما لبثت ان رفضت وحوربت من جهات تؤمن بضرورة ان يكون الفن جزءً من نسقية لا بد ان يتبعها ويخضع

لمتطلباتها، منهم دعاة البحث والتمركز في الذات المنتجة للأبداع والمتلقية له كانوا في حالة ضد من موقف الشكلانيين الذي غيبوا ذات المنتج، واقصو ضواغط الواقع بمجاورات أساسها (التاريخ والأيديولوجية او العقائدية)

وإزاء ما قدمنا يمكن تلخيص المبادئ التي أسس لها الشكلانيون بما يأتي:

1- ارساء رؤى ذات بعد نظري نحو اعادة بناء لفكرة الادب والفن تحاول تخطي تلك الايقونات المتزمتة في المرجعيات والعمل على ان للفن والادب والابداع خصوصيات ذاتية كما سميت بالادبية والجمالية الوظيفية.

2- محاولة التخلص من هيمنة المجاورات على الفن والتأكيد على خصوصية النص في ذاته ومن اجل ذاته ففكرة الفن للفن ومن اجل الفن هي التي اسست بمزاوجة حداثوية شكلانية.

3- محاولة الانغلاق على النص بوصفه مكتفياً بذاته لا يأثر بخارجه بل هو الذي يؤثر فيه هذا الذي اسس لدعوات بنوية لاحقة.

4- دعت الشكلانية لذلك المنطق (الكانتي) الذي يدعو في لحظاته الاربع الى الكينونة الخاصة بالفن بوصفه بناءً حراً مستقلاً بذاته وكما ذكر (كانت) في وصفه للفن في كتابه (ملكة الحكم) (الا نسمي فنا الا ما ينتج عن الحرية اي عن ارادة تضع العقل اساسا لأفعالها(14)) (الفن الجميل هو ضرب من التمثل ذو غاية في ذاته(15))

5- الدعوات الشكلانية لإيقاعية وآلية النص الجمالي بوصفها الاهم للنتاج الإبداعي فهي تمثل

الشكلي بطاقة اوسع من المحتوى متخطية المعنى والمفهوم.

6- التأكيد على الوظيفة الجمالية التي تجتاح الذات من دون اي تحضير او ترتيب وكأنها صورة من دعوات (كانت) اذ يقول جاكبسون ان الأدبية في الادب هي التي تجعل منه عمل ابداعيا اي بمعنى ان في للفن طاقة تتخطى المفاهيمية والمعنى طاقة تؤسسها الوظيفة الجمالية.

وأزاء ما ذكرنا يمكن ان نقدم قراءات جمالية إجرائية للشكلانيين الروس:

1- حاولت اعادة او تحويل في قراءة ماهية الجمال وصناعته في الاداء الفني الجمالي، هذه الدعوة الشكلانية اشتغلت عليها الحركات الفنية من الانطباعية عندما اعتمدوا فكرة اعادة رؤية للطبيعة والوجود المادي الحسي متماهياً مع دعوات (الانطباعية) في رسم الطبيعة بمتغيرات لونية وتكوينية، نصوص بيسارو وسيسلي.

كما اعادت قراءة بناء الشكل الذي اعتمده التكعيبيون واعمال بيكاسو، دلالة على قصدية في التحول والابدال الذي نادى به الشكلانيون، على الرغم من ان بدايات التأسيس للشكلانية مع أواسط العقد الثاني من القرن العشرين الا ان افكارهم وحواراتهم سيقت هذا التاريخ المعلن بكثير وان فكرة الرفض للسائد المهيمن على الرؤى والفكر الجمالي أكد على ظاهرة أبستمولوجية اجتاحت العقل الغربي منذ العقود الاخيرة للقرن التاسع عشر، الا ان متحولات النتاج الفني الجمالي ولاسيما في فن التشكيل بدت متسارعة ودراماتيكية.

2- تطبيقات فكرة التخلص من هيمنة المجاورات على الفن والتأكيد على خصوصيه النص في ذاته ومن اجل ذاته ولذاته، نجدها على مستوى متسارع ومؤثر مع احذية فان كوخ ومع تجريدية كاندنسكي وموندريان، حتى اضحى التشكيل الحداثوي يقدم بقوة فكرة تسامي ذاتية الأداء وبنية الأساليب الفنية. مما غيب الضواغط التاريخية والاجتماعية والنفسية والعقائدية الأيدلوجية.

3- ان فكرة تمركز النص في كل ما يعد قيمية جمالية تتموضع في الاداء تماهياً مع ذاتية النص واقصاء المرجع بل تعد تكاملية حوارية نقدية، حتى أصبح النقد الفني الجمالي ينحو منحى التمركز في داخل النص، وهذا ما اشتغلت عليه البنيوية بعد الشكلانيون في العقود الوسطى من القرن العشرين.

4- اعادة قراءة اللحظات الاربع للحكم الجمالي التي اعتمدها الفكر الجمالي في تأسيس وعي جمالي متجدد ومن ثم اعادة صناعة الجمال في الاداء الفني، يمثل ظاهرة تحولية في فعل الابدال جاءت بعد حين من زمن (كانت) ولاسيما في فنون للحداثة وما بعدها. ان قراءة انجازات الشكلانيين لماهية الادب والفن يعد ارساء لفكر الحداثة الذي ما لبث ان ينتشر وينمو بخطى متسارعة حتى وصلنا الى مفترق جدلي يعلن منطق تحولي لفكر نعيشه الان نسميه بـ (ما بعد الحداثة).

* باحث واكاديمي ومصمم ديكور/
متقاعد حالياً

الهوامش:

(1) مدرسة تارتو السيميائية اعتمدت البحث السيميائي وهتمت بنظم الإشارة المضمورة في الخطابات الأدبية من روادها - بوريس أوسبينسكي (1937-) ، فياتشيسلاف إيفانوف (1929-2017) ، فلاديمير توبوروف (1928-2015)، ميخائيل جاسبارو ف (1935-2005)، الكسندر بياتيغورسكي (1929 - 2009) و اسحق i Revzin (1923-1974) انتقلت بقية المدرسة إلى الغرب أو انتقلت إلى قضايا علمية أخر.....انظر: لوتمان .بعض الملاحظات حول الخلفية الفلسفية لمدرسة تارتو للسيميائية. المجلة الأوروبية لدراسات السيميائية،2000، ص12

(2) مدرسة براغ عام 1926: تعد من اهم المدارس الأدبية التي اسس لها الباحث اللساني التشيكي فيلام ماثيسيوس، والتداول الشائع لها عرف بمدرسة براغ، واشتغلت على ارساء قراءات نقدية وتحليل سنني متميز ، ومن اهم المشتغلين فيها ميكاروفسكي و رومان ياكوبسن.

(3) ميخائيل باختين (1895) في اوريول ابنا لعائلة ارستقراطية. درس فقه اللغة في جامعة اوديسا ثم في جامعة بتراغراد، وفي نيفيل تشكلت اول حلقة ضمت فالنتين نيكولاييفتش وهو شاعر وعالم موسيقى، وليف فاسيليفتش بوميانسكي وهو فيلسوف وباحث ادبي وحضر المحاضرات التي يلقيها كاسيرر . عبد الوهاب شعلان كلية الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية جامعة باجي مختار/ الجزائر . 2008، العدد الثاني، ص7

(4) تزفتيان تودورف: فيلسوف فرنسي -بلغاري(1939- 2017) في مدينة صوفيا البلغارية. يعيش في فرنسا منذ 1963، ويكتب عن النظرية الأدبية، تاريخ الفكر، ونظرية الثقافة .نشر تودوروف 21كتابا، بما في ذلك "شعرية النثر (1971)"، "مقدمة الشاعرية (1981)"، ميخائيل باختين: "مبدأ الحوارية (1984)"والحديقة المنقوصة: تركة الإنسانية (2002)". الشعرية.

غسان السيد. تودوروف من الشكلانية الروسية الى اخلاقيات التاريخ. مجلة جامعة دمشق المجلد 19- العدد (1+2)،2003، ص327

(5) جيرار جينيت (1930 -2018) . ناقد ومنظر أدبي فرنسي، صاحب منجز نقدي ضخم وفريد من نوعه في النقد والخطاب السردي وأنساقه وجماليات الحكاية والمتخيل وشعرية النصوص واللغة الأدبية. وإذا كان اسم جينيت لا يعني الكثير للجمهور العريض فهو يرن بوقع خاص وساحر لدى أجيال عديدة من طلبة وأساتذة الأدب والدراسات النقدية في العالم أجمع بما فيها المنطقة العربية، ذلك أنه كان إلى جانب صديقيه رولان بارت وتزيفتان تودوروف بمثابة ملك تربع على عرش السرديات وخلق موجة تجديدية خلاقة في النقد الجديد عبد الحق بلعابد، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008، ص10– 15

(6) كان موضوع تسمية نتاجات الادب بين العمل الادبي والنص الادبي محور نقاش بين باختين وتودوروف وجوليا كرستيفا في الثبات على التسمية وتوصلوا الى تسميتين صحيحتين مع تفصيل يعد مهماً في قراءة النتاج الابداعي يتمثل: ان العمل الادبي يمثل الجانب الفيزيائي المادي منه كما في الصوت (الفونيم) ومادية واليات الكتابة وطرقها. اما النص فيحوي العمل بكل مادياته ويؤسس ما نسميه ادبية الادب او جماليته التي تتخطى ماديته. هذا الحوار يمكن مراجعته مع كتاب جوليا كرستيفا علم النص او محمد يوسف البقاعي في كتابه التناص.

(7) كريستيان تازارا: شاعرًا رائد وكاتب مقالات وممثل روماني فرنسي وقد عمل صحفيًا وكاتبًا مسرحيًا وناقدًا أدبيًا وناقدًا فنيًا وملحنًا ومخرجًا سينمائيًا، وعُرف بأنه أفضل المؤسسين لحركة دادا المناهضة وأحد رؤساء الحركة كما أنه كان من شخصياتها البارزة. في ظل تأثره بأدريان مانيو بأسلوب الرمزية في الشعر وشارك في تأسيس مجلة سيمبوليو لوم مارس

(8) https://ar.wikipedia.org/wiki/

ارثر رامبو: (1854-1891) شاعرًا فرنسيًا معروفًا بتأثيره على الأدب والفنون الحداثية ورسمه للمعالم الأساسية للفنون السريالية، أنتج رامبو الجزء الأكبر من إنتاجاته الأدبية، ثم توقف في العشرين من عمره عن الكتابة بشكل كامل، بعد أن جمع آخر أعماله الأدبية التي حملت عنوان إضاءات .اشتهر رامبو بروحه بعد فقدانه الاهتمام بالأدب، سافر رامبو كثيرا عبر ثلاث قارات، بصفته تاجرا ومستكشفا، حتى توفي عام 1891 متأثرًا بإصابته بمرض السرطان عن عمر يناهز 37 عامًا. بصفته شاعرا، اشتهر رامبو بإسهاماته في الحركة الرمزية، وكان من بين أعماله الأدبية الأكثر شهرة، كتاب موسم في الجحيم، الذي يعتبر مقدمة للأدب الحداثي. ميللر، هنري. رامبو وزمن القتلة، ترجمة سعدي يوسف، بغداد: دار الثقافة للنشر ، 2014، ص5

(9) اندريه بريتون (1896-1966) كاتب وشاعر فرنسي ومناهض للفاشية .أبرز ما عُرف به أنه أحد مؤسسي السريالية وقائدها ومنظرها الرئيسي وكبير المدافعين أسس اندريه برتون مع رفاقه مجلة ادب 1919 مع تعريفه للسريالية في اصدار بيانه الاول الية نفسية صافية، يمكننا ان نعبر بواسطتها اما كتابة واما شفويا واما باي طريقة اخرى عن سير عمل الفكر الحقيقي، انظر .امهز. محمود: التيارات الفنية المعاصرة. لبنان، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ،ط2، 2009ص265–267

(10) رومان جاكوبسون :(1896-1982) احد رواد المدرسة الشكلية الروسية . وقد كان أحد أهم علماء اللغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرائدة في تطوير التحليل التركيبي للغة والشعر والفن. وقد شارك في أنشطة جماعة الطلائع في الفن والشعر. انظر. بركة. فاطمة الطبال. النظرية اللسانية عند رومان جاكبسون. لبنان: مؤسسة الجامعة للدراسات والنشر ،ط1، 1993،ص7 - 8

(11) فيكتور شكلوفسكي: (1893-1984) وكاتب وأديب روسي، قدم مساهمته إلى الشكلية الروسية بمقالته "الفن من أجل الفن"، الذي نشر في عام 1917، والعديد من المقالات النظرية. طرح بعض المفاهيم الأساسية للنظرية الشكلية، والأعمال الفنية ذات الطابع التقليدي رأى شكلوفسكي في فن الكلمة نسيجاً وبناءاً يقومان على قوانين تطور الموضوع في العمل الخاضع للتحليل، وهو حصيلة للطرائق والأساليب والأدوات التي قام بها هذا البنيان وشكل نسيج الصور وانبعاث الكلمة التي يحييها العمل الإبداعي.

(12) https://www.marefa.orgA/simplified

الفونولوجية: علم وظائف الأصوات اللغوية أو علم الأصوات التشكيلي هو فرع من علم الأصوات يهتم بدراسة الصوت اللغوي داخل بنية الكلمة، أو بعبارة أخرى هو العلم الذي يدرس الأصوات اللغوية من حيث خصائصها الوظيفية، بغض النظر عن طابعها الفيزيائي والعضوي. انظر : عصام نور الدين: علم وظائف الاصوات اللغوية (الفونولوجيا)، لبنان: دار الفكر اللبناني،ط1، 1992 ص35

(13) فردينان دي سوسير : (1857-1913) : يعد من اشهر علماء اللغة الذي اسس لمتحولات هامة بعده وهو المؤسس للبنيوية اللسانية وعلم اللغة التحويلية من بناها التواصلية الى بناها التفاعلية المنتجة، ترجمت كتبه الى العربية.

(14) عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ج2، نشر ذي القربى، ايران: قم،ط1، 1427هـ ،ص541-543

(15) امانويل كانت، نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2005،ص227

الفانتازيا والإسقاط التاريخي !

منار غالب حسين *

الفانتازيا: تناول الواقع من زاوية غير مألوفة، تشبه رؤية القمر في قارورة زجاجية، مشعة كالنور، وربط الحدث بالواقع!

هي المساحة التي يضمنها تحدثك بصوت عال من دون ان يكون عليك أية صفة جنائية او اتهام بالتطاول نحو رموز دينية او سياسية او أية اتهامات اخرى غير متوقعة من اصحاب التفسيرات الأيديولوجية !

ألم يلجأ الرحابنة في المسرح الغنائي، الى ابتكار شخصيات ترتدي حقبة ما غير محددة بتاريخ، الوالي وقوانين الضريبة في مسرحية ناطور المفاتيح!

ومسرحية بترا، الزوج الملك المحارب وزوجته التي ضحت بابنتها، سفر برلك كان واقعا تاريخيا في زمن الحكم العثماني حبيبها الذي اخذوه الى السُّخرة كم كان واقعا موجعا لم تتحدث عنه اي من الافلام بعدها ولا حتى الاشارة اليها في اي من المسلسلات التركية والسورية!

كيف للمثقف ان يتحدث ليتنفس المواطن العادي وبضمان ان يُنقّس المثقف عن واقعه بوصفه العين الثاقبة للمواطن البسيط الذي يأمل ان يتحدث عن احتياجاته وحقوقه المدنية وان يظل المثقف، خارج الرقابة إمسلسل الفايكنغ من انتاج 2013 باجزائه الخمسة تتحدث عن البطل الاسطوري، راغنر لوثبروك، فهل كانت القصة تاريخية حقيقية ام فانتازيا؟ وهل تمثل حقبة تاريخية حقيقية ام ابتكار كاتب واسقاط تاريخي؟ ام انها تأملات اليائس بابتكار شخصية لحاجة المشاهد لبطل لا يقهر وداهية كسر شوكة ملك انجليزي، اتصف بالقوة والبطش؟ ام خيال يصل الى حد ما من الحقيقة باسقاط احداث تاريخية على الشخصية المبتكرة "فانتازيا"، كي تكون أقرب الى التصديق؟!

هل التاريخ تجاوز الحديث عن الفايكنغ عمدا ولم يؤرخ لها لأسباب سياسية بحتة، إذا ما صح السرد بأنهم فعلا وصلوا الي اسبانيا وهدموا اسوار باريس واختلطوا بالدماء الملكية الاوروبية؟!

هل هم حقا ويلزيون استقروا كمزارعين بعد اتفاقية بين فاغنر والملك الانجليزي اكبرت؟! وهل المحاربون الشرسون الدمويون، خضعوا للاستقرار مقابل مزروعات في ارض انجلترا؟! اذن هي الفانتازيا والاسقاط التاريخي والخيال الدرامي الذي يحفزك على المشاهدة والمتابعة، ظانا أنك تشاهد فيلما وليس درسا أنموذجيا تعليميا؟!

لماذا تطرح تساؤلات لا تعتني بالاجابة الكافية لها، لِم لم يذكر البحث التاريخي عن الفايكنغ الروسي؟!

وهنا المفاجأة ان التاريخ لا يعلم كيف تم المزج بين الفايكنغ من اصول اسكندنافية الى الفايكنغ الروسي، وان الايماءة التاريخية الوحيدة مملوءة بالشك، عن ان احد ابناء فاغنر وهو الكسيح قد هاجر الي روسيا وانشأ جماعة روسية للفايكنغ لمجابهة أخيه بيرون الابن الوحيد لراغنر تاريخيا!

ويعود التاريخ ويشكك في انه ربما أرعب الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث وهو الابن المتبقي من ابناء سليمان القانوني، الذي عقد معاهدة مع الفايكنغ على إحدى الدول الاوروبية وان الفايكنغ وصلوا الي مدينة اسبانية ساحلية وضعوا باهلها ونكلوا بهم! مما ادى الي انسحاب القوات العثمانية من اسبانيا!

لست موقنة كثيرا من هذا الحدث التاريخي لكني بمشاهدة المسلسل بأجزائه الخمسة، كان الظاهر للعيان هذه الاسقاطات التاريخية، وايضا اسقاط القضايا المعاصرة في وقتنا الحالي على المسلسل، كقضايا المثلية! تحدثوا عن ان المقاتلة التي ذاع صيتها أكثر من راغنر لوثر بروك زوجته الاولى لاغرثا كانت مثلية! وأنها طالبت بالمساواة بين المرأة بمقاتلين اشداء من الفايكنغ! كم اضعفت المسلسل واصابته بالملل، لسذاجة الفكرة، حيث ان المرأة الفايكنغ كانت ضخمة البنية ومقاتلة شرسة كما الرجل وكان لها نصيب في الغنائم، كما لها مطلق الحرية في الجنس!

هل النظرة المغايرة فقط للصنعة الدرامية والإثارة بتغيير مجريات الاحداث؟

ماذا لو كان الراوي التاريخي، الذي كتب التاريخ موالياً لجهة دون اخرى ولم يدون بأمانة، وكل ما وصل الينا كذب او احادي النظرة؟! او ربما ان الناقل للسيرة والاحداث كان يخشى سلطة، او مكانة، والخوف كان له اليد في قلب الحقائق، وفي تغيير مجريات الاحداث والدوافع؟ !

قد نلجأ للفانتازيا في مجتمعنا الشرقي لهشاشة المنطقة سياسيا، حين تشاهد الافلام الوثائقية التي تصدر من منطقتنا العربية تكون شبه مبهمة او ناقصة المحتوى لا تشبع نهم الفضول الذي ينتظره العالم الخارجي من منطقتنا المغلقة إعلاميا، وتوقع من العالم المتمدن، ان ذلك بلا شك أدى الى كوارث إنسانية تحدث داخل المجتمع الغارق في الفقر والجهل والتشدد الطائفي والمذهبي، وتحولت الى المسكوت عنه!

هل اللجوء الي الأفلام المحرفة للتاريخ، مثل (باب الحارة)، والكثير من المسلسلات التي حين تشاهدها تغمز الحاضر بشكل او بآخر حين ترى المقاربة في مجريات الاحداث !

كأنها الكلام الممتنع، ام التشبث بالماضي، والاضفاء عليه صفة المثالية في المعاملات والتشبث بالاصالة والعادات، ام لان الحاضر لا يمكن الحديث عنه بسبب الانقسام، ليصبح فانتازيا مخفية!

لدينا من التاريخ الكثير المخبأ في دفاتر شبه بالية ذاهبة الي الماضي والاهمال، شمشون الجبار ودليلة الخائنة!

افلام الرومان والاغريق تظل على قائمة الاعلى مشاهدة، الميثولوجيا الاغريقية أخيل، طروادة، واثينا وزيوس، وهرقل واسقاطات التاريخ عليها وجعلها أكثر دموية وشراسة او يطبق عليها قوانين ديموقراطية لم تكن قد عرفت وقتها بعد، لم لا نحتفي بأساطيرنا العربية ونحولها الى فانتازيا!

الغول والعنقاء والخل الوفي، ابو كلبان والدجّيرة في الاساطير الحجازية، لدينا من التاريخ ما نحتاج الى تعريته ونقضه واثباته واعادة النظر والسرد من وجهات نظر حديثة لا تنتقص من شانه أكثر مما نحتاج الى اعادة صياغته برؤية جدلية!

استفزاز الثابت بغرض التشكيك وطرح افكار خيالية لها علاقة بالتاريخ فالعراق ومصر وسوريا واليمن الحضارات القديمة مادة خصبة للأفلام!

لم لا نخرج السرديات المتواترة من إطار التقديس الي دائرة الفانتازيا كي نعرضها بشكل مختلف ونطرحها لمخيلة الكتاب الكبار!

لنخلق صورة سمعية وبصرية للمنحوتات والمجسمات، تحفيز للخيال بعيدا عن التشويه، نطرح جانبا قال فلان عن فلان عن جده عن ابيه سمع من ابن فلان حتى يصل الى مئات من السنين المتوارثة بين قال وقيل، الى فضاء اوسع، بوعي الكاتب ومرافقة الرقي الثقافي كي نترك اثرا ثقافيا، حركة فكرية وحرية فكرية، تتحرر من قيود لا مساس لها بحياتنا.

ان اهمية الفانتازيا تكمن في طرح القضايا، لإثارة حفيظة الخاضعين للقداسة واعتقاد "جاءت كما هي" ولكي يستجيبوا ولاءً اعمى: سياسيا او قوميا او مذهبيا او عرقيا!

الخروج من البحيرة الساكنة في غابات الروح، الى البحر الكبير والعوم في المحرمات والسكوت عنه، فالمجتمع يزخر بالمصائب والجراح الغائرة، مشغولين بالموت البطيء.

فانتازيا الواقع الحقيقي للشريحة المجتمعية الاكبر "الفقر والتردي الاخلاقي والانساني" البحيرة الاسنة التي ينظر اليها الكتاب والمثقفون بنظرة التغافل!

فلنقف وقفة سينمائية لمحاكاة الواقع بالفانتازيا !!

---

*كاتبة سعودية، تكتب إلينا لأول مرة.

الايزيديون .. في القلب منا.
معاناتهم المريرة، وشظف عيشهم ومآسيهم التي فاقت الدم والدموع.
الايزيديون .. هؤلاء الذين تقاسمنا معهم الخبز والظلم على حد سواء ،
كان لابد ان نستقبل كلماتهم وأصواتهم الحرة وهي تعانق الحياة
وتتفاءل بالمستقبل.
نصوص ايزيدية صميمية آثر أصحابها ان تبوح بأنينها على صفحات مجلتنا.
اهلاً ..اهلاً

محرر أدب وفن

ارتاحي كاترين

حجي خلات المرشاوي

ارتاحي (كاترين)*
ارقدي في عيون الغزالات بسلام
تَغَطّي بطلع الزهور البرية
وانصبي شجرةَ تين سنجارية
شاهدةً لقبركِ المُفترَض
ارتاحي يا بنة حمورابي
تمدّدي بملءِ إيزيديتكِ
في زغبِ صِغارِ العصافير
احلمي بحبيبكِ الجميل
ولا تُفسدي عذوبة حلمكِ
بتخيّلِ جسدهِ الطريّ
يتآكلُ في مقبرةٍ جماعية
ارتاحي يا شهقةَ التين
يا استراحة النسيم السنجاري

على أهدابِ السنابل
يا شغفَ قوسِ المطر
في السيرِ ولو مرةً باستقامة
يا بوحَ قطرةِ الندى وهي
تنبثقُ من فمِ ياسمينةٍ جَذِلة
يا بهجةَ خدودِ الغَمامات
وهي تمنحُ قطراتِ مطرها
لبراري (شنكال)**
يا حفيفَ أوراقِ القصيدة
حين تعانقُ أناملَ الشاعر
ارتاحي كاترين
ما عادَ هناكَ مسوخٌ يغتصبونَكِ
ولا لحىً تخدّشُ وجهكِ
ولا نتانةٌ تحبسُ أنفاسكِ
ولا فتاوى تنتهكُ عذريتكِ
ارتاحي يا أختَ (نبوخذ نصّر)
لا حنينَ قتّالٌ (كوجو) بعد الآن
ولا اشتياقَ حارّ لِحبيبٍ بعيد
ولا لهفةَ مضنيةً لأمّ مقتولة
أو أبٍ مذبوح
أو أخٍ مدفونٍ حياً تحت التراب
أو أختٍ ما زالتْ تصرخُ
من سردابِ سَبْيِها (وا ضميراه)
ارتاحي يا صبيّة
ولا تعودي إلى كوجو
فالبيتُ الفارغُ ما زال يلوكُ
بقايا أصواتِ ساكنيه
وأبوابُ البيوتِ المخلوعة
تفتقدُ دِفْءَ البَصَمات
والصباحاتُ الشاردةُ في براري كوجو
ملغّمةٌ بالكثيرِ من الأوجاع
ارتاحي يا رفيقة (آشور بانيبال)
هنا السَّماءُ زرقاءُ العيون
والسَّحاباتُ حريريةُ المَلمس
والرَّبُّ أمامكِ أبيض
والأنبياءُ متعاطفون
لن تبكيْ بعد الآن
أو تتألّميْ أو تتوجّعي
أو تشعريْ بالمهانةِ والذلّ
لن تحترقَ جدائلكِ
أو تتورّمَ خدودكِ
أو تنزفَ جراحاتكِ
لن يكونَ الليلُ جُرذاً
يَقرضُ طُهارتكِ بعد الآن
ولن تلمسَكِ الأيادي المشعّرة
الملوّثة بسرطانِ الطّرابيش
لن تتنفسيْ منذ اللّحظةِ
هواءَ الصّحارى الزُّعاف
أو تمتلئَ عيونُكِ
بذرّاتِ الرملِ الداعر
ارتاحي أُخيّتي
وجعُ (كوجو) ممضٍ وفتّاك
لا يحتملُه قلبكِ الضعيف
ولا تُجاري سيوفهُ الحادّةَ
ضلوعُكِ الطريّة
نامي يا ابنة (كوجو)***
في مَهْدِ الربّ
ستهزّكِ أيادي الملائكة
وتغطّيكِ جفونُ القديسات
وترسمُ الأنبياء لكِ
آخرَ أحلامكِ السعيدة.

---

* كاترين سبية إيزيدية هربت من أسْرِ داعش بعد سنتين من الذل والامتهان النفسي والانتهاك الجسدي لكن لغماً انفجر بها قبل وصولها للقوات العراقية.

** شنكال هو الاسم الكوردي لسنجار.

*** كوجو هي قرية إيزيدية تم اختطاف جميع بناتها ونسائها وأطفالها من قبل داعش وتم ذبح جميع رجالها وشبابها.

أرشيف

حسام الشاعر

كل ما يمت بصلة بك
محوتُه من قلبي
جاهلاً أنه يتحول إلى أرشيف
في ذاكرتي!
وحالما أزور أي مكان
تفتح ذاكرتي الأرشيف
صوراً طرية الجرح
وفيديوهات تلقائية الإعادة
للمواجع..
وصوت ضحكتك
الذي كان يشبه دغدغة الأطفال
ما له يخلق أصوات رعبٍ؟!
والكراسي..
مخيفة
وكأن تسكنها أشباح ثرى!
حتى دمية الحب
أتذكر أني حينما اشتريتها
كانت بريئة بما فيه الكفاية
لتجعل العيد يبتسم
فمن وضع لها تلك الأنياب؟
أهرب من المشهد إلى الوراء
على ساق واحدة
فالطريق الخالي منك
أو يعاكسك بالاتجاه
لا يتسع لوضع ساقين
أهرب
وأنا في نفس المكان
داخل
أرشيف
كل ما يمت بصلة بك

غريب

قحطان الداسي

بعد أن ضاقت عليّ سبل العيش في مدينتي وجعلتني أبيع اشياء من البيت من أجل سد رمق اولادي وبعدما اقتصر عشاؤنا على شاي مغلي لعدة مرات مع الخبز فقط وإلغاء وجبة الفطور، سئمنا هذا الحال انا و أولادي وعائلتي، فقررت الذهاب الى مدينة أخرى للبحث عن فرصة عمل إلى أن استقر بي الحال في مدينة البصرة وكان عملي الجديد يبدأ مع غروب الشمس ولا ينتهي حتى مطلعها في اليوم الثاني، وافقت رغم صعوبة السهر والوقت الطويل.

مضى شهر على وجودي في العمل وقد أنهكني السهر والعمل طوال الليل فضلاً عن اشتياقي لعائلتي وأولادي وعدم وجود وسيلة اتصال كي أطمئن عليهم، فقررت اخذ إجازة والذهاب إليهم والاطمئنان عليهم. اشتريت هدايا وألعابا لكل فرد من أفراد أسرتي لأجعلهم فرحين مثلي بأول راتب استلمته من العمل، وحين وصلت الدار عانقت أولادي وعائلتي وكأنني لم أرهم منذ سنين، بقيت أسبوعا وأبلغتهم اني سأغيب لفترة أطول لأنني أريد أن أغير من حالنا الميؤوس منه.

واصلت العمل فترة طويلة وكان فقرنا دافعا إضافيا يزيد من قدرتي على تحمل تعب العمل، بين فترة طويلة وأخرى كنت اعود إلى البيت لكن مرة بعد أخرى كنت ألاحظ أن الأولاد لا يجلسون معي وان جلسنا معا ابدو غريباً بينهم.. حديثهم غير الحديث الذي كنت أتوقعه منهم، كنت أحاول أن اشاركهم الحديث والآراء لكنهم كانوا لا يهتمون لرأيي وحديثي، حتى زوجتي باتت غريبة في تصرفاتها وكأنها اعتادت أمر غيابي، عدت إلى عملي وكان القهر يملأ قلبي وكنت أحاول أن أستمر في العمل فترة أطول تهربا من الذهاب الى البيت، بعدها قررت ترك العمل والتفرغ لعائلتي لعلي أستطيع إعادة الحب والألفة التي كانت بيننا سابقا، بقيت فترة طويلة بين اولادي وزوجتي ألبي طلباتهم وحاجاتهم لكن دون جدوى فكان التقرب لهم شبه مستحيل فقد كانوا يجلسون وحدهم في الغرفة كثيرا ووالدتهم معهم وانا أصارع الوحدة في غرفتي وما أن أذهب إليهم حتى يتعذر الواحد تلو الآخر بأن لديهم عملا أو شيئا اخر، تحدثت مع زوجتي في هذا الامر فقالت إنها مسألة وقت كونك قضيت فترة طويلة في البعد عنهم عليك أن تصبر.

صبرت وفعلت كما قالت زوجتي إلى أن جاء اليوم الذي صدمت به حين جاء ابني الكبير برفقة فتاة فسألت من هذه؟ أجابت زوجتي بكل برود أنها خطيبة ابني الكبير وقد نسيت هي والأولاد إخباري عن الخطوبة، شعرت بإحباط شديد ويأس عميق وتعب سنوات العمل قد تراكمت فوق راسي، مكثت صامتا عدة أيام لا أتكلم مع أحد إلى أن اتخذت قراري بالعودة إلى عملي لأني في كلتا الحالتين غريب، غريب في العمل وغريب في بيتي ووسط عائلتي.

نصيبي من اللغة

أمير بركات

لم تنصفني ظروفُ الزّمان
فلم أعد أعرف كم انتظرت
وكم سأنتظرُ من آخر الحسناوات
تلويحة أو التفاتة ابتعدتُ..
كم ابتعدت !..
وبخطواتي البطيئةِ جدّا
قطعتُ غاباتِ الصّمتِ الهادئة
ولكنّي لم أنسَ..
وغدوتُ كاذباً أمامَ أدواتِ
الجزمِ والنصب ولم أنسَ
أوّلَ صورة للعيون السّود ...
ولن أنسى!!
ابتعدتُ..
كم ابتعدت !..
وبخطواتي المترنّحةِ جدّاً
حتّى صارَ لي أمامَ عينيكِ
تاريخٌ من السّقوط
لا أنسى ولا أُشفى
وأكونُ مجروراً مكسوراً على الدّوام
لا يشملني نزعُ الخافض!!

سئمتُ العيش

سالار الكوجك

سئمتُ العيشَ من غير السّعادَهْ
كعشقٍ بائسٍ مُنْذُ الولادَهْ
عجزْتُ من الخضوع أمامَ يأسي
كعبدٍ متعبٍ يجثو لسادهْ
أنا ذاكَ الذي أضحى غريباً
على الطُرُقاتِ أثناءَ الإبادَهْ
أنا ذاكَ اليتيمُ يذوبُ فقراً
على شُرُفاتِ مَملكةِ الرَّمَادَهْ
تراكمَتِ الهمومُ على فؤادي
وأمواجُ اقتلاعي في زيادَهْ
تقاسَمَتِ الحَمَاقاتُ افتراسي
وصِرْتُ كعودةٍ تهوى الجُرادَهْ
سئِمْتُ الحبَّ في زمنٍ خطيرٍ
يموتُ الطفلُ جوعاً في بَلادَهْ
سبايا يُغتصبْنَ بعنفوانٍ
على أيدي الغزاةِ بلا هَوَادَهْ
تُكالى في العراءِ بلا ستارٍ
يَذُقْنَ مَرَارةَ الأقدارِ (سَادَة)
فكيفَ أعيشُ في جلبابِ إثمٍ
كسيرَ القلبِ.. مسلوبَ الإرَادَهْ؟!
أصارعُ وحشتي بدُجى الليالي
ودمعي نازلٌ فوقَ الوسَادَهْ
فمن لي؟!
من سيفتحُ يا جروحي
لأضغاثي وأحزاني عيادَهْ

سكنتْ

سليمان ألعدوي

سكنتْ تجرّ الشوقَ للأكبادِ
وتسللتْ عبر الشهيق تنادي
وتبسّمتْ كلّ المواجع علّها
تخفي أنينَ الصمتِ والإجهادِ
والروح في مُقل المنال توسدتْ
هيهات تعصر هالتي ووادي
واتتْ لتذرف بالعيون وشائجاً
تسعى لها الأنفاسُ بالميعادِ
مَن ذا يجمّله الإباء بقدرةٍ
ويزيح وجه الخوف بالإنشادِ
مَن ذا يؤسّس للعبور مواكبا
يمضي بها الآباء للأحفادِ
ادري بانّ الوعد مثلك حائر
والودّ يقطن صحوتي وسهادي
ادري بأنك بالدموع تكيله
حين احتفى الإيغال بالأصفادِ
أيلوذ فينا البعد بعد توجس
ليعيد شمس الوصل للإيقادِ
أينوء جهدكَ بالفرار مراوغا
لن يبلغ القممَ المنيعة وادي
قدرٌ أصاب العمر منذ تفتحتْ
تلك الرؤى كالصبح والأورادِ
وتخضبتْ بالكبر بعض مداركٍ
حين استفاق على الربوع مرادي
وهوتْ تهيم على الشتات طريدة
لتذوق طعم الموت والميلادِ
فاغرسْ جبينك بالمحبة طائعا
واكتب شعار الوصل بالأضدادِ
وأكملْ صنيعك اذ تفوز براية
تعلو على الهامات والأعوادِ
فالعمر أوشكَ بالرحيل ولم يكن
يوما على تلك السفوح يعادي
سكنت بقربك والحياة مريرة
يا ليتها نالت رضا الأمجادِ

مطبوعات وصلتنا 436

* فيصل عبد الله، دفتر المنفى... بين النزل والبيت كامل شياع ، منشورات دار المدى .الطبعة الأولى - بغداد 2023

* صباح المندلاوي ، تعال معي الى قنديل - بغداد 2022

* فيصل الفؤادي، ثلاثة عقود من النضال النقابي، دار الرواد المزدهرة، ط 1- بغداد 2022

* شاكر كتاب ، النص الأرجواني في أدب غسان كنفاني .منشورات اتحاد الادباء - بغداد 2022

* د.محسن محمد حسين ،بندلي جوزي ..من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ودور الكرد فيها ، الاكاديمية الكوردية - اربيل 2023

* مقداد مسعود ، أيميساك وتأنيث الكرسي .دار المكتبة الاهلية - البصرة 2022

* بلقيس خالد ، مزاج المفاتيح .دارالمكتبة الاهلية - البصرة 2022

AUGH